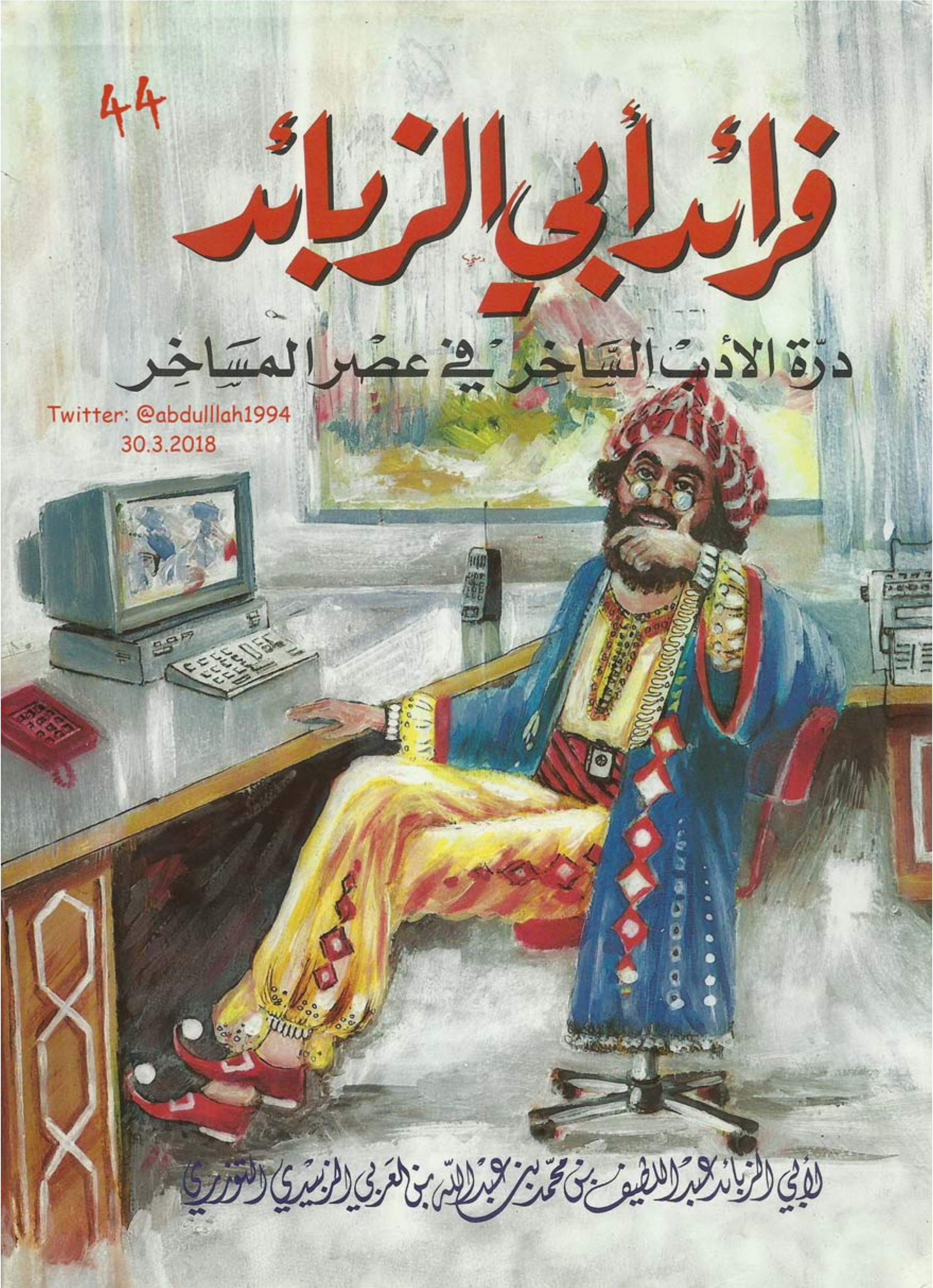

44
فرائد أبي الزبائد
درّة الأدب السّاخر في عصر المسَاخِر
Twitter: @abdulllah1994
30.3.2018
لأبي الزبائد عبد اللطيف بن محمّد بن عبد الله بن العربي المزبيدي التوزري



لأبي الزبائد عبد اللطيف بن محمّد بن عبد الله بن العربي الزبيدي التوزري
نفعنا الله بعلمه آمين...

رواه الفقير إلى ربّه الغني

عبد اللطيف الزبيدي

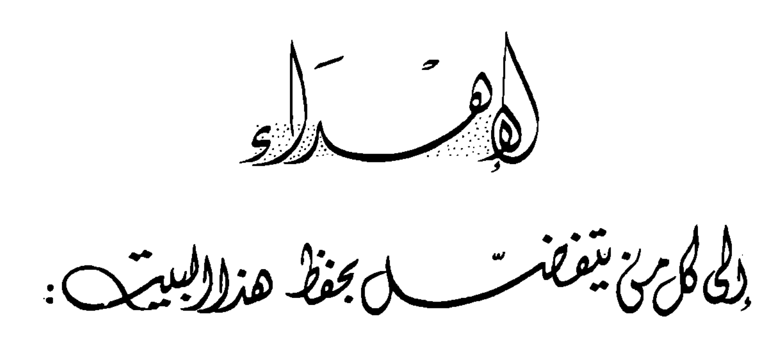
تغمّده الله برحمته عندما يتوفاه

فرائد أبي الزبائد

درة الأدب الساخر في عصر المساخر



الطبعة الأولى ١٤١٣هـ - ١٩٩٣م



أمةٌ قدْ هُزِمَ العَقلُ بِها
يَسْتوِي فيها الحِجا والخَبَلُ

أبو الزائد

الفهرست

جُمهوريّة الحَماقة

جُمهوريّة الغَزَل

تقديم

الحمد لله مبدع الإبتسامة، ومُطلع فجر الدعابة من ليـل القتـامـة. فلـولا البسمة، كانت تخنقنا الغمّـة، في هذه الأمة.

أما بعد، فلما رأيت فرائدي منثورة في صحف يُمسح بها الزجاج، ويؤكـل عليها الدجاج، أو يذروها العجاج، آثرت الرفق بحالها فجمعتها فيما بين يـديك، لتكون حلية للألباب، وتحفة يتهاداها الأحباب. فهي فرائد ما ضمّـها كتاب. وقد نثرت قصارها بين طوالها ترصيعاً وتنويعا.

ولـمّـا كانت أحوال الأمّة، عافاك الله، لا تخفى، وأدواؤها لا تُـشفى، فـلا تنهض بأعبائها هـمّـة، ولا تجدي لشفائها قمّـة، حبّـرنا ما بين هـذه السطـور تفريجاً للكرب. وإنارة للدرب. ومتى تجلّـت الغاية، لم تحوجك إلى آية. وفي هذه الكناية الكفاية.

إعلم، أضحك الله سنّـك، وأفعم باللطائف دنّـك، ان هذه الفـرائد تـريـاق لأمراض العصر، التي جعلت الإنسان في خسر. فهي تحفظ لك الشبـاب. وتقـوي الأعصاب. وتقيك الضغط والإضطراب. وتنجيك من الأرق والإكتئـاب. وتُبعـدك سنة ضوئية عن الأحزاب. وكما لم يقل المثل: علاج كل وعكة ضحكة.

يضم هذا السفر، بعد إذنك، فرائد جمّة بينها جمهوريتان، إحداهما «جمهورية الحماقة» التي ترى فيها كيف يتغزل الحمقى. وكيف يفجّرون أشعار الحماسة وكيف هو الرثاء عندهم والوصف.

والأخرى، «جمهورية الغزل» التي دخل شعراؤها عصر الذرة والإتصالات السلكية واللاسلكية. وتقرأ فيها غزل أصحاب المهن. غزل الطبيب والقصّاب والتاجر والبوليس والدبلوماسي والصحافي والزبّال والحمّال والحانوتي... ولكل واحد منهم قاموس خاص تراه بذاته وصفاته في شرايين غزله.

أما «أصل الكلام» فقد قصدنا به إتحافكَ بما خفي من أصول أسماء الأعلام.

وهلم دفعاً من الأبواب والنوافذ. فعُضَّ على نسختك بالأنياب والنواجذ.

وإنه لبسم البديع اللطيف.



دعاء

ربِّ...

هب أمتي إصلاحاً

ولا كالبريسترويكا

ومصارحــة

ولا كالجلاسنوست

وأمــانــاً

ولا كالترتيبات الأمنية

وكن لنا مدداً وسنداً في النظام العالمي الجديد

وقِنا عذاب الهيمنة الحميدة.

محاولة القدرة

مُنذ فجر التاريخ، والمثقفون يفكرون في الحكومة المثالية. فمن المملكة المثلى إلى الجمهورية المثالية إلى جزر الخيال والأحلام أو اليوتوبيا... ترى الفلاسفة والمفكرين يخططون ويبرمجون ويقترحون، ومع ذلك لم يظفروا بشيء عبر التاريخ.

إفتح أي كتاب تاريخ، في أية حقبة لأية فترة، سترى أنه لم يكن في الإمكان أسوأ مما كان!

كم كان مغروراً ذلك الذي قال: «السياسة فن الممكن». فقد سبقه امرؤ القيس بقرون:

«فقلت له: لا تبك عينك إنما
نحاول ملكاً أو نموت فنعذرا»

القدرة محاولة إذن؟

أبو الزبائد آخر من حاول تشكيل حكومة مثالية. يقول: في هذا العالم الذي تقف فيه الدول على قدم المساواة: الصين وسيشيل، الهند والنيبال...

الولايات المتحدة وليشتنشتاين... ويختار فيه الناس ما طاب لهم من ألوان السلطة، من ستالين إلى عمر بن عبدالعزيز... ومن سليمان البليد إلى ونستون تشرشل... ومن امبراطوريات لا تغيب عنها الشمس إلى دول حبر على ورق... قررت أن آتي بما لم تستطعه الأوائل: تشكيل حكومة فريدة من نوعها، نسيج وحدها. ليس كمثلها شيء.

ثم ان لأعضاء الحكومة التي سأشكلها مناعة لا تُضاهى، ومنعة خارقة ضد أي عدوان عليها. فلا قدرة لمخلوق على النيل ولا حتى من رأس شعرة منهم.

أنا إنسان موضوعي. أضع الحلول للمشاكل قبل أن توجد. بل أضع حلولاً حتى للمشاكل التي لا يمكن أن تحدث.

عندما تأملت واقع السلطة وحقيقة القدرة في عالمنا، إنتهيت إلى أن الأحياء قلما يفلحون في قيادة الأحياء.

لذلك آثرت أن أشكل حكومة من الخالدين!

قبل كل شيء، مسألة الموقع الجغرافي والحدود الواضحة غير مهمة. فالوضوح من شيم الصغار. أما الكبار فيجب أن يكون لهم نصيب من «الدواهي تحت السواهي»، ومن «الماء من تحت التبن».

يجب أن يصبح الفرد كالنملة أمام هرم هيبة السلطة. ما عليَّ الآن إلا أن أوزع الحقائب. وسأختار الأفضل. واعداً وعداً صريحاً بحل جميع المشاكل القديمة منذ خلق آدم وحواء! وربما دعوتهما للمثول أمام البرلمان لبعض الإستيضاحات والإستفسارات اللازمة. فالناس جميعاً سواسية أمام قوانين الأحكام العرفية.

*** الخارجية:**

أيهما أفضل يا تُرى؟ عبدالرحمن بن خلدون، فيلسوف التاريخ ومبدع علم الإجتماع، الذي عرف العرب، وخبر البربر، وألم بمن جاورهم من ذوي

السلطان الأكبر؟ أم معاصره وصديقه ذو الوزارتين لسان الدين بن الخطيب؟

كلاهما لا غُبار عليه لولا أنهما كانا من أصحاب المبادىء، وهذا يتنافى مع الخطة. سأجرب زهير بن أبي سلمى أولاً. فهو القائلُ:

«ومن لم يصانع في أمور كثيرة
يضرس بأنياب ويوطأ بمنسم»

الأنياب أنيابي أنا طبعاً! والمنسم منسمي!

*** مجمع القوى:**

ليس ثمة شخص أفضل من الحجاج لإستتباب الأمن. فهو جدير بهذه الحقيبة التي تجمع الداخلية والدفاع والجيش والدرك... لكنه، أحرق كل أوراقه. يجب أن آتي بوجه جديد.

آه! لو لم يكشف «أبو محمد» الثقفي أوراقه. لو لم يقل: انه ليرى رؤوساً قد أينعت! وانه ينظر إلى الدماء بين العمائم واللحى!

آه، لو لم يردد: «قد لفها الليل بعصلبي»!

لو لم يقل: «قد شمّرت عن ساقها فشدوا...».

كم أتمنى أن يكون رئيس مجمع القوى «لا يُقعقع له بالشنان، ولا يغمز جانبه كتغماز التين» آه!

عمرو بن كلثوم أنسب؟ لكنه كشف مخططاته في معلقته. لولا تلك المعلقة اللعينة التي شرح فيها كل أساليبه، لاستطعت أن أجعله يفرمُ المعارضين فرماً. أوليس القائل:

«متى ننقل إلى قوم رحانا
يكونوا في الغداة لها طحينا»

مولينكس! سلمت يداك يا عمرو بن كلثوم.

لكنه هو القائل أيضاً:

«ملأنا البر حتى ضاق عنا

وماء البحر نملأه سفينا»

كلا! هذا الرجل له طموح عجيب. يجب أن يُستبعد تماماً. فهو يتوق إلى أن يصبح كل السلطة. يريد أن تكون في يده الحقائب التي تشكل مفاتيح القدرة. يجب أن يوضع في الظل! الكفاءة إلى هذا الحد ممنوعة. والطموح إلى هذا الحد محظور. أريد مسؤولين كالماء: لا شكل، لا لون، لا رائحة. كل مراكز القوى الحساسة التي تعني السيطرة يجب أن تكون بيدي أنا... لا بيد عمرو! فقد صدق المستشارون الذين أشاروا عليَّ بأن الجيش له وظيفة واحدة وهي الدفاع عن أمن البلد. وبما أن الأعداء كلهم في الداخل، يجب أن يصبح الجيش والشرطة شيئاً واحداً. ولويس الرابع عشر، ليس أفضل مني. فأنا السلطة والسلطة أنا. أنا القانون. أنا كل شيء.

*** العدل:**

العدل مشكلة. ولا يجوز أن أختار شخصاً متطرفاً في الإعتدال مثل عمر ابن عبدالعزيز. فأنا أصلاً لا أُحبُ التطرف. القوي الأمين هو الجدير. يجب أن يكون مؤمناً بقول زهير: «ومن لا يظلم الناس يُظلم».

لكن يجب أن تكون العدالة في يد شخص رحيم بالناس. فالأنسب حبيبنا أبو نواس. لقوله:

«يا رب إن عظمت ذنوبي كثرة

فلقد علمت بأن عفوك أعظمُ

إن كان لا يرجوك إلا محسن

فبمن يلوذ ويستجير المجرمُ؟»

أوليس من الحكمة أن يكون حامل الحقيبة ذا نقاط ضعف حتى لا يتطاول كثيراً؟!

*** الصحــــة:**

مرة أخرى أحتاج إلى مثل الحجاج الذي قالت فيه ليلى الأخيلية:

«إذا هبط الحجاج أرضاً مريضةً
تتبّع أقصى دائها فشفاها»

كم أنا مغرم شغوف متيم بشفاء الداء الأصلي في الشعب! لكنه أحرق أوراقه. ولا حرج، فلعنترة العبسي إلمام عظيم بالطب، وهو القائل:

«وسيفي كان في الهيجا طبيباً
يداوي رأس من يشكو الصداعا»

*** الإســكان:**

يجب أن أستفيد من موهبة الكميت، الذي لا تشغله حقيبة الوزارة عن أهم شيء: الولاء. يقول:

«ولم تلهني دار ولا رسم منزل»

لكن للمتنبي قدرة أكبر على إيهام الناس بتوسع عمراني ما، وإقناعهم بأن أحفاد أحفادهم سيحصلون في النهاية على مساكن:

«لك يا منازل في القلوب منازل
أقفرت أنت وهنّ منك أواهل»

وبمجرد استلامه الحقيبة الوزارية، سأجبره مهدداً بسحبها، على تغيير هذا البيت وتعديله على النحو التالي:

«لـــك يــا منــازل فـي القلـــوب مهــازلُ»

لكن، هـل من الحكمـة أن يعطى شخص طمـوح مثـل أبي الطيب هــذه الحقيبة؟ سأوكل إليه أمراً آخر فيما بعد! وأحمد شوقي أولى بها، لقوله:

«كــــم بنينــــا مـــن ثــراهــــا أربُعــــاً

وانثنينــــا فمحـــونــــا الأربُعـــــا».

أينك يا أبا العتاهية؟ فالحقيبة لك:

«لـــدوا لـلمـــوت وابـنـــوا لـلـخـــراب

فكـلـكـم يـصـــيــــر إلـــى يـبــاب»

*** البريد والبرق والهاتف:**

لا مانـع لـديَّ من الإستعانـة بالخـبرات الأجنبيـة في الميادين الفنيــة! عمر الخيام لهذه الوزارة وبلا منازع:

«سمعـــت صوتـــاً هاتفـــاً فـــي الســـحر»

*** الشباب والرياضة:**

دون شك، القائل:

ألا لـيت الـشبـــاب يـعـــود يـــومـــاً

فـــأخبـــره بـما فـعــــل المـشـيـبُ»

*** الشؤون الإجتماعية:**

أفضل أن تكون امرأة. وقد فكرت في ولادة. إلا أنها دخلت علـيَّ تصرخ

مطالبة بأن يكون ابن زيدون على رأس الوزارة.

الخنساء؟ كلا! فمعهد الفنون الدرامية أولى بها.

رابعة العدوية؟ كلا! أولى بها إعداد برنامج «همسات الليل».

ليلى الأخيلية، هي القمينة بهذه الحقيبة، لأنها تعشق أسلوب الحجاج في الحكم!

*** الإقتصاد والمالية:**

من القائل:

«وما المال والأهلون إلا ودائع

ولا بدّ يوماً أن تردّ الودائع»

أن يرد المال إليَّ أنا في النهاية، هذا هو المنطق السليم والولاء لهيبة الدولة!

*** الطرق والمواصلات:**

إبن بطوطة رجل حالم هائم تائه لا يصلح لهذه الخطة. وقد يكون الطغرائي أفضل منه فهو القائلُ:

«إن العلى حدثتني وهي صادقة

فيما تحدث أن العز في النُّقَلِ

لو أن في شرف المأوى بلوغ منى

لم تبرح الشمس يوماً دارة الحملِ»

لكنه فشل في أداء مهامه عندما كان وزيراً.

الأجدى لهذه الخطة أحد الصوفيين لأنهم هم أهل الطرق!

فبإمكان المتصوف أن يمد لنا طرقا لا تكلف فلساً واحدا. طولاً وعرضاً وارتفاعا. من الأرض إلى السماء! مجاناً!

سأختار أكبرهم: محي الدين بن عربي.

* **الطاقـــة:**

كثيرون هم أولئك الذين أشاروا علـيَّ باختيـار أبي الغـلاء المعـري لهذه الخطة، لحاجة عالمنا الماسة إلى الإقتصاد في الطاقة، فهو القائل:

«علـلانـــــي فـــــإن بيـــــض الأمــانـــــي
فـنـيـت والـظـــــلام لـيــــــس بـفـــــان»

لكنني رددت عليهم ما أشاروا به واخترت نفطويـه. حتى وإن قـال فيـه العاذلون المعارضون:

«أحـــــرقـــه الـلـــــه بـنـصـف اسـمـــــه
وصـيّـــر الـبـــــاقـي بُـكـــــاء عـلـيـــــه»

* **الصناعـــة:**

هذه مسألة غير مهمة. ما حاجتنا إلى هذه الأمور الرائجـة في الغـرب؟ على كل حـال، سـأختـار لهذه الحقيبـة إبن رشيق القيرواني فهـو صـاحب كتـاب «العمدة» الذي يتحدث فيه عن صنـاعـة الشعـر. والشعـر المصنـوع. والشعـر المطبوع!

* **التربية والتعليم:**

أليس خطراً أن آتي بشخص يؤمن بقـول علي بن أبي طـالب: «لا تعلمـوا أبناءكم ما علمتم، فإنهم خلقوا لزمان غير زمانكم»؟

هذه حقيبة مصيرية يجب أن أختار لها شخصاً يجعل التعليم هائماً على وجه الأرض بلا بوصلة! هاتوا إبراهيم طوقان:

«يا من يريد الإنتحار وجدته
إن المعلم لا يعيش طويلا»

*** الإعلام والثقافة:**

أنا بصدد استكمال التحريات عن القائل:

«غنت سليمى بالعراق فأطربت
من بالشآم فرددوا ترديدا
ولطالما رقصت بمصر فشاهدوا
في اصفهان لطيفها تأويدا»

فقد خصص البيت الأول للإذاعة والآخر للتلفزيون.

لكن ابن الرومي أيضاً خبير بأمور الإذاعة والتلفزيون:

«ومسمع لا عدمت فرقته
فإنه نقمة من النقم
كأنني طول ما أشاهده
أشرب كأسي ممزوجة بدمي
تشهده فرط ساعتين فينـ
ـسيك عهوداً لم تؤت من قدم
يُفزّع الصبية الصغار به
إذا بكى بعضهم ولم ينم»

*** الزراعـــــة:**

أبو حنيفة الدينوري صـاحب كتـاب «النبـات» أولى بهـذه الخطـة. لكنـه سيصدع رأسي بمسألة التخصص.

الجاحظ أولى منه. لأنه صاحب كتاب «الحيوان». والثروة الحيوانية تابعـة للزراعة. وسيشغل الوزارة بالإستطـراد المعـروف بـه حتى في أدنى رسـالـة أو مذكرة إدارية. وهكذا ستسير الأمور على ما يرام!

هناك مناصب مهمة جداً، لا بد من البت فيها.

*** مدير الأمن:**

سأختار القلقشندي، صاحب موسوعة «صبح الأعشى». فهو يقول:

«على رئيس ديوان الإنشاء أن يحترز من أن تعـرف جـواسيسـه بعضهم بعضاً، لا سيما عنـد التـوجـه للمهمات. وإن استطـاع ألا يجعـل بينـه وبينهم واسطة فعل. وعليه أن يصـغي إلى ما يلقيه إليه كل من جواسيسه وعيونـه، وان اختلفت أخبارهم، ويأخذ بالأحوط فيما يؤدي إليه اجتهاده من ذلك، ولا يجعـل اختلافهم ذنباً لأحد منهم، فقد تختلف أخبارهم وكل منهم صادق فيما يقوله».

لكن القلقشندي يبدو غير صالح لهذه الخطة، فقد كشف كل الخطة. لذلك أفضل لهذه المهمة أبا فراس الحمداني. فهو شخص لا مجال للشك فيه. ثم انـه متحفظ وهو يقول:

«ولــكن مثلــي لا يُــذاع لـــه ســـرُّ»

*** مدير الطيران المدني:**

أنا حائر بين شخصين. أيهما أفضل؟ إبن سينا القائل:

«هـبـطـت إلـيـك مـن المـحــــل الأرفــــــع
ورقـــــــاء ذات تـــــــدلـــــل وتمنـــع»

أم البهاء زهير القائل:

«على الطائر الميمون يا خير قادم

وأهلاً وسهلاً بالعلا والمكارم»

البهاء أنسب للبروتوكول، أليس كذلك؟

*** مدير وكالة الأنباء:**

هنا أيضاً أنا حائر بين أمرين: جهينة التي اشتهرت طوال حياتها بأنها صاحبة الخبر اليقين؟

أم طرفة القائل:

«ستبدي لك الأيام ما كنت جاهلاً

ويأتيك بالأخبار من لم تزود

ويأتيك بالأخبار من لم تبع له

بتاتاً ولم تضرب له يوم موعد»

طرفة بن العبد البكري أفضل، لأنه سيوجد وكالة أنباء لا تحتاج إلى مراسلين كما هو واضح في برنامجه سالف الذكر.

* مشكلة عجيبة هذا الشاعر، الذي ملأ الدنيا أصواتاً وأصداءً: أبو الطيب المتنبي. كل المستشارين يوصون بإعطائه حقيبة. ولكن ذلك غير ممكن.

هناك خطة وجيهة. سأجعله مديراً لمركز المعوقين. فهو القائل:

«أنا الذي نظر الأعمى إلى أدبي

وأسمعت كلماتي من به صمم»

تلك كانت الحكومة التي شكلها أبو الزبائد، وإن لم يرد أي تفصيل عن موعد الاعلان عنها رسمياً.

أما المراقبون، فقد انقسموا قسمين: فريقاً يقطع بفشل هذه الحكومة لأنها لم تأت بجديد ولم تخرج عن المعهود. وفريقاً يجزم مراهناً على نجاحها الباهر مستقبلاً لكونها لم تأت بجديد ولم تتنكر للمألوف!

الصومال

أصل الصومال: الصوم آل... وفي قول الشاعر البيان الفصل:

«الصـــوم آل» إلـــى مـــا آل مـــن محـــن
حتـــى التجـأنـا، علـــى يـأس، إلـــى اليمـــن

وهـــل ســـواهـــا وهـــذي اليـــوم جـــامعـــة الـــ
أعـــراب سكـــرى بكـــوكتيـــل من الـــوهن

والأرض مَـسْبعـــةٌ قطعـــانهـــا قطـــع
فـــوضـــى النظـــام هي القـــانـــون فـــي الفتن

متـــى استقـامـــت أمـــور العُـرْبِ واعجبـــي؟
ســـر الحكـايـــة لا يخفـــى عـــلى الفطـــن

الصفرية

قال المصنف:

لما رأيت القوم غارقين إلى الآذان في بحار السياسة، قلت: لادعنهم لعظائم الأمور. فليس هذا شأني، وأنا أغرق في قطرة. فلهذه القضايا رجالات أفذاذ، منذ عشرات السنين وهم يشيدون لنا صروح هذه الأمجاد الممتدة من الماء إلى الماء. ويطمئنوننا، لا حيرهم الله، لكي ننام هانئين، فهم يقظون. والحمد لله الذي لا يُحمد على نعمة سواه.

في لمح البصر، يعود بك الكاتب إلى أمة غابرة، كانت تسودها أفكار غريبة، ونظريات عجيبة. في مقدمة تلك النظريات والمذاهب: مذهب الصفرية.

يقول: كان للصفر عند تلك الأمة البائدة (ليس من مات فاستراح بميت...!) مكانة تفوق الخيال. فهو مبدأ الأعداد كلها وإليه منتهاها. به الزيادة والنقصان. وربك المنّان.

وما تلك سوى نظرة فلسفية صوفية إلى الصفر. وفي اعتقادهم أنه ما دام الصفر كل شيء، فلماذا نروم سواه؟ هكذا تتساءل أدمغتهم المفكرة، حتى قال شاعرهم:

من الصفر نبدأ في كل شيء

فإما انتهينا انتهينا إليه

كلام الرجال كلام وحيد

ومن ذا سيعتب يوماً عليه؟

ترزح تحت نير الإستعمار مائة سنة؟ تستقل قبل ثلاثين سنة أو قبل عشر دقائق؟ عليك أن تكون دائمًا على موقف واحد أحد.

لديك كثافة سكانية؟ عندك صناديق ثروات المشرقين والمغربين؟ حباك الله أرضاً واسعة شاسعة؟ يجب أن تتمسك دائمًا بالصفر. فكل بنيان خديعة، وسراب بقيعة...

ومن المأثور عن شعراء الصفرية:

«ضحكنا على ذقن الزمان فلم نَشدْ

بناءً ولم نترك له ما يهدمُ

إذا جئت قفراً فاترك القفر مقفراً

فما لك تبني والزمان يُحطم؟»

تتساءل، ولا ريب، عمّا يدفع الناس إلى مثل هذا التفكير العدمي الصفري؟ لكن أبا الزبائد لم يهمل هذه التساؤلات. فقد أورد نصوصاً موثقة، منزهة عن الإنتحال، لأهل الفكر من شعرائهم. يقول أحدهم، والأسماء في الهوامش غير واضحة:

دار ياس هذه دار قنوط

ما جنى الناس بها من عهد لوط؟

وإذا بشاعر مقلق ينبري له معارضاً قائلاً في قصيدة منها:

دار فهم، لم تكن دار قنوط
لعبة قائمة من عهد لوط

إلى أن يقول:

فاجعلوا القسيس ميخا عبرة
حاولوا أن تمسكوا بعض الخيوط
صنعة التاريخ فن رائع
شاهدوها إنها أحلى شريط

والإشارة هنا إلى القسيس ميخا براقشوف، أشهر قساوسة بلاد السافيات قديمًا، كما ورد في الأساطير. وقد عجبت للبيت الأخير. فقد بدا لي وكأنه إعلان من إعلانات زماننا.

بعد هذه الإشارة الخاطفة، يعود المصنف إلى مذهب الصفرية. مُسهباً غير مُطنب، قائلاً:

إيمان تلك الأمة البائدة بعقيدة الصفرية حملها على ألا يكون علمها بلا عمل. والعلم بلا عمل كالإستهلاك بلا إنتاج. والتعليم بلا منهاج.

فما كان من تلك الأمة المندثرة إلا أن اتخذت قرارات تاريخية بأن تكون كل ميادين حياتها صفراً في صفر. وحاشى أن تتوانى رجالاتها أو تتقاعس في النهوض بهذه الأعباء في رسالتها الخالدة. فإذا اقتصاد تلك الأمة صفر. زراعتها صفر. صناعتها صفر. سياساتها صفر. ثقافتها صفر. تعليمها صفر. أخلاقها صفر. صحتها صفر. عدلها صفر. إعلامها صفر. صفر في الحرب وصفر في السلم. حتى فنونها وصناعاتها التقليدية التي ورثتها أجيال عن أجيال باتت كلها مجموعة أصفار.

تتساءل: أيجوز أن تكون حالة تلك الأمة التي سادت ثم بادت قد آلت إلى هذا المآل؟ أم هذا تجن على أمة لم تعد هناك براهين جلية على وجودها؟

يضيف أبو الزبائد واضعاً الأدلة القاطعة بين يديك. فما هو إلا ناقل لما يفوق الأساطير عن الصفريين:

لا يذهبن خيالك إلى أن مذهب الصفرية لا يقوم على أساس أو منطق. فقد قضى أهله عشرات السنين وهم يمنطقون صفريتهم ويمذهبونها بما يحير الأفهام، ويفوق الأوهام ولا يلوح حتى في الأحلام.

تقول: ليت الأساطير جاءت بشيء عن صناعاتهم. فنشهد ما صنعت الأمم البائدة. يجيبك الشاعرُ:

يصنع الناس لنا حاجاتنا
فهُمُ في عُرفنا كالخدم

نشتري، في راحة، ما صنعوا
هكذا أبهة المحترم

تقول: عساهم وضعوا قيوداً وحدوداً لهذه الفلسفة؟ فيزيدك شاعر آخر علماً:

نم قرير العينين دون سؤال
كل شيء سيُشترى بالمال

شغلنا نحن شغل إنجاب نسل
وعلى الغير صنعة الأجيال

ورد الشطر الأخير في احدى الروايات هكذا: «وعليهم صناعة الأبطال». وفي ظننا أن ما أوردناه أقرب إلى الصواب. وربك العليم الوهاب.

تحضرني أبيات وردت في المناظرات الحامية التي روتها الأساطير عن أيام القس ميخا براقشوف. ولقد كانت بلاد السافيات تسودها أفكار صفرية دامت، في بعض الروايات، سبعين سنة. فإن صح ذلك صح أن عشرة السبعين دقاقة الأعناق. يقول الشاعر:

إحذروا أبطالكم لا تذهلوا
ربما هم نفخوا مثل القرب
حكموا العقل بوعي ورشاد
فالسياسات فنون ولعب
لا تهيموا برجال ربما
خدروكم بوعود وخطب
كم بلاد مزقت من بعد ما
سادت الدنيا على مر الحقب
تلك أرض السافيات اندثرت
من ترى يعلم من كان السبب؟
قيمة التاريخ أن تأخذ درساً
قبل أن تهوي في نفس المطب

دونكيشوت

كثيرون هم الذين يعرفون «دونكيشوت» الفارس ذا السيف الخشبي والحصان الورقي. البطل الوهمي الذي لا يحل ولا يربط، وتراه كعشواء تخبط، والمستجير به يمرمط. لكن ما أصل كلمة «دونكيشوت»؟

كلمة إسبانية، لكن أصلها عربي، كالكثير من كلام الإسبان بحكم طول مقام أجدادنا في الأندلس.

أصل الكلمة: «دونك الشّوط»،وقد روى لنا السلف الصالح أن جباناً كان يوهم الناس بأنه بطل الأبطال. وأنه متى وقعت الواقعة سيجرد حسامه فتكون ضربته ضربة لازب، فيصلا في الميدان، لكن كما يقول الشاعر:

فارس أجبن منه ما ترى
فهو في الهيجاء يبقى جانبا
فإذا ما هتف القوم به:
دونك الشوط، يولي هاربا

حتى لا تموت الأمثال

حدث أبو الزبائد قال:

كم تبدو لي الأمثال حزينة! هجرهـا النـاس إلا قليـلاً. وتغيروا... لم يعـد الناس يعرفون فنون القلم واللسان. والأمثـال طـواهـا النسيـان... جمال اللغـة أصبح أثراً بعد عين. وتذوقها بات من أساطير الأولين... عصر الهزال يـزحف... ينقض، إنقضـاض الصحـراء الكبرى على الـواحـات... إنقضــاض الفنـاء على الغابات... إنقضاض ثاني أكسيد الكربون على الأوكسجين... إنقضـاض التلـوث على الشطآن.

آه! ما أروعك أيهـا البـدوي الأمي. كنت تطـل من خيمتك، تقـول جملـة، فيسمعك الناس. يرددونها ترديد الأطفال ثرثرة جميلة. ويظلون يرددونها شهراً فعاماً فقرنا فتاريخاً. لقد أصبحت مثلاً سائراً. وغدت لهجتك العـاميـة فصحى التاريخ العربي. يا أيها البدوي الأمي، ما أروعك.

لقد حولت أيها البدوي عاميتك إلى فصحى. أما نحن فقد حولنا فصحانـا إلى عامية.

أنت كلك سخاء، ونحن كلنا نكران للجميل، وإنكار للجمال.

أخشى أن تموت لغتنا، فلا نجد حتى كلمات نرثيها بها. فنبكيها بكاء أبكم بدموع خرساء. بكاء البهائم بلا تراث، بكاء الدواب بلا تاريخ.

من يستطيع اليوم أن يطل من شرفة في الطابق العشرين، يقول جملة، ليسمعها الناس، ليرددوها، شفة شفة... قلباً قلباً... صدراً صدراً... عقلاً عقلاً... روحاً روحاً؟

في مدن ثاني أكسيد الكربون يمكن تسيير آلاف السيارات والشاحنات والحافلات. أما تسيير الأمثال فصعب عسير المنال.

لن يسمعك أحد من شرفتك في الطابق العشرين. وإذ تغلق النوافذ وتوصد الأبواب، تحبس نفسك في برجك الإسمنتي المسلح. فتحيط بك القبيلة الجديدة، قبيلة الشاشة الصغيرة، التي ما أن تضغط على زر التشغيل حتى تبدأ في تعييرك بأنك غير ألكن.

تسدل الظلام على الشاشة. تمتد يدك إلى كتاب من كتب التراث.

ما أبردها يا إلهي! لكأن يدي على دجاجة مجمدة.

«مجمع الأمثال» للميداني، هل يحتاج إلى بضع ساعات ليزول عنه الإنجماد كالدجاجة ذات الأفخاذ الثماني؟ كالدجاجة ذات الستة عشر جناحاً؟

ما ان تتصفح «مجمع الأمثال» حتى تتطاير العصافير مجنحة مزقزقة صاخبة، صخب الحياة النابضة الخافقة المرفرفة.

في كل مثل حياة حارة، متدفقة حيناً، متفجرة حيناً آخر، منسابة طوراً، عاصفة طوراً آخر، حانية تارة وتارة أخرى شرسة قاسية جهنمية... تماماً... كالحياة!

الأمثال، خلية في طياتها ورموزها وخطوطها المكثفة كل حياتنا الماضية.

هي كحبة الحنطة، تظل آلاف السنين كامنة ساكنة، ولكن متى وضعتها

في التربة وسقيتها ماء الحياة عادت إليها وقامت سنبلة فيها مائة حبة. وكل حبة قادرة على البقاء على قيد الحياة آلاف السنين.

أنا أيضاً مثل سائر... على قدمين... تارة شاعري، وتارة أخرى عاصف... فمعذرة إن كنت أحزنتك. فقد فعلت ذلك حتى لا تموت الأمثال.

وحتى لا تموت الأمثال صنعت لك ألف طائر من ورق، وضعتها في قفص كبير. وما ان هبت أول نسمة حتى ضج القفص بالحياة.

تأملها معي، رددها، إنها لعبة جميلة لا تنتهي. في النهاية ستضع ألف عصفور، وستعيد الحياة إلى الأمثال. سترى الأمثال تغدو موضة جديدة. مثلما كانت طوال قرون.

كيف تعود موضة الميني جوب، ولا تعود موضة تذوق جمال اللغة؟

هل غازلت اللغة عند الأصيل؟ وهمست في سمعها المرهف: أحبك؟

هل داعبت خصلاتها؟ هل سرحت وسبحت وجنحت في عينيها العربيتين؟

أية قشعريرة تسري في جسمك حين تداعب يدك هامسة: لا تتركني؟!
سأصنع لك أمثالاً جديدة جميلة تلهو بها كما يلعب الأطفال بالألعاب النارية.

تعال، اسمع، اصغ:

* اخدع من الكاميرا الخفية.

* أكثر انتشاراً من فيروس.

* أخبث من كيسنجر.

* ألين من مايكل جاكسون.

* أكثر انتشاراً من شريط ممنوع.

* أجذب من يانصيب.

* أكذب من تنزيلات.

* باركته الرقابة (أي منعته فساعدته على الإنتشار).

* أغرب من ربطة عنق في الصين.

* أكثف من حاجبي بريجنيف.

* يروم حلق لحية كاسترو (أي يطلب المحال).

* أنف ديجولي.

* كإبرة الممرض (شخص في طبعه الإيذاء).

* كالأسطوانة المتشققة (يكرر نفس الكلام).

* مثل أسطوانة الغاز (شخص كثير الريح!!).

* أفتك من الإيدز.

* أفتك من السرطان.

* كملعقة المطعم (إستعملها الناس جميعاً).

* أستر من مايوه (للسخرية).

* ألزج من الفازلين.

* كالصحيفة اليومية (لا تعمر أكثر من يوم).

* أفتك من سيانور.

* هُرشِم القوم (لقوا مصير هيروشيما).

* التقمه مثلث برمودا (مثل طارت به العنقاء).

* أرق من البالالايكا.

* ألهى من ملهى.

* أحر من مفاعل ذري.

* جفون كاتيوشية (ترمي بقذائفها بدل: سهامها).

* أشهر من همبرجر.

* أشجى من التشيللو.

* أندر من باندا.

* كروليت القمار (شخص ليس له وفاء لأحد).

* تتزحلق على الجليد (يضرب للمرأة تمر بخفة ورشاقة).

* كشاحنة البلدية (يضرب لمن هو شديد الصبر على المكاره).

* كالمنديل الورقي (لا يصلح إلا مرة واحدة).

* كسلة المهملات (يضرب لشخص لا يوجد فيه شيء يصلح).

* كالطائرة النفاثة (شخص كثير التدخين).

* مثل كيس الشاي (يبوح فوراً بما لديه).

* أضراس تيربو (يضرب لسريع الأكل).

* كالموجة القصيرة (يضرب للشخص يوصل الخبر إلى أقصى الأقاصي).

* يسعى بدفع العجلات الأربع (يبذل قصارى ما لديه).

* اس، فان للجدران ميكروفونات.

* أشهر من ناطحة سحاب.

* الدنيا كالمطار (لا يقيم بها أحد).
* مثل الروكبي (وقع القوم بعضهم فوق بعض).
* أشد جاذبية من بانكوك.
* أرخص من خادمة فلبينية.
* أذل من كيس الزبالة.
* كعمر السيجارة.
* ذاكرة كمبيوترية.
* أبرد من ثلاجة الموتى.
* مثل البنك (لا يشبع من المال).
* كرادار المطار (لا يكل من الدوران).
* ككرسي الطائرة (لا يدوم لأحد).
* أضيع من تقي في ديسكو (مثل أضيع من الأيتام في مأدبة اللئام).
* أكذب من الرصد الجوي.
* أخفى من أشعة جاما.
* نزلت على المدينة قنبلة نيوترونية (أصبحت مقفرة).
* أشرس من نابالم.
* أنف بينوكيو.

الكرة الآن في مرماك... خذ القلم وحاول كما حاولت أنا أن تضع ستين مثلاً جديداً. حتى لا تموت الأمثال. ولو لبى هذه الدعوة، على مستوى العالم

العربي كله، ألف شخص فقط، من مائة وثمانين مليون عـربي، لأبـدعنـا ستين ألف مَـثَـلٍ جديد. أي أكثر بكثير وكثير من كل الأمثال التي جمعهـا الميـداني في «مجمع الأمثال».

عندئذ، سترقص اللغة العربية، وهي تتلقى هذه الباقات من الأمثال. حتى لا تموت الأمثال.

مع زوجة مزبّد

الآن، يجب العودة إلى إحدى الحكايات أو النوادر عن مزبّد، حبيب القلوب، وإعادة قراءتها بأبعاد ورؤى أخرى.

فقد قال لزوجته ذات مرة وكانت على السلّم: لا تنزلي ولا تصعدي ولا تقفي مكانك!

موقف المسلمين اليوم مما يحدث في البوسنة والهرسك وجنوب الإتحاد السوفياتي سابقاً شبيه بوضع زوجة مزبد، تماماً.

بالخط العريض، يبدو ان الكتلة الإشتراكية سابقاً أصبحت بنقاطها الساخنة، التي تهم المسلمين، عبارة عن مصائب مفخخة بالمصائد.

إذا سكت المسلمون فمعنى ذلك أنهم، كعادتهم تضامنهم كلام فارغ وشعارات جوفاء. وكالعرب: تنديد، إستنكار، شجب... بينما تؤخذ الأمة أخذة رابية!

وإذا نطقوا ووقفوا في وجه الفوضى العالمية الجديدة، أسالوا لُعاب المتربصين في جميع أنحاء العالم. وكان ذلك عبارة عن تصريح بأنهم يريدونها حرباً دينية.

أما إذا تدخلوا وأرسلوا قوات أو مساعدات ذات علاقة بالشؤون العسكرية أو المقاومة... فقد حققوا عندئذ آمال الطامعين في حروب صليبية جديدة، يكون ضرامها كحرب البسوس وكنار المجوس.

زوجة مزبّد عندما فاجأها زوجها بأن عليها أن تختار حلاً غير النزول والصعود والوقوف، ألقت بنفسها في أحضانه فذهل لذكائها.

ففي أحضان من ستلقي الأمة بنفسها؟ في أحضان العالم النظامي الجديد؟

«فيك الخصام وأنت الخصمُ والحَكَمُ».

في التبريك والبربكة

إستهل أبو الزبائد هذا الفصل بالقول:

الآن... وقد نامت نواطير المجمع اللغوي العربي عن ثعالب الحداثة، تستطيع فئران الإرتجال أن تعيث فساداً في طامور اللغة في غياب قطط النقد والغربلة.

أنا مع تطور اللغة وتطويرها... مع ضرورة استيعابها الدخيل، بعد هضمه وتمثيله وتحويله إلى عنصر لغوي عربي.

ما العيب في أن تأتي ديارنا مفردة دخيلة، فتصبح بعد فترة من أهل البيت؟ ما دامت قد احترمت النواميس اللغوية كالوزن والخصوبة الإشتقاقية، إن أمكن، والإنضباط بالأصول والجذور، الثلاثي، الرباعي، الخماسي...

إستيعاب الدخيل ليس معضلة، إذا كانت المعدة هضامة.

كم استوعب القرآن الكريم من الدخيل العبري، السرياني، الفارسي...؟

تأمل ماذا فعلت العربية لكلمة «آبريز» عندما أرادت هذه أن تنضم إلى الأسرة العربية. انها تعني بالفارسية «صباب الماء» أو «المصب» مثل مكر مفر.

طلبت منها الضاد أن تتحول إلى «إبريق» لكي تجمع على أباريق مثـل صنـديـد صناديد. وحصلت على الجنسية العـربيـة، بـل وعلى شرف دخـول كتـاب اللـه أيضاً.

وكلمة «لكَام» أصبحت في لغتنا لجام، ولم يحتج البدوي القديم إلى مجمع لغة متعدد الجنسيات العربية لكي يساعده على إخصاب اللجام بالإشتقاق. فوراً أخذ الأعرابي اللجام، وألجم الفرس فصارت ملـجَـمة وصــار ملجِمًا وجـاء من بعده ابن ملجم!

وهكذا تفعل اللغة حين تكون حية قوية، تطحن وتستوعب وتهضم.

الولايات المتحدة الأميركية، قال عنها شارل ديجول: انه لا يعرف أميركياً واحداً أميركياً حقاً! كلهم دخلاء. وهناك ظاهرة حضاريـة غـريبـة أخفى من أن تظهر وأظهر من أن تخفى تجعل الأمة القوية شديدة الإستيعـاب. والآن... كـل الذين لم يكونوا أميركيين هم أميركـان في الـدم. وزراء دفـاع، وزراء خـارجيـة، رؤسـاء...

كم هم بسطاء أولئك الذين يرفضـون السنـدويش لأنـه دخيـل! وكم هم عدوانيون على اللغة أولئك الذين يكتبونه هكذا «سـانـدويش»! ألا يعـرفـون أن التقاء الساكنين محظور في لغتنا مثلما هو ممنـوع الإجتماع لأكثـر من شخص واحد؟!

أميركا، مثال بعيد. فعلوم اللغة مـدينـة في جـانب كبير منهـا لمسلمين من بلاد شتى.

تعرض لي مشاكل كثيرة من جراء جمود اللغة الذي يريـد الصحـافيـون حله بإطلاق العنان لفعل قام.

مثلاً: لقد أصبح «الباربكيو» حقيقة واضحة للعيان في حياتنا اليـوم. ومن الظلم أن تختصر فخامة الباربكيو بترجمته إلى «شواء» أو «مشوى» مثل مثوى.

لك أن تقول مشتوى. مثل مستوى. ولكنك تظل بعيداً عن المفهوم الثري بالمعاني الزاخرة في كلمة «باربكيو». ولن ينفعك بيت الأعشى:

«وقـــد غـــدوت إلى الحـــانـــوت يتبعـني
شـــاو مشـــل شلـــول شلشـــل شـــول»

عندما انفجرت قنبلة الإيدز، لأول مرة، وقامت القيامة، وذعر الناس، وجرت أنهار حبر المطابع، وبات حتى الذين عرفوا بالعفة والنقاء يتخوفون من انهيار المناعة... عل قدماً زلت ذات يوم... عل شيئاً لم تسجله الذاكرة ذات ليلة...

آنذاك، كنت أرثي لحال المجامع اللغوية المغيبة عن الوجود. فالعبد الفقير يجد صعوبة كبيرة في تقليد القائلين: أصيب فلان بالإيدز.

حللت المسألة بكل بساطة في أحد الأخبار، وقلت: تأيدز... المتأيدز... المتأيدزون... وأخضعت الإيدز للإشتقاق العربي، وفوجئت بأن الصحافة في الإمارات سرعان ما استخدمت هذا الإشتقاق دون غضاضة.

أمر منطقي تماماً.

ما العيب في أن نقول: تسرطن بدل: أصيب بالسرطان؟

ليس ظريفاً أن تقول: «أقام فلان باربكيو». بإمكانك أن تضع لنفسك جملة فعلية عربية سليمة لا تشوبها شائبة. قل: «تبربك فلان».

ومن ذلك يأتي التبربك والبربكة، مثل دربكة وشربكة... والرجل بربكي والجماعة برابكة كبرامكة.

قال الشاعر:

«بــــربكـــــاني فــــــإن كـــــل الأوانـــــــــي

غسلـــــوهـــــا والجـــــوع ليـــــــس بفـــــان»

وقد قيل إنّ اعرابياً رأى قوماً يتبربكون، فرفع بصره إلى السماء سائلاً:

ـ اللهم اجعلني من القوم المتبربكين.

ودنا منهم وقال:

ـ بورك لكم ما تتبربكون، كما بورك في الـزيت... أكـلاً ودهنـاً ونـوراً في البيت.

فضحكوا، وهم يضربون كفاً على كف، متظاهرين بالأسف، وقالوا له:

ـ يا أخا العرب... والله لم يبق لدينا لا لحم ولا شحم ولا زيت، فهيهـات ويا ليت...

فأجهش الرجل بالبكاء وقال:

ـ فصفوا لي كيف تبربكتم.

فظلـوا يصفـون ويسهبـون في أصنـاف التبربك، ويفيضـون في محاسن البربكة، ودموعه تنهمر حتى فاضت روحه حسرة على ما فاته.

كانت العرب في محيطها الصحراوي الضيق إذا رأت أدنى لمسـة جـديـدة على صفحة الحياة من حولها ابتكرت لها إسمًا خاصاً بها. وإلا فما الذي جعـل لغتنا التي ولدت في الصحراء بين شاة وعنز وناقة وسيف وخيمـة... تتسـع في البعد النظري لعشرين مليون مفردة؟!

هل تأملت قاموس الرمـل والـرمـال؟ شيء مـذهـل! تقـرأ في فقـه اللغـة للثعالبي:

«عن ثعلبة، عن جماعة من ثقاته: إذا اجتمعت كثبان الرمل فهي عوكلة».
(على وزن بربكة).

ثعلبة هذا كان بمثابة رئيس لمجمع لغوي متنقل. وثقاته بمثابة أعضاء المجمع.

شيء مهم جداً: إذا كان لديك كثيب واحد من الرمل فهو كثيب. أما إذا كانت لديك مجموعة فعيب أن تقول: كثبان رمل، قل: إنها عوكلة!

حكمة عجيبة غريبة. تستطيع تبريرها بألف طريقة.

إذا كان الجزيء فيه ذرتا أوكسجين فهو أوكسجين. أما إذا صار فيه ثلاث تحول إلى أوزون!

هذه كيمياء اللغة عند ثعلبة وثقاته.

وإذا كان الجندي واحداً قيل جندي. فإذا أصبحوا حشداً، فهم سرية أو كتيبة أو فوج أو لواء أو فرقة أو فيلق أو جيش!

كثبان الرمل هكذا، تماماً! لكن ما دور العوكلة في الحياة؟

كل العالم كان لغة في نظر العرب. وكل الموجودات مفردات في هذه الموسوعة الكونية.

وحب اللغة كان المفرد الفرد الفريد.

لولا حب العرب للغة، كيف أصبح للأسد خمسمائة وخمسون إسمًا؟ وللسيف ألف. كيف أصبح للجمل إسم أو صفة لكل لحظة من لحظات تطور حياته؟

هذا أقوى دليل على حياة لغتنا في الماضي. وحياتها هي أن تكون حساسة نابضة متحفزة، دائمًا في حالة تأهب قصوى.

هل وجد الفرنسيون غضاضة في أن يحتل الشاعر الرئيس ليوبولد سيدار سنجور مقعداً من مقاعد مجمع لغتهم، مجمع الخالدين؟

هم يعرفون جيداً هذا الرجل السنجالي العليم بأسرار اللغة الفرنسية.

الدخيل ليس مشكلة، فالمسألة هي كيف تستوعبه؟ تماماً مثل كثافة العمالة الآسيوية في الخليج.

اللغة العربية كانت قوية إلى حد أن أربعة عشر عملاقاً، بل أكثر بكثير، من أكبر عمالقتها لم يكونوا أصلاً عرباً، وقد لا يخطر على بالك الآن غير سيبويه!

* إبن جني، كان أبوه مملوكاً تركياً. كان صغيراً يدرِّس علوم اللغة في العشرين من عمره، حين مر به أبو علي الفارسي فسأله سؤالاً صعباً في الصرف فلم يستطع الجواب. فقال له أبو علي: تزببت قبل أن تتحصرم. أي صرت زبيباً قبل أن تصبح حصرماً.

فترك التدريس وانقطع للصرف أربعين سنة!!

* ابن خالويه. أصله من همدان.

* إبن فارس الرازي. من مدينة ري.

* أبو تراب. من خراسان.

* أبو عبيد بن سلام. كان أبوه عبداً تركياً.

* أبو الهيثم الرازي.

* الجوهري صاحب كتاب الصحاح كان تركياً. وخاله هو أبو يعقوب الفارابي.

* خلف الأحمر. كان أبواه فرغانيين.

* الخوارزمي، وما أدراك. وفوق ذلك هو ابن أخت الطبري صاحب التاريخ الشهير.

* هل يمكن ألا نذكر سيبويه؟

* الفراء نفسه، كان مولى لبني أسد.

* والسيرافي؟ أبو سعيد المرزبان، الذي قال فيه أبو الفرج الأصفهاني:

لست صدراً ولا قرأت على صد
ر ولا علمك البكي بشاف
لعن الله كل نحو وشعر
وعروض يجيء من سيراف

لغتنا في حاجة إلى حركة سريعة وقدرة على المواكبة.

مصيبتنا كامنة في مراكز الترجمة السريعة، وخاصة وكالات الأنباء التي تصل إليها المصطلحات انجليزية وفرنسية وألمانية وإيطالية، المصطلحات التي لم تنقل بعد إلى العربية. وفي غياب أهل الإختصاص يختار المترجمون أول ما يلوح في أفقهم اللغوي الضيق، وتأخذه وسائل الإعلام على علاته، وينتشر لحيويته انتشار الفيروس. وتبقى اللغة العربية بعيدة عن الدقة، بعيدة عن ذاتها، عاجزة عن الإشتقاق. وهو حياة الضاد.

ويختم صاحب الفرائد الفصل بهذا النداء العجيب:

طوروا اللغة العربية بأنفسكم أيها العرب فإن المجامع نائمة.

قولوا: فلان مبنز مرلز (مثل طوب متبن ممعز) أي يملك بنزاً ورلزاً. حذفت الواو لثقلها في رولز لالتقاء الساكنين. ورلز مثل رمح ولغز.

وتقول عن الجماعة يعرض كل واحد ما لديه تفاخراً: تبانزوا وترالزوا. والتبانز كالتنابز مكروه.

وفي الجمع تقول رلزاء. وبنزاء مثل ثؤباء وبلداء.

قال الشاعر:

«تــــرلّــز عمـــــرو إذ تــــرلّــز خـــــالــــــد

بـعــــــدوى ومـــــا أعــــدتـنـي الــــرلــــزاء»

لا تتردد في الإبتكـار والإختراع والإكتشـاف، فعما قــريب سيجـــد علماء المجمع اللغوي أنفسهم على هامش الحياة. تماماً كهوامش السلف الصــالـح على أسفار لا تشترى بدانق.

وما دامت نواطير المجمع نائمة عن ثعالب التجـريبيـة والتخـريبيـة، فعلى ذوي النوايا الحسنة أن يساهموا في تطوير اللغة بما تيسر.

والله من وراء القصد.

تحفة

حكّم سيوفك في خرافِ المائدهْ

فلقد مضى عهد الرّماح الرائدهْ

أيّام كان السيف كالأجل الذي

ما في تفاديه بفديٍ فائدهْ

اليوم يكفي أن تراه بمتحفِ

أو في الجحافل دون حرب عائدهْ

العالم النظامي الجديد

من المخطوطات ما يحير الأفهام، ويطير المنام. فهذا أبو الزبائد، في هذا الفصل يستخدم مصطلحات غير واضحة، معتبراً إياها توضيح الواضحات. يقول:

فكرت الأمم القوية قديمًا في ابتكار طريقة استعمال جديدة للبلدان الأخرى. وأسمت ذلك «العالم النظامي الجديد». قال الشاعر:

أيها العالم النظامي مهلاً
غير ذاك القديم هل من جديد؟
كنت غاباً من السباع فصارت
كل قطعاننا لليث وحيد
ليت شعري بلعت أكبر ثور
أترانا كلقمة من ثريد؟

وقد سار على نهجه آخر فقال:

أيهـــا العـــالم النظـــامي مهـــلاً

هــل جــديــد لــديك غيـــر القــديم؟

مستـــوانـــا الضعيف حــرب رغيف

إنـما مستـــواك حـــرب النجـــوم

وهو شعر ضعيف، كما ترى.

هذا العالم النظامي الجديد، ورد في قصيدة اعتبرها المؤرخون وثيقة على أن القدامى كانوا يستخدمون الجزمة، يقول الشاعر:

عـــالم هــــذا نظـــامي جـــديـــد

أبـشـــروا فيـــه بحـكـم الجِزَم

عـــالم تملكـــه أســـد الشـــرى

لـيـــس فيـــه حـــرمـــة للغنم

وإنما سميت الجزمة لجزم صاحبها وحسمه الأمور لصالحه، إمتثالاً للتعاليم التي تنص عليها الديمقراطية!

وهنا ينحو أبو الزبائد باللائمة على اللغويين الذين لا يواكبون الحياة قائلاً:

كيف نامت نواطير المجمع اللغوي عن فساد اللسان، وهوان الإنسان؟ وتركتنا للعويل لكثرة الدخيل؟ ولم تضع حتى مفردة عربية شريفة لهذا المكسب العزيز على قلوبنا: الديمقراطية. فلقد بلغ بنا هيامنا بالديمقراطية حدّ معاملتها كواحد منا وإلينا. نشركها في كل صغيرة وكبيرة في حياتنا. حتى في الإنتخابات. ويمكن أن تفوز، ويمكن أن تفشل. هكذا بكل حرية وعلى رؤوس الأشهاد. مثلما

حدث قديمًا في بلاد الصدر الإفريقي، وكانت بها حركة جاء إسمها في كتب التاريخ هكذا: «جبهة الأنقاض». يقول بعضهم:

وجبهة للنجاة قد نقضت
فصيروها بالنقض أنقاضا
لا ترقُبِ الفضل قط من جزم
واسكت فإن الإناء قد فاضا

فلاسفة التاريخ، وهنا العجب، يربطون بين كل هذه الأحداث. وبين ما جرى في بلاد السافيات، من زلازل وقلاقل. ويرون هذه علة كل صدع وكل صداع. يقول الشاعر والمعنى ليس على ذلك القدر من الوضوح سوى الإشارة إلى القسيس ميخا براقشوف:

دع السياسة لا ترحل لبغيتها
ففي السياسة قصّاب وأضحيّهْ
في عالم للنظامين إمرته
ولا تقل إنه عود لوحشيّهْ
براقشوف به أدرى، ولا عجب،
فهذه طبخة في السر مطهيّهْ
يا نائماً في زمان كله لُعبٌ:
ما لذة العيش إلا فوق شبريّهْ

قال أبو الزبائد:

فلما بلغت هذا، استلقيت على الشبرية.

بروناي

لا يسع ثقات المصنّف إلا أن يعترفوا بوجود خلاف كبير على أصل بروناي، السلطنة المسلمة المنعّمة في أقصى الشرق. ورغم تعدد الآراء، يندر أن ترى أحداً يعرف أصلاً من الأصول.

يقول البعض إنّ الأصل هو «بَرٌّ نأى» لكون بروناي واقعة في أقصى الأقاصي بالنسبة إلى سائر بلاد العرب والمسلمين. والشاعر يقول:

«بَرٌّ نأى وحبيبي ليس يذكرني
وليس تجدي مع النأي المراسيل»

وقد ذهب بعض اللغويين إلى أن الأصل يعود إلى شاعر موريتاني (تأمل الحكمة في المسافة بين بروناي وموريتانيا) تحدث عن «بِرٍّ نأى» وخير عميم ينعم به أهل بروناي ولا تنزل قطرَة من غيثه الغزير على تلك البقاع القاحلة من إفريقيا الشمالية يقول:

«بِرٌّ نأى عن بلاد المسلمين فما
يناله أحدٌ إلا بإعجاز

إذا نـــأى بَرُّكم فـــالـــدين يجمعنـــا

فـقـــرّبـــونـــا بـمـشـــروع وإنـجـــاز

أنتم تطيـــرون والبـــأســـاء تقعـــدنـــا

فكيف يلحق من يمشـــي بعكـــاز؟»

أما الثقات فيرون أن تلك الأقوال المطروحة، مفتقرة إلى الأسانيد الصحيحة، ويرجحون ما ذهب إليه أبو الزبائد في غرائب معجمياته. وهو أن أهل بروناي كانوا في القديم يعيشون عيشة بسيطة هانئة، يزرعون البُرَّ، (أي الحنطة)، ويقضون أوقات فراغهم في العزف على الناي والإستمتاع بارتشاف الشاي. فحياتهم بُرٌّ وناي. وقد أجاد الشاعر في قوله، لله درّه:

«بُـــرٌّ ونـــايٌ حيـــاة النـــاس فـــي بلـــدي

مـــا أعـــذب العيـــش بيـــن البـــرِّ والنـــاي

يـــأتي الصبـــاح فنطـــوي الأرض نـــزرعهـــا

وفـــي المســـاء فنـــون النـــاي والشـــاي»

الظاهرة الغريبة في كل ذلك أن هؤلاء الشعراء إتفقوا صدفة على قول أشعارهم في بحر واحد هو «البسيط». أمر معقد غير بسيط!

قرنق، غرنغ، جرنج...

يُفاجئك أبو الزبائد بهذا المدخل:

قد يحلو لك أن تختبر مقدرتك على ترديد هـذه الكلمات الثـلاث بسرعـة: قرنق، غرنغ، جرنج... على غرار الألعاب اللغوية الرائجة في الفصحى والعامية:

«وقبـــــــرُ حـــــرب بـمكــــــان قـفـــــــر

وليـــــس قـــرب قبـــــر حـــــرب قبـــــرُ»

لكن همي بعيـد وراء هـذا العنـوان. رغم أن المـوضـوع لا يتعلق بقَرَنق، غَرَنغ، جَرَنج. وكان بالإمكان أن أضع أية كلمة أخرى، دون أن أحيـد عن صلب الموضوع.

المسألة ليست من قبيل «المغنية الصلعاء» مسرحية أونيسكو التي لم يـرد فيها أي ذكر لأية مغنية صلعاء. وإن كان الحديث هنا يدور حول نوع من أبرز أنواع مسرح اللامعقول: لا معقول الواقع!

والموضوع بعيد كل البعد عن الصراع الدائر منذ زمن في جنوب السودان. رغم أن هذا البلد الآبنوسي الـرومـانسي تحـول هـو الآخـر إلى رائعـة من روائع

اللامعقول. لأن الواقع دائماً أغرب من الخيال!

العنوان غير مكتمل أصلاً. فهو أطول مما هو الآن. وكان من واجبي أن أكتبه هكذا:

«قرنق، غرنغ، جرنج، ڨرنق، گرنگ، ڠرنڭ»

كيف أستطيع أن أضع بين يدي القارىء قطار نمل كهذا؟ لكن الأمة العربية هكذا!

رأيي ليس أن تبدأ الوحدة العربية بتوحيد السودان. فأنا أكتب عن قرنق، غرنغ، جرنج، كمشكلة لغوية، لا كقضية سياسية. لكننا إذا اعتبرنا قرنق، غرنغ، جرنج، قضية لغوية تمثل التشتت العربي حتى في أبسط الأمور، أضبحت المسألة قضية سياسية بالغة الخطورة!

تمر بي كل يوم عشرات الأمتار من الأخبار مرسلة من الوكالات مترجمة إلى العربية. وفي كل شبر خبري تتكرر المهزلة:

قوقان، غوغان، جوجان...

قوقول، غوغول، جوجول...

هونغ كونغ، هونج كونج...

لماذا لم يقولوا أيضاً: هونق كونق؟ حتى نرسل ألف رحمة على روح ذلك الاعرابي الذي سُئل:

ـ أين تركت ناقتك يا هذا؟

قال: تركتها ترعى الـهُـعْـخُـع!

سمعك لا يطيق هذه الكلمة؟ لكنه يطيق نشاز لغة العصر. أسألك:

ـ أين تركت سيارتك يا هذا؟

تجيب: تركتها في الكراج... في الجراج... في الغراج... في الگراج... في القْراج... في القراج... في الكْراج!

عجزنا عن الوحدة حتى في مسألة تافهة كتوحيد كِتابة حرف؟

* العراقيون، يرسمون هذا الحرف گافاً: أي كافاً فارسية وهذا شائع لديهم في الشعر الشعبي المطبوع لا الخطي فقط.

* في مصر، المشكلة محلولة، ولكن على نطاق مصري. فهم يلفظون الجيم حرفاً لعيناً. فإذا كتبنا جرنج بجيمين قرأوه بحرفين لعينين. بقي أن للجيم صوتين في مصر. فالأبجدية هناك تسعة وعشرون حرفاً.

* في لبنان، يكتبون الحرف اللعين غيناً. لأن ذلك في اجتهادهم أقرب إلى الصواب. فذلك المتمرد السوداني عندهم غرنغ.

* في تونس، لدينا عبقرية إجتهادية أخرى. هي كتابة الحرف اللعين يدوياً قافاً بثلاث نقاط. أما في المطبعة فهو على صورتين. تارة يكون قافاً. وتارة أخرى غيناً. هناك لا نقول «ديقول» وإنما ديغول. أما المدن: قابس، قفصة، المرناقية... فهي بقاف. وإن كانت تُلفظ في الحياة اليومية بالحرف اللعين لا القاف.

ڨاف بثلاث نقط، يمكن أن تحدث لدى أهل المشرق إشكالاً كبيراً. فهؤلاء يضعون ثلاث نقاط للقاف لتلفظ (V) . فإذا كتب التونسي: ڨرنڨ، وهو يقصد العسكري المتمرد في جنوب السودان. قرأها المشارقة (VARANV) . ولن يعرفوا طبعاً من هو. وسيتصورون أن هناك تمرداً جديداً وانقساماً جديداً في الجنوب السوداني. وستتدفق برقيات وكالات الأنباء على عادتها في الطوارىء بعنوان: عاجل... عاجل... إنقسام جديد في السودان. مسكين السودان!

* دع كل ذلك جانباً، فليس شيئاً إذا قسته بإبداع أهل المغرب الأقصى الذين يرسمون الحرف اللعين كافاً فوقها ثلاث نقط! عبقرية فذة!

لا قرنق، لا غرنغ، لا جرنج، لا ڤرنق.

خيال خصب: ڭاف بثلاث نقط. هكذا: كرنك! وإذا رأى المشرقي هذا الحرف العجيب خال شيئاً ركبت لاماً. أو ثاءً في وحدة إندماجية مع كاف.

تصور مغربياً يكتب بخط يده أو بآلة طابعة خبراً عن هجمات يشنها أفراد كْرنْك. سيطير عقل أخينا المصري الذي يخيل إليه أن المغاربة يتهمون الكرنك بشن هجمات. وأن له أفراداً مسلحين. ويتساءل: من هم أفراد الكرنك هؤلاء؟

مسكين الكرنك!

من أين له أن يتسلح ويشن هجمات؟ وهل ظل للكرنك أعداء بعد أن قتلهم أحمد سعيد جميعاً؟ والآن، كل الناس أحباب وأصحاب وكلنا أهل كتاب. ولله الأرض والتراب!

والحمد لله على أن طالبي الحرب تنسكوا وأصبحوا زهاداً. وروض كل ذي جموح جموحه وطموحه. فالقناعة كنز لا يفنى:

«والنفس راغبة إذا رغَّبتَها
وإذا تُرَدُّ إلى قليل تقنعُ»

المهم أن الكرنك بريء من أي عدوان أو عداء.

أرأيت، كيف يمكن أن يشكل هذا الحرف اللعين خطراً حتى على حسن عدم الجوار بين المغرب ومصر؟ في حين أن العلاقات قائمة جماهيرياً على مستوى سميرة سعيد.

نقمتي على هذا الحرف، الذي شتت العرب، بلا حدود. فقد زرع الفرقة بين جميع العرب!

تصور الكارثة التي يمكن أن تحدث لو استيقظ، لا قدر اللـه، أهـل كهف المجمع اللغوي العربي، وانتبهوا من رقدتهم، في قيامة التقـدم البشري في العلـوم والصناعات، ورأيتهم سكـارى ومـا هم بسكـارى ولكن تطـور التكنـولـوجيـا رهيب؟!

ما الذي يمكن أن يحدث؟ سيجتمعون فوراً لمحاولة اللحاق بالركب، حتى لا يشدو لهم محمد عبدالوهاب أغنيته الشهيرة:

«أيها الراقدون تحت التراث»!

سيبدأون طبعاً بوضع ترتيب ألفبائي للمصطلحـات التي عليهم نقلهـا أو إيجاد بـديـل لها. ولن تمر لحظـة، حتى تـراهم جميعـاً ضـاربين مضروبين. والسبب؟ الحرف اللعين!: نكتبه غيناً، لا قافاً. لا، قافاً بثلاث نقط. لا، جيمًا. كلا، بل نكتبه كافاً بثلاث نقاط!

هكذا يتحول الحرف اللعين إلى قضية مركزية، لا تحل إلا يوم القيامـة إن شاء الله بفضل سلسلة لا نهائية من القمم الطارئة دائمًا وأبداً!

كم أنت سابح هائم في الأوهـام إذا تصـورت أن مشكلـة الحـرف اللعين يمكن أن تحل بخطة وادعة وداعة الحمل.

قد أكون متشائمـاً سـاذجـاً في نظـرك. رغم أنني أردد منـذ سنين كلما فتحت عيني صباحاً على نور الله داعياً ومناجياً:

«اللهم... إن أغبى الناس هم من يتصورون الناس أغبياء.

ربنا... لا تجعل أزِمّتنا في أيدي صانعي أزْمتنا. وقنا عذاب التبعية».

خرج بنا الحرف اللعين عن الموضوع على ما يبدو. فقد تعهـدت كتـابيـاً، منذ البداية، بأن تكون مسألة قرنق، غرنغ، جرنج... لغوية فقط، لا سياسية.

ثم مالي وما للسودان؟ هذا البلد اللامعقـول الـذي ابتلـع نصفـه قـرنق،

غرنغ، جرنج، ڨرنق، گرنگ... والنصف الآخر جرفته الفيضانات.

كان بالإمكان أن يصبح السودان بيت المؤونة الذي يقدم الطعام لكل فم عربي. ولو حدث ذلك لأصبح السودانيون، الطوال بطبعهم، يمدون أيديهم فيقطفون النجوم.

وكانت الفرصة الأخرى متمثلة في الديمقراطية التي قدمت إليهم على هيئة سوار ذهب. ولكن حكمة الصدف لعبت دورها، فجاءت الفيضانات بمثابة تعتيم إعلامي على الحركة الديمقراطية. وكل ذلك حكمته ألا يحدث للسودان ما حدث للبنان، عندما فتحت أحضانها للديمقراط.

لبنان مذكر؟ عفواً. اقرأ الجملة هكذا إذن:... حتى لا يحدث للسودان، لا قدر الله، ما حدث للبنان عندما فتحت له الديمقراطية أحضانها!

معذرة عزيزي القارىء، إذا كنت قد أشعرتك بأنك لا تعرف حتى كيف تكتب حرفاً:

قرنق؟ غرنغ؟ جرنج؟ ڨرنق؟ گرنگ؟ أم ڭرنڭ؟

البوسنة والهرسك

أصل التسمية في جمهورية البوسنة والهرسك التي تنتمي، لسوء حظها، إلى مليار مسلم: أبو سنَة هَرَسَك. والسنة بكسر السين النوم. وهرس يهرس هرساً ثلاثي معروف. يقول الشاعر:

لست تبدي من حراك
ما الذي قد أخرسكْ؟
كيف تمسي غافلاً
عن عدوّ هَرَسَك؟

وقيل إنّ المسلمين هناك كانوا يصفون الصربي بأنه دائمًا غاطٌّ في نومه. فقيل عنه «أبو سِنة» تندّراً. ومن هنا قال الشاعر:

لعارٌ عليك وخزي عظيم
فهذا عدوّك قد دَرَسَكْ
أتزهو بأنك في يقظة
وهذا «أبو سِنَةِ هَرَسَكْ»؟

الحميدية

ليهنأ بال إخواننا السوريين، فهذه الحميدية ليست سوقهم. ولا لنا شأن هنا بقماش الأغباني والفسيفساء والنحاسيات... فهذه الحميدية مذهب منسوب إلى امرأة كانت كل الطرق تؤدي إلى مملكتها. يقول المصنف:

كانت ملكة. وكانت مملكة. ملكة لها ألف مَلَكَة من مَلَكات السحر. يأتيها الناس طائعين. ركعاً وسجوداً. بينا عرشها الرفيع مرفوع على قرون الثيران. فإذا مرت سحابة قهقهت قائلة: امطري حيث شئت فخراجك لي.

مملكة عجيبة ليس فيها أصيل واحد. ومع ذلك ترى الواحد منهم أكثر تعصباً لها والتصاقاً بها من الطفل بثدي أمه. وكانت تسمح للإنسان والحيوان والجماد بأن يفعل كل ما يشاء. لأي كان أن يتكلم أو ينبح أو ينهق أو ينقنق.

فإذا أرادت ألا يسمع إلا صوتها، أشارت إلى الثيران فخارت خواراً تتصدع منه الأطواد في جميع البلاد. وهكذا صارت لها هيمنة بالإجماع على جميع الأصقاع. حتى قال الشاعر:

حميـــــدةٌ هيمنت واشتـــدّ ســـاعـــدهـــا

فكـــل قلـب بهـــا فـــي الأرض هـيـمانُ

فـــإن عشقت ســـواهـــا فـــاتخذ نفـقـــاً

في الأرض، ان جميـــع النـــاس قـــد دانـــوا

ويروي أبو الزبائد نتفاً من غرائب الأساطير عن هيمنة الملكة حميـدة على الأصقاع، يقول:

لقد أوحت حميدة إلى الناس في جميع البلاد انهـا، من على قـرون الثيران، ترى القدم إذا خطت، واليد إذا أعطت أو منعت، واللسان إذا مـدح أو هجـا. وان لها على كل رأس هدهداً يأتيها بالأخبار في الوقت والساعـة. فلم تعـد تـرى غير تقديم فروض الطاعة. ولأحد الشعراء:

عـشـق الـفـؤاد حميـــدةً إذ هـيـمـنـت

وأتـى مـطـيـعـــاً يـسـلـم المفـتـــاحـــا

فـتـلـطـفـي وتـعـطـفـي بـمـظـلـــة

صيـف الـغـــرام بـشـمـســه قـــد لاحـــا

ويقول آخر مشيراً إلى واسع علم حميدة بما يجري في كل مكان:

هـيـمـني هـيـمـني وكـــوني الـــوحيـــدهْ

فجميـــع الـشـعـــوب أضـحـت سـعـيـــده

نـحـن نـمـشـــــي كـما الـكـبـــار أرادوا

أنـت أدرى بـحـــالـنـــا يـــا حميـــدهْ

وبعد استشهادات كثيرة يختم المصنّف الفصل بنقل النشيد الرسمي الذي تخور به الثيران بكرة وأصيلاً من باب الترغيب والترهيب:

هيمنةٌ حميدةٌ
فصفّقوا وهللوا

كلدغة حميدةٍ
سمومها لا تقتل

تنجر عنها ربما
غيبوبة أو شلل

مشاكل بسيطةٌ .
وسوف تشفى الدول

فمن تريد مهرباً
فسحقها لا يثقلُ



هذه الأمّة صارت

كسرة للشاردِ

ربحوا فيها رهاناً

لم يكن بالواردِ

ها أنا أنفخ دوماً

في رمادٍ باردِ

في الشيئيّة

هل من حرج على أبي الزبائد إذا هو رفع عقيرته على هذا النحو؟

في عالم الإبداع، كل فرد حر. أنا لي حريتي، وأنت غير مسلوب الإرادة. ليس من حقي أن أتدخل في شؤونك. البيضة بيضتك تسلقها أو تقليها. ما دخلي أنا؟

الإبداع أصلاً يعني الخلق. يعني الإتيان بشيء من العدم. بعبارة أخرى: أدونيس لم يكن يعرف شيئاً مطلقاً عن الإبداع حين وصفه بأنه «هجوم». مجرد هجوم. يا للمفهوم البائس!

الإبداع هو أن تقلي بيضتك في الديزل أو المازوت أو الكيروسين، بدل الزبدة أو زيت الذرة، كما يفعل الكلاسيون الرجعيون المتخلفون عن ركب الحداثة في طهي البيض.

هذا هو الإبداع. لأن أحداً لم يفكر في قلي البيض في هذه المحروقات وهذه الزيوت. مع أنها دهون حيوانية في الأساس.

إذا عن لي أن أكتب شعراً، فمن يستطيع، بعد أن وصلت الأمور إلى ما وصلت إليه، أن يقول لي: «تلك حدود الشعر»؟ أو أن يتجرأ على فتح فمه، وهو

يعرف جيداً مصطلحات النقد المضاد: التخلف، ضيق الأفق، الهامشية، السطحية، التسطيحية...؟!

أستطيع أن أكتب كما طاب لي. أن أفعل بقصيدتي ما يحلو لي. أو لم تلدنا أمهاتنا أحراراً؟

القصائد أيضاً ولدها الشعراء حرة. حتى ولو كانت عمودية أو مرسلة أو قصائد مضادة.

الخليل بن أحمد الفراهيدي؟ أستطيع أن أقعده حيث يجب. فلدي من الأدلة ما يكفي لكي أكشف لكل الذين يكسرون العروض ويهدرون دم القوافي انه لم يكن مبدعاً في اكتشاف الأوزان، وانه أخذ كل هذا الفن المنسوب إليه عن الهنود.

أنا حر. أستطيع أن أكتب القصيدة من اليمين إلى اليسار. أو من فوق إلى تحت كاليابانيين والصينيين. وان كان من الأفضل أن آتي من اليسار إلى اليمين. فالناس في المرور يفسحون الطريق للقادم من اليسار!

خذ الأمور ببساطة. ألست تريد أن تجد شيئاً في النهاية حين تقرأ قصيدة؟ أنت في النهاية، مهما كان الشكل والمضمون، ستجد شيئاً. في النهاية لن تعدم كل شيء. لن يسترد منك الشاعر كومة الأوراق التي اقتنيتها. هناك في أسوأ الإحتمالات شيء من الحبر على شيء من الورق.

هل تتصور مثلاً أن يستهزىء بك الشاعر إلى حد كتابة قصيدته على بيضة؟

أوليس عليك أن تشكر ربك على أن الشاعر لم يقدم إليك أوراقاً بيضاء بدون حبر؟ بيضاء كالبيض. كالبيض بلا صفار.

تخيل نفسك في مطعم راقٍ متطورحديث، غاية في الحداثة. ذي حداثة لم يحدث قط مثلها. ولا تحدث عنها القدامى ولا المحدثون. ولا أتت الحوادث

والأحداث بمثلها. تطلب في ذلك المطعم المبدع الخلاق فطور صباح، فيأتونك ببيض مقلي بدون صفار. حاملين شعار مكافحة ارتفاع الكولسترول.

هل لك أن تنقد هذا العمل... هذا الأثر؟ أولاً وقبل كل شيء: اللغة ليست ملكاً لأبيك حتى تحدد أنت وحدك ما يجب وما لا يجب وأين يجب ومتى يجب!

وكذلك الألوان والخامات والمواد في التشكيل، والنوتات في الموسيقى وهلم جرّا...

ثانياً: الحرية والديمقراطية والعدالة تقضي بأن الإبداع من الحريات الفردية الأساسية تماماً مثل تنفس الهواء، إستنشاقاً وزفيراً، والتغذية، أكلاً وطرحاً...

ثالثاً: النزاهة والإنسانية والأريحية توجب عدم التسرع وإعطاء الفرصة وترك الكلمة الأخيرة للزمن.

فكن طيب القلب مثل الزمن. فلو دخل بيكاسو على رافائيل، بلوحاته التكعيبية لخرج من عنده خروج أبي العلاء من مجلس الشريف الرضي.

تخيل، ماذا كان يفعل النقاد الذين أقاموا القيامة وقتها، حين سمعوا العرض الأول للسمفونية الخامسة لبيتهوفن، لو كان شتوكهاوزن هو الذي قدم عملاً من أعماله بدل الموسيقار الأصم آنذاك، لكانوا ضربوه بالطماطم والبيض، مثلما حدث لأحد الزعماء عام ١٩٦٥!

أن تسبق الزمن جريمة! دعه يُطبخ على نار هادئة!

روعة البيض أنه إبداع حين يُطهى. ونقد حين يُرمى.

من الطماطم والبيض يمكن أن تبدع ألف عجة. لكن أجمل العجج عجة لم ترتدها ألسنتنا بعد!

في حداثة الإبداع وخلق الحداثة، هناك أيضاً ضحايا. التشكيليون هم

ضحايا الحداثة. كم يبدو متخلفاً ذلك الرسام الفرنسي الذي دعا وزير الثقافة، الأديب المفكر الراحل أندريه مالرو إلى افتتاح معرضه، وما أن تقدم الوزير للتدشين حتى عاجله الرسام بطلقة من مسدس مملوء باللون الأحمر على صدره. فما كان من مالرو الفنان إلا أن اختطف المسدس من يد الفنان وقابله برشة مماثلة على صدره.

التشكيل أصبح جزءاً من الحياة. قل إن شئت على غرار العلماء: «الحياة كيمياء ولكن الكيمياء ليست كل الحياة»، الحياة تشكيل لكن التشكيل ليس كل الحياة!

التشكيليون ضحايا الحداثة الآن. لأنهم لعبوا بذيل الأسد. بذيل نظرية لم يكن من السهل السيطرة عليها عند إطلاقها. ولعلهم لعبوا بذيل حمار خروتشوف.

جان جاك روسو لم يكن يتخيل، حتى في الحلم، أنه عندما دعا إلى إطلاق الطفل وترك أمور تربيته للطبيعة، ستظهر موجات أدناها الهيبز، الذين كانوا أساس ظهور الهربز والإيدز...

هذا يشخبط وذاك يلخبط. فأيهما أكثر إبداعاً؟

أنا لست طبيباً حتى أتجرأ على الحديث عن تأيدز الآداب والفنون أو تسرطنها أو حتى تقرحها والتهابها. ولا من شأني أن أصف لها مضادات حيوية. فهذا من شأن البيطرة الأدبية والفنية، في هذه الحقبة الزمنية! ضحايا الحداثة: التشكيليون بالدرجة الأولى. لأن الطبيعة لا يُشق لها غُبار في عالم الإبداع الوسيع البديع.

أنت قادر على مجاراة أي فنان. مهما علا شأنه وسما فنه. وتفرد في الخلق. أما أن تجاري الطبيعة وتنافسها فليت أمك لم تلدك!

سر على طريق دبي - حتا، لكيلا نذهب إلى بعيد، سترى ماذا تصنع

الرياح بالرمال. أية فنانة خالدة تلك التي اختارت هذه الخامة اللانهائية؟!

أي فنان يستطيع بخامة واحدة أن يبدع كل هذا الخلق... أن يخلق كل ذلك الإبداع!

لا أحد غير أنامل الرياح على لوحة الصحراء.

زرت معرضاً تشكيلياً، في آخر زمان الفنون التشكيلية. كان أحدهم يضع كومة من الأخشاب مع مجموعة من الحبال يعرضها كعمل فني ضمن ما يسمونه بمدرسة «الشّيئية». ولم أتردد في إبداء وجهة نظري المتواضعة بشأن هذا الخلق والإبداع. وأردت أن أحدِّث بهذه النعمة التشكيلية. قلت:

إن صاحبها يستحق بحق أن يُجْلَسَ على حزمة الحطب هذه. وأن يُشد إليها بالحبال التي بجانبها شداً وثيقا. وأن يُصْنَع له مجد عظيم كمجد جان دارك في آخر لحظات حياتها.

ارمينيا

روى المؤرخون أنه في سالف القرون، جارت قبيلة على جاراتها، جنوب بلاد الساقيات المنقرضة، وحدث أن أحد كبار الرماة تحدّته امرأة في الرماية، وكانت من القبيلة الظالمة، واحتالت عليه فغلبته، فأنشد:

غَلَبْتِني سيدتي
وكدت أن ترديني
هزمت حقاً بطلاً
قومي إذن ارمينيا

فسميت تلك البقاع أرمينيا. وعلى غرار هذا قال آخر:

إرمني هات ارمني
فأنا ابن المحنِ
أمتي نائمةٌ
فهي هزء الزمنِ

قيامة على فعل قام

لأول مرة في التاريخ تندلع حرب ضروس بين إنسان وفعل ثلاثي. هذا ما حدث بين أبي الزبائد وفعل قام. يقول:

منذ أن عرفت فعل قام وأنا علاقتي به عادية، طبيعية لا تشوبها شائبة. طوال عشرات السنين لم يعكّر صفو الأواصر بيننا إسم أو فعل أو حرف. لكن، لأسباب أجهل عللها، وسأشرحها بالتفصيل، بدأت علاقتي به تسوء شيئاً فشيئاً. إلى أن توتّرت وتحوّلت إلى قطيعة وحرب معلنة كما ترى.

قد يبدو لك الأمر غريباً، أن يحقد المرء، وهو في كامل وعيه، على فعل. لأنّك اعتدت أن ترى العداء بين جبهتين واضحتين... بين طرفين مميزين... بين القط والفأر... بين الأميركان والسوفيات سابقاً... بين النهيق والموسيقى السمفونية... بين المذيعين العرب وسلامة اللغة...

لكنك لا تستطيع أن تتخيّل إلى أيّ حدّ بلغ تدهور الروابط بيني وبين فعل قام. إلى حدّ تفكيري في الإضراب عن استخدامه، إضراب واصل ابن عطاء عن استخدام الراء.

الفرق بيني وبين واصل أنه تجنّب الرّاء لخلل في مخرجها. أما أنا

فالحرب التي أشنها على فعل قام حرب عادلة، أساسها قضية مشروعة.

من حقي الدفاع عن لغتي ضد مخربيها. وقد تبين لي أن فعل قام يتصدر الآن مخربي اللغة.

أخطر ما في الأمر أنه عنصر غير دخيل عليها. وهنا تكمن الخطورة.

أوليس السرطان، الذي هو جنون الخلية، أشد وطأة وأعمق تخريباً في الجسم من الفيروس الدخيل؟!

فعل قام فعل استشرى وداء استفحل في لغتنا العربية. ولا أدري كيف يمكن الإهتداء إلى القضاء عليه؟!

هل يمكن التفكير في إسقاط فعل قام من قاموسنا؟

قبل كل شيء، من يملك حقّ إسقاط الأفعال؟

المجمع اللغوي؟

أين هو هذا المجمع العنقائي الذي نسمع به ولا نراه، ولا يوجد له أي أثر على حياتنا وحياة لغتنا؟ حتى أعضاؤه أصبحوا كالجنيّات.

ما من فرنسي إلا ورأى أعضاء المجمع اللغوي الفرنسي بزي الفارس الأنيق. وكل يوم لهم حضور.

فهل تستطيع أن تعد لي خمسة فقط من أعضاء المجمع اللغوي العربي؟ أربعة، بل ثلاثة فقط! أتحدّاك! إثنين.

هل رأيت ولو مرة واحدة الدكتور إبراهيم مدكور؟

من يملك حق إسقاط المفردات من لغتنا إذا أردنا التخلص من فعل يسيء إليها؟

برلمان جيبوتي؟

ثم، لو أردنا أن نسقط فعل قام، أي بديل نختار له: فعل وقف؟ وبالتالي، نقول: «أوقفت الوقوف على فعل وقف» بدل: «أقمت القيامة على فعل قام».

أم نختار فعل نهض؟ أم هبّ؟ أم وثب؟ أم ثار؟ مثلما نقول في شمال إفريقيا «ثرت من النوم» أي نهضت.

من الصعب التفكير في إلغاء هذا الفعل وإبادته. فهو ليس عضواً ارتكب خيانة عظمى ضد الحزب الحاكم حتى يصفى جسدياً وينتهي الأمر.

الطريف في التصفية الجسدية هو أنها التصفية الوحيدة التي لا تبقي شيئاً.

عندما تصفي الشاي، فإنك تطرح ما لا يصلح لشيء بعد، وتحتفظ بالخلاصة لتتناولها هنيئاً مريئاً.

ومصافي النفط تخلصه من شوائبه لتعطينا محروقاً أصفى وأنقى وأقل تلويثاً.

أما التصفية الجسدية فإنها تأتي على الشوائب والخلاصة.

أنا لست طاغية إلى حد التفكير في التخلص جسدياً من فعل قام.

أولاً: لأنه جزء من اللغة، ولا أحد في كل الوطن العربي يملك حق القضاء على أدنى عنصر من عناصر هذه الثروة القومية، مهما اجتهدت معامل تفريخ الأدباء في تدمير مقومات الضاد. حتى أن سلامة اللغة لم تعد إطلاقاً شرطاً من شروط الدخول إلى حظيرة الأدب. والذريعة هي أن الأديب ليس أستاذاً في علوم اللغة. تماماً شأن أستاذ اللغة الذي لا نستطيع أن نطالبه بأن يكون شاعراً أو قصّاصاً أو كاتباً مسرحياً.

ثانياً: التخلص من فعل قام أمر لم يعد ممكناً. فعاند من تطيق له عناداً. لقد تحوّل هذا الفعل الفرد إلى نظام يحكم اللغة. سارياً في شرايينها وأوردتها

وعروقها عرقاً فعرقاً وفي كل شُعيرة من شُعيراتها الدموية. فإذا حاولت اقتلاعه سعيت سعياً عبثاً.

هل جرّبت مرّة أن تسد مسكناً من مساكن النمل؟ انه سرعان ما يخرج من مكان آخر.

فعل قام أصبح كسرطان الدم. في كل الجسد. فلا يجدي معه بتر عضو لتخليص الأعضاء الأخرى.

فعل قام عنصر خائن أراد تحويل اللغة العربية إلى لغة ذات أفعال تركيبية.

ونحن نرفض أن تصبح الضاد تركيبية الأفعال كالفارسية والأوردية... فلغتنا في الأساس خالية من هذه الظاهرة. إلا نادراً.

فعل قام لعب في عربية آخر الزمان، الدور الذي لعبه فاروق الفيشاوي في مسلسل «ليلة القبض على فاطمة»... دور الإنتهازي الذي يتطور كما يتطور الداء، متوغلاً، متغلغلاً إلى أن يقلب الموازين كلها ويستحوذ على كل شيء.

في الماضي، كان فعل قام فعلاً شريفاً نقياً شاعراً بالمسؤولية واعياً.

تقول: قام بمعنى نهض. وما أروع النهوض والنهضة. فنحن نتمنى ألا نموت قبل أن نرى نهضة عربية.

وتقول: قام بالليل، إذا تهجد وسهر الليل خاشعاً متعبداً من خشية الله.

وتقول: قام الرجل على عياله أو رعيته، إذا رعاهم وحماهم وكان قوّاماً على أمورهم، شاعراً بالمسؤولية، حاملاً الأمانة بتفانٍ وإخلاص.

أما اليوم، فقد تخلّى هذا الفعل عن معانيه: لأن العرب تخلّوا عن الفعل! ويا للمأساة! فحين يسقط الفعل تسقط الجملة بأسرها. وتتلاشى.

هل تستطيع أن تكوِّن جملة، أن تجمع شتات مفردات بدون فعل؟

إذا استطعت مرّة، عسر عليك الإستمرار. وإلا عدت إلى قطعان إنسان الغاب. لا شعب ولا أمة.

لا لغة بدون فعل. لا شعبَ بغير فعل. لا أمّة إذا لم تكن لها أفعال.

يبدو أن للغة موضاتها أيضاً. ولم لا؟ في الماضي كانت الضاد تهيم بالفعل والفاعل. أما اليوم، فغرامها بالمفعول، به، فيه، لأجله، والمطلق.

تأمل فلسفة الضاد كما يرويها ذلك العبقري اللغوي إبن جني. لقد قال إن العرب رفعت الفاعل لأن الضمّ ثقيل على اللسان. وجعلت المفعول منصوباً لأن الفتح أخف. وقد اختارت الأخف للمفعول. لأن الجملة تحتمل أكثر من مفعول واحد.

فعل قام أصبح داء مستشرياً. يؤرقني ويقضّ مضجعي. تصور مثلاً كيف تكون لغتنا العربية لو أصبحت أفعالنا تركيبية!

في الفارسية، لا تشعر بثقل في الظاهرة التركيبية. لأن أساس هذه اللغة تركيبي. لكن، ماذا يكون موقفك لو حدّثتك بهذا الكلام.

«صرت يقظاً صباحاً. ثم صرت راكباً سيارتي. وذهبت لأفعل استقبال أخي. وعندما جاء هبوط الطائرة فعلت حمل حقائبه وجئنا الخروج من الموقف وفعلنا عبور الشارع متوجهين إلى البيت».

هكذا يقولون حرفياً في الفارسية والمعنى:

«إستيقظت صباحاً. ثم ركبت سيارتي. وذهبت لإستقبال أخي. وعندما هبطت الطائرة حملت حقائبه وخرجنا من الموقف وعبرنا الشارع متوجهين إلى البيت».

إستعمال الأفعال المساعدة مثل فعل وصار... يحوّل لغتنا العربية إلى وجه شديد الشناعة. مع أنه في لغات أخرى وجه جميل لأنه منها وإليها.

فعل قام يريد أن يصبح قوّاماً على المصادر يساعدها على القابلية للتصريف. ضارباً الحائط بالثراء الإشتقاقي الثرّ الذي تتمتع به الضّاد.

خذ هذه الأمثلة العجيبة التي تراها في أية صحيفة عربية بلا استثناء وفي جميع وسائل الإعلام العربية:

- قام بتسجيل الهدف...

- قامت البلدية بتنظيم مهرجان...

- قامت نيكاراجوا بشراء أسلحة...

- يقوم المجمّع الثقافي بعرض فيلم...

- قام الوزير بزيارة...

- حقق رقمًا قياسياً حين قام بأكل...

- قام العداء بقطع مسافة...

- قام مجهولون بتفجير...

ولك أن تجرّب بنفسك، باحثاً متعقباً، فإنك ستعثر على عجائب وغرائب شتى.

ترى، لمن ترك هؤلاء الفصحاء البلغاء أفعالنا مثل: سجّل، نظّم، إشترى، عرض، زار، أكل، قطع، فجّر...

ما هذا الكُساح الذي أصاب أفعالنا فغدت مصادر غير قادرة على الحراك إلا بأفعال مساعدة؟

لقد وضعت فعل قام في فوهة البندقية. لكنه ليس الوحيد. فهناك عصابة معه مثل تمّ... وقع...

لا أعرف بالضبط من المسؤول عن هذه المهزلة. ولذلك سأوهم النفس بأن هذه أيضاً مؤامرة صهيونية. حتى لا أتجشم عناء البحث الجاد عن أصل المشكلة، وأقع عندئذ في ورطة: ضرورة البحث عن حل.

صحيح! ماذا كنا نفعل لو لم تكن لدينا هذه الشماعة؟!

شرود

أراك شريـــــد الــــذّهـن جَـمَّ التـمـلـمــــل

كمن ضربتـــهُ شـــاشـــةٌ بـمـسـلسـلِ

فيـــا قـــومُ رفـقـــاً بـــالـبرايـــا ورحمةً

تهدّدنـــا شـــاشـــاتكم بـــالتـخـلـخــل

وإنّـي وإن كـنـت الأخـير مُشـــاهـــــداً

لأحـتـــار فـيـما عـنـــدكـم مـن تـــرهُّلِ

الأدب العالمي الجديد

لا تتسرع. فحديثي بعيد كل البعد عن الآداب العالمية. شبعنا أدباً. والعالم اليوم يتلقى دورة تأديب.

الأمثال، قبل كل شيء نسبية للغاية في صحتها ومصداقيتها. خذ مثلاً: أحد الأمثال الشهيرة في شمال افريقيا يقول: «اضرب القطوسة... تتربى العروسة». ويتضمن نصيحة للزوج ليلة الزفاف، بأن يظهر صرامته لشريكة حياته من خلال توجيه ضربة للقطة، فتدرك الزوجة حدود الأدب!

العالم النظامي الجديد، أثبت بما لا يجرؤ أحد على الشك، ان هذا المثل يشكل خطأً تأديبياً وتربوياً فادحاً، وان العكس هو الصحيح: «اضرب العروسة تتربى القطوسة».

كانت الضربة القاضية الأولى إلى الإمبراطورية السوفياتية فباتت «سابقاً» في خبر كان. وإذا القيصر جورباتشوف الأول درويش سائح على باب الله، حاضراً غير ناظر. ليس بيده شيء.

ثم كان التأديب بالفلقة، للعدوان العراقي على الكويت، الذي كان للعالم النظامي فيه مآرب أخرى.

درس؟ لا أراك الله. كل الناس من الماء إلى الماء افرنقعوا، تفرقعوا، شظايا...

مهمّة لم يقو عليها الرومان ولا المغول، ولا الحروب العالمية. فما تهشم من البنيان المعنوي أضعاف ما يُبنى في ألف عام.

وإذا العالم النظامي الجديد حريص، ما شاء الله، على زيادة الخير، ونشر التأديب في كل مكان.

التراجعات التي شهدتها وسائل الاعلام الليبية (لكيلا نصعد أكثر في السلم)، دليل واضح على أن «ضرب العروسة أجدى من ضرب القطوسة».

لا ينبغي للعاقل أن يتوهم وقوف الأمور عند هذا الحد. فهذه الأمة، إسم الله عليها، كعكة تكفي العالم النظامي الجديد وأذنابه سنين وعقوداً طويلة.

... ومنهم من ينتظر!

وحتى لا أبتعد كثيراً عن الأدب، فنخرج من مولد التأديب بلا أدب، أعتقد أن العرق يتصبب الآن من طه حسين وسعيد عقل ومن شاكلهما من دعاة العودة إلى الجذور.

فقد كان ضريرنا الراحل يدعو إلى العودة إلى الفرعونية. وكان «شقي عقل» يدعو إلى عودة لبنان إلى فينيقيته. كما حاول بورقيبة «الذي أصبح كشقيق الخنساء لا حياً فيرجى، ولا ميتاً فينعى» العودة إلى التراث البربري لولا

أنهم وجدوه صفراً خواء.

هؤلاء، كل على قدر نواياه، حاول الزج بنا في زنزانات انفرادية. وها هي السياسات العربية هيأت المقادير اللازمة، لكي تبدأ عملية تحضير صينية البقلاوة العربية، على أيدي كبير الطهاة: العالم النظامي الجديد.

صينية عربية واحدة، ذات إسالة لعاب خالدة.

الجولان

إختلف الرواة، وحتى العلماء الثقات في أصل هذه الكلمة. فمنهم من قال: إنما هي من جَوَلان الهموم أي بدايتها. قال الشاعر:

لِمَ يستعجل الأنامُ؟ فهذا
جَولَان الهموم والأحزان
ألف فخ أمامكم فاحذروها
إن هذي لَهدأةُ الطوفان

ويرى آخر أن الأصل «الجوّ لان» مستشهداً بقول أحدهم:

الجوُّ لان فهاتِ الرّاح يا صاحِ
واملأ كؤوساً فديناها بأرواحِ
عهدُ النضالات ولّى وانجلتْ كُرَبٌ
وصار أعداؤنا أحلى من الرّاحِ

قصّة العالم بأمره

نقل أبو الزبائد في هذا الفصل حواراً دار بين شخصيتين متميزتين في فترة حسّاسة من الزمن. جرى الحديث بين المشير العالم بأمره والمستشار العالم بالله:

رن جرس هاتف المستشار، وإذا المشير على الخط: أن أقدم فوراً، يدك على السماعة ورجلك على الدواسة.

وصل المستشار قبل أن يضع المشير السماعة بعد سهو وسرحان مديدين:

- لبيك... لا مال الشرق والغرب لديك... ولا رأس العدو بين يديك!

صرخ المشير:

- طوال الليل والرعاع يطوفون بهذه المنطقة، يكتبون عرائض عريضة، بها مطالب مريضة، ويلقون بها في حديقة القصر. أنظر ذلك الركام: مطالب، مطالب، مطالب...

قال المستشار في نفسه: ما ضاع حق وراءه مطالب!

المشير: تصور... انهم أوقح من رعاع ماري انطوانيت. ولو كانوا مثلهم لا يشغلهم همّ غير الخبز، لألقيت إليهم بأطنان من الكعك والأهلة المحشوة بالزعتر وفطائر الجبن. وخلصنا من شرهم. ثم أخذناهم فرادى بغتة، وجعلناهم كعصف مأكول. **﴿كلما نضجت جلودهم بدلناهم جلوداً غيرها ليذوقوا العذاب﴾.**

المستشار: إستشهادك بالذكر الحكيم ذكرني بقوله تعالى: **﴿وأرسلنا الرياح لواقح﴾.**

المشير: (مستنكراً) صدق الله العظيم. لكن، ما دخل هذا الآن، في هذه اللحظات العصيبة، في هذه المصيبة؟

المستشار: هناك رياح لا تعييها الأبعاد والآماد. رياح تعبر القارات، هازئة بالمسافات.

المشير: أية رياح هذه التي لم يدركها سليمان. ولو أدركها لسخرها؟

المستشار: رياح الفكر والتغيير يا سيادة العالم بأمره. من يستطيع أن يمنع رياح الأفكار من التنقل بين المجرات؟ فما أيسر انتقالها إذن من قارة إلى أخرى!

المشير: والحل؟

المستشار: أن تنير بيتك بنفسك، خير من أن يفرض عليك ذلك بضريبة. وتحرم مبادرة التنوير!!

سكت المستشار قليلاً، لكنه أدرك أن المشير شعر بالكلمات تنمل في ذهنه، فاستدرك:

ـ كلا، أيها العالم بأمره، ان المسألة ليست على هذا المستوى من الصعوبة والتعقيد.

غاب المشير قليلاً سارحاً، ثم صرخ فجأة:

ـ أنت تؤمن برياح لواقح غير الرياح؟

ـ يقيناً، سيدي، لقد كنتم تحلون المسألة ببساطة: إذا خالفكم أحد في الرأي اتهمتموه بأنه مُلحد. وكانت نهايته معروفة منذ البداية. ﴿فأمه هاوية﴾. أما اليوم، فمعذرة! سيادة المشير يعرف جيداً أن الملاحدة لم يعودوا مُلحدين. لقد اكتشفوا أنها ورقة خاسرة.

المشير: (مقاطعاً بحدة) اكتشافهم هو ورقة خاسرة لنا. ماذا سنفعل وقد أفقدنا الملاعين أهم ذريعة كانت بأيدينا؟

المستشار: هل أصبحت، يا سيدي، ضد عودة الناس إلى الإيمان؟! لقد كانت قوّاتك تنسف المعارضين على أنهم ملاحدة كفرة وخطر على الدين! لقد كانت أجهزة إعلامك لا تسأل شيئاً غير أن يزيل الله عن العالم شيطان الإلحاد الداعي إلى الفساد. وها أنتذا تتحسر على زواله!!

المشير: (ضاغطاً على رأسه بيديه) والحل؟

المستشار: بكل بساطة، سألخص لك كل تلك الأكوام من المطالب. إنني أعرفها جيداً جيداً، واحداً واحداً. نأخذ الفروع ونجمعها في أصول، فإذا حللنا الأصول حلّت الفروع بطبعها. تلقائياً.

المشير: ما عهدتك تهزل إذا جد الجد.

المستشار: حاشى. لقد قلت هذا الكلام مئات المرات طوال سنين. كنت تصغي إلى شخص واحد. هو أنت.

المشير: لم يكن الناس على هذا القدر من الوقاحة. قل... قل كل ما عندك.

المستشار: هل تستطيع أن تكون النّاسَ جميعاً؟ مهندسين، أطباء، محاسبين، إسكافيين، قصّابين، أساتذة جامعة، فلاّحين...

المشير: مُحال. ثم ماذا؟

المستشار: حل المشكلة إذن. لا بد من مشرفين على كل قطاع وعلى مستويات عدة.

المشير: (صارخاً) هذا موجود. لدينا وزراء، محافظون، عُمد، شرطة، درك...

المستشار: ومن يراقب كل هؤلاء، ويتابع أعمالهم؟ من يشارك في توجيه العجلات الوجهة السليمة؟ لا بد من مؤسسات. وأنا أنصحك بأن تدع للناس إختيار الأفراد اللائقين. أرح نفسك من هذا الوزر الذي لا يعود عليك بأي طائل. وكن على يقين من أن كل إنجاز عظيم يتحقق في الأقاصي والأداني. سيُنسب إلى عهدك.

المشير: (وقد لمعت عيناه) ثم ماذا؟

المستشار: هل للأمية حلاوة، هل لغياب المعارف طلاوة؟

المشير: مُطلقاً، ألا تراني تتدفق عليَّ المعلومات يومياً؟

المستشار: حل المشكلة إذن. في العالم محيطات بل أكوان من المعارف. ولا أحد يستطيع أن يستأثر بها. ما أروع أن تحكم شعباً عملاقاً!

المشير: ثم ماذا؟

المستشار: هناك ثلاث قضايا يجب أن يرفع عنها الضغط. واحدة ترتبط بمقولة عمر رضي الله عنه «متى استعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحراراً»... والآية الكريمة أبلغ من الخليفة ﴿**وأمرهم شورى بينهم**﴾ والثانية خلاصتها الآية الكريمة: ﴿**لا إكراه في الدين قد تبين الرشد من الغي**﴾. وأما الأخيرة فترتبط بعواطف الناس، لقد خلق الله الذكر والأنثى. وجعلهما متجاذبين وإلا...

المشير: (مقاطعاً) ظللت وحدي في هذه الدنيا.

المستشار: ان كل كبت يولد الإنفجار. ولا يطمح الناس إلى خرق القوانين إلا إذا شعروا بأنها ضدهم وضد فطرتهم. حل المشكلة إذن. ودع النصف الآخر حُراً.

المشير: ما الذي تقترح؟

المستشار: ليس في تعبير الناس أية غضاضة أو فوضى. دعهم يتكلمون ويرسمون ويكتبون ويعزفون ويرقصون ويلتقون ويبحثون ويدرسون، يحللون، ويذهبون ويقدمون ويزرعون ويحصدون ويملكون، يفتشون عن جذور المشاكل، يغضبون ويسخطون، سيضحكون، سيفرحون. وتدخل أنت التاريخ في مقدمتهم.

المشير: (ضاغطاً بيد على الأخرى فرحاً) ثم ماذا؟

المستشار: شيد الأمة على كواهل أبنائها، من كل خبير متخصص. فلن تفلت مقاليد الأمور من يديك. فالكفاءات أهم من الولاءات. الكفاءات تحميك من الزلّات والسقطات. وتقيك العواصف والرياح اللواقح. عقول الأمة أقوى من مدافعها. فالفتح المُبين هو فتح المخ.

المشير: (ساحباً المستشار من يده برفق) دعنا يا عزيزي نخرج إلى الحديقة. أحس بحاجة غريبة إلى أن أملأ رئتي بأنسام لم يحلم بها فجر.

إقتربا من الباب المؤدي إلى الحديقة... لمحا سرباً من الطيور تمرح على المرج الأخضر الموشى بكل ألوان الورود والأزاهير... وما أن فتح المشير الباب حتى فرت مرفرفة بألف جناح.

نظر المشير في عيني المستشار عميقاً بدفء وحنان، قال:

ـ ما أجمل العصافير خارج الأقفاص وهي طليقة في سماء الحرية!

ولأول مرة يجرؤ المستشار على احتضان المشير:

ـ الآن يا سيدي أصبحت العالم العارف بالله.

تقدم المشير من الباب الحديدي العالي وصاح بالحرس:

ـ إفتحوا الأبواب... تعالوا أيها الناس جميعاً... من اليوم كل واحد منكم مستشار.

برلمان

مثل هذه الكلمات واضح أصله جلي. لا يخفى على الفطن اللبيب. فالأصل: بر الأمان. ولما كان أولو الصولة والصولجان يتعرضون لمشاكل ومعضلات مع الجماهير، أشار عليهم ذوو الحكمة والرأي بالبحث عن منجاة تكون هي السبيل إلى بر الأمان. فكان أن أسسوا حلقة لنواب الخلائق لم يجدوا تعبيراً أبلغ من بـر الأمان يطلقونه عليها. ولهجت به الألسن وخففته فقيل بـرلمـان. ولم يكن ذلك ليفوت الشاعر فقال رافعاً النصيحة إلى مقام الباب العالي:

هــــل غــــادر النـــواب من متـــــردّم

أم هــــل عـــرفت الخط بعــــد تـــوهم؟

بـــــرّ الأمـــــان مجالـــــس شكليــــة

تنجيك من وجــــع الســــواد الأعظم

اختـــــر لهـــا من ليـــــس يملك مبـــدأ

وإذا تكلـم كـــــــان أعظم مفحم

اطــرحهمـــو فـــي الانتخـــاب وزكهــــم
واجـعـــل لهم في الـنــــاس حق تـقـــدم
اشبعهمـــو وانـــس الهمــــوم عـــلى المــدى
فهمــــو لـكـــل مـصـيـبــة كـــالـبـلـسم

الفناء في المشاهدة

يقول أبو الزبائد مفتتحاً هذا الفصل:

نحن أمة متصوفة بالفطرة. نهيم بـالتصـوف. ولكننـا لسنـا بـالضرورة عرفاء. تصوف بلا عرفان. بلا طريق أو سلوك. لا أقطاب ولا بحار سبعة.

يرى المتصوفون أن «الإرادة» هي ألا تفعل. ونحن، ورب الكعبة، لا نفعـل شيئاً. ومن قال غير هذا فقد افترى على خلق الله العرب!

إرادتنا هي مقارعة الفعل.· الإمتناع عنه. إلغاؤه من الوجود العربي.

أيهما أصعب أن تفعل أم ألا تفعل؟ كلاهما أصعب أحياناً وأحياناً أسهـل وأيسر. في الكفاح والنضال وعظائم الأمـور التي تتطلب الجـد والمثـابـرة والكـد والإجتهاد، عدم الفعل أيسر. لكن، أمام اللذائذ والمغريات يكون عدم الفعـل أعسر بكثير. أولم يقل ذلك الرجل الذي دُعي إلى الجهاد: «إني، والله، لأكره المـوت على فراشي، فكيف أسعى إليه راكضاً؟!».

نحن اليوم هكذا. ذلك الآخر بالغ قليلاً:

«خلق الله للحروب رجالاً

وخلقنا لقصعة من ثريد»

هذه مبالغة!! فنحن لم نمتنع يوماً أو نكف عن التنديد والشجب وزعزعة منظمة الأمم المتحدة ومجلس الأمن بالقرارات والنداءات والإستنكارات.

كل الطرق تؤدي إلى سياسة اللاعنف عندنا، إما من تلقاء أنفسنا، وإما رضوخاً للظروف القاهرة، القاهرة، القاهرة!

قد يجد النحاة معضلة كبيرة في إدراك كنه «الإرادة» عند المتصوفة. فلكي نقرب المسألة إلى أذهانهم نقول لهم: ان جملة المتصوفين ليس فيها فاعل. وليس فيها فعل.

من العسير على النحوي تصور جملة ليس فيها سوى المفعول، سوى المفعولات. جملة فيها انفعال دون فعل أو فاعل.

أما علماء الإجتماع فنقول لهم: إن جماعة الصوفيين، في عدم الفعل لديهم، ظاهرة أشبه ما تكون بالبطالة. هناك جماعة ومكان وزمان وحركة دون أي فعل.

بلغة الإقتصاديين هناك عمل دون إنتاج. عمل لا طائل من ورائه. كأن تضرب يداً على أخرى طوال ساعات، أسابيع، شهور، حسرة على مرور السنين هباءً منثوراً.

عمل دون إنتاج؟! لقد قالتها العرب: أسمع جعجعةً ولا أرى طحناً.

أما عرب اليوم، فيقولون مع تعديل بسيط: سمعنا جعجعاً وعوناً، ورأينا سحقاً وطحناً!

يعود أبو الزبائد إلى دنيا التصوف العربي الحديث قائلاً:

لقد كانت المتصوفة لا تتحدث عن شيء حديثها عن الحيرة. أي صوفي لم يعرف الحيرة ليس بصوفي. فهل لك أن تجازف بالإدعاء أن العربي ليس كذلك؟

أي عربي غير حائر ليس بعربي! فليس منا من ليس بحائر!

فرق بسيط: المتصوفة يحارون في كنه الجمال اللانهائي والعظمة اللامتناهية. ونحن حيارى في سر ضياعنا اللانهائي. في كنه هذه الدابة الحرون المتسمرة عند العقبة. لا تقدم ولا تؤخر. كرقاص ساعة حائطية بلا عقارب. كخرطوم فيل قلق، كصخرة سيزيف.

والجذب؟

ما حلاوة التصوف لولا الجذب؟ نحن لذلك نعيش حالة إنجذاب. نحن مجذوبون. مجاذيب. وكل ذلك في حالة من انعدام الجاذبية!

نحن متصوفة جبرية، نقول ما يقول أستاذ الأزل، أستاذ القوة الكبرى.

نقول عن يقين: لا اجتهاد ولا فتوى فيما يدرك بالقلب.

وعلى رأي الصوفي سنائي: كل ما يشغلك عن الطريق يستوي فيه الإيمان والكُفر. وكل ما يشغلك عن الحبيب يستوي فيه الجمالُ والقبح.

السياسة العربية هكذا تماماً.

كل ذلك يهون شأنه إذا قيس بالفناء في المشاهدة، ذلك الامحاء في ذات الحبيب. ولا يقال فناء في المشاهدة إلا إذا ذاب العاشق في المعشوق وامحى فيه.

نحن تماماً كذلك. نعيش منذ عقود وعقود حالة الفناء في المشاهدة. مما يدل على أننا جادون في هذا الشأن. طوال عقود ونحن نستلم مشعل رسالة

الفناء في المشاهدة جيلاً عن جيل.

شتان ما بين فنائنا في المشاهدة كأمة، وبين فنائنا أفراداً في مشاهدة التلفزيون. شاشتنا كأمة عرضها لا يقاس بالبوصة. سحقاً للبوصة. فهي أحقر من أن تقاس بها شاشتنا. نحن متصوفة نعرف ما معنى «طي الأرض».

شاشتنا نحن لا تقدر على صنعها سوني ولا توشيبا، لا ناشيونال ولا سانيو.

هي ذات أبعاد خيالية. تصور الأريكة التي تجلس عليها الأمة، عرضها من الماء إلى الماء. تخيل ساقي الأمة وهما ممدودتان. والدوالي متشعبة تشعب الأنهار تراها من الطائرة. لا تستطيع الوقوف، المسكينة! لشدة الآلام في العمود الفقري، وللوزن المفرط. استهلاك طول الوقت. جلوس ليل نهار. انعدام حركة.

أما الشاشة فعرضها خمس قارات.

وهي تتفرج.

يولد العالم ألف مرّة،، ويموت ألف مرة ويبعث ألفاً أخرى.

... وهي تتفرج!

يكر النهار على الليل... ويتكور الليل على النهار.

... وهي تتفرج!

تقوم الصناعات والعلوم والفنون والمعارف، تغزو الدنيا، تقلب المفاهيم والموازين.

... وهي تتفرج!

تتغير الدنيا، وتغير الناس. وتهب رياح التغيير.

... وهي تتفرج!

يتنافس الكبار على الأرض، على المقدرات والمقدسات. يقتسمون ما طاب لهم. يغتصبون ما ومن يحلو. يختطفون، ينهبون ما أرادوا...

... وهي تتفرج!

لقد جرت في عروقها قولة السادة الأفاضل: الحمد لله الذي سخّر لنا أهل المشارق وأهل المغارب ليبتكروا ويخترعوا ويصنعوا ونحن نأكل الثمر دون تعب أو نصب!

هم يتعبون ونحن نشتري منهم الجاهز سلاحاً كان أم مكياجاً، غذاءً كان أم لعب أطفال. هم يكدون ونحن نجني روائع ابطكاراطهم واخطراعاطهم...

يعطوننا السلاح الذي تعبوا حتى الموت في صنعه. ولا نعطيهم سوى المال وأشياء غير ذات بال يُقال لها «تسهيلات». وهذا هين فكل شيء عندنا يسر. والحمد لله!

... وهي تتفرج!

نحن أمة «مزبوطة» مثل القهوة «الوسط» في السكر. نحن وسط بين الجماد الذي لا يفعل شيئاً مطلقاً، وبين البشر الذين يصنعون ويبدعون.

... وهي تتفرج!

لا نحن مثل العظام الرميم. ولا مثل اليابانيين. أولئك يطيرون، يحلقون... ونحن لله الحمد، ننط. نتثاءب، نغفو: ما فاز إلا النوَّم!

... وهي تتفرج!

الفناء في المشاهدة؟

هو عند المتصوفة الإمحاء في الآخر. ونحن أيضاً وضعنا طموحنا في خزائن طموح الغربيين والشرقيين. فإذا صنعوا وطوّروا، انتشينا، وطرنا فرحاً، لأن ذلك الإنجاز قام به آدميون، ونحن آدميون أيضاً.

هل هناك تصوف دون إنكار الذات؟ نحن تجاوزنا إنكار الذات إلى نفي الذات. حتى لغتنا غدت لا تحلو لنا إلا إذا رصعناها بجواهر الانجليزية ولآلىء الفرنسية.

إذا كنت حاملاً شهادة دكتوراه في الفلسفة الإسلامية فإنها لا تساوي فلساً واحداً إذا لم تضع فيها خميرة أربع كلمات إنجليزية.

عندئذ يباركها رب الحضارة، وتنتفخ بإذنه، وتسر الناظرين.

إنكار الذات، نفي الذات، نبذ الذات... سر التصوف العربي الحديث.

يقول أبو الزبائد:

أي ريجيم هو، ذلك الذي تحتاج إليه هذه السيدة البرميل ذات المقعد من الماء إلى الماء، المبتلاة بالفناء في المشاهدة، الموشكة على مشاهدة الفناء!

قدريّة

عالم اليوم عظيم إنما

أين نحن الآن فيه؟ سيما

قد صبرناها قرونا ريثما

تنجلي غمّتنا لكنّما

ظلّ فينا العقل نسياً، كلما

صاح، قلنا: «وعسى» أو ربما

لعبة الزقاق

هناك قاعدة ذهبية أدبية، مفادها أنك إذا استطعت أن تغوص في أعماق ذاتك كأديب، فإنك ستلامس شغاف أفئدة الناس في الأداني والأقاصي.

قل إن شئت إن نفوذك إلى كنه الذرة يهديك إلى قوانين المجرة...

هناك شمولية تحكم وتسود.

فخامة هذه المقدمة الأرستقراطية غايتها أن العبد الفقير ليس ممن يفهمون واقع السياسة العالمية وغيبها، ولكنهم كالدراويش يعلمون ولا يستطيعون الوقوف طرفة عين في وجه المكتوب على جبين العالم، أو تغييره عن مجراه بواحد من المليار من المللي.

لذلك، عندما أريد فهم شعيرة من طامور السياسة العالمية أعود إلى قاموس الزقاق. وأتذكر كيف كانت المعادلات، ولعبة التوازن، ومراكز القوى، والتكتلات، وسلسلة المساومات وما بها من أحابيل وأباطيل... من أصغر صغير إلى أكبر كبير.

هذه المقاييس أشبه بالقوانين الطبيعية. تضيف مجلس شعب؟ تحذف برلماناً؟ تدخل تعددية الأحزاب؟ تشطب حرية التعبير وتلجم الأفواه...

ستجد أن لعبة الزقاق هي لعبة الأمم. وما يكابده مجتمع الزقاق يعانيه المجتمع الدولي.

الرجوع إلى قاموس الزقاق وما به من قوانين وأعراف وافتراءات، يجعلك تنظر إلى الساحة العالمية كمهزلة لا كمأساة. وشتان...

تأمل مثلاً الحركة الظريفة التي قامت بها روسيا. بلد وعلى رأي صاحبنا **«لا خيل عندك تهديها ولا مال»**.

أخطأت يا عزيزي... نهاية البيت هكذا:

«فابتز غيرك إن لم تسعف الحال».

روسيا منهارة إقتصادياً. وبالتالي فهي لا تستطيع أن تعطي شيئاً لتأخذ. ولا قدرة لها على أخذ ما يسد رمقها الذي هو أشبه بالثقوب السوداء. رحم الله القائل: «لا تسد البئر إلا مئذنه».

بلد خرج من مجاعة عملات صعبة. فتح عينيه وإذا الدنيا قائمة على رؤوس الأموال الحقيقية لا على «رأس المال» الماركسي، وتريدون ألا تغريه لعبة الأرقام النجومية؟

طبق فوراً حكاية: علمه كذا يسبقك إلى كذا...

صحيح أن الرئيس بوش فاجأنا بأن كل أموال الأرض لا تكفي لإطعام روسيا.

أعتقد أن البيت الأبيض طلب من مطعم «مكسيم» الباريسي فاتورة موائد فاخرة للشعب الروسي بأجمعه حتى نهاية القرن الحادي والعشرين!

لكن الرفيق يلتسين لا يريد سوى أربعين مليار دولار فقط. ولغرض انساني محض. وهو صيانة المفاعلات النووية حتى لا تحدث كوارث بمئات أضعاف تشرنوبيل.

هل هناك نكران للذات بعد هذا؟ فهو لا يريد إطعام شعبه وانما حماية العالم من الكوارث.

لذلك على العالم أن يدفع.

يدي على قلبي. ففي هذه الحالات لا يعني العالم شيئاً غير العالم العربي!

حزب اللامعقول

قال المصنف:

كنت دائماً أحلم بحكومة الفنانين والأدباء. حكومة منسجمة متناغمة. وزير العدل يدندن على «القانون». ووزير النقل يعزف على «الباص». والقائد بعصا صغيرة دقيقة العود يسيّر الأمور في لمح البصر. فيغمرك الإزدهار قبل أن يرتد إليك طرفك.

تنام على نجوى رابعة العدوية، وتصحو على حماسة أبي تمام. دور الأوبرا أكثر من أكشاك الجرائد. أعمدة الكهرباء كلها تماثيل أبهى من فينوس وأشهى من عروس. فترى الناس يهيمون بالأعمدة هياماً. وكل يغني على فينوسة أو عروسة.

حتى الشرطي حين يوقفك برشاقة لمخالفة مرورية، يغني لك موّالاً وهو يطلب منك الرخصة والملكية.

جمهورية الفنانين؟ يا ناعمًا!

لكن أبا الزبائد، يرى رأياً آخر تماماً. فهو يقول:

الحمد لله الذي جعل الفنّ بعيداً عن السلطة، وإلاّ لخرب بيوت الناس.

الأمر هين أن يصل الفلاسفة إلى سدة القدرة. أما وصول الفنانين والأدباء، لا قدّر الله، فكارثة لا يعرف مداها إلا أولو الألباب.

خذ أية مدرسة تخطر على بالك. هل تستطيع أن تتصور كيف تكون الحياة في بلد اسمه: الجمهورية الشعبية السريالية؟

ألا يكون التقدم فيها سريالياً؟ إلى الوراء مثلاً؟ أي أن يمر موكب العالم كله وتبقى تلك البلاد مكانها تحمد وتستريح؟!

كل العالم ينتج ويبتكر ويبدع، وتظل البلاد السريالية لا هي صناعية ولا زراعية ولا هم يحزنون!

تخيل حزباً حاكمًا يدعى «حزب اللامعقول»! ما هي اليمين الدستورية التي يؤديها رئيس الجمهورية عندما يصل هذا الحزب إلى السلطة؟

«أقسم باللامعقول أن أفدي بروحي الوطن اللامعقول. وأن أحافظ حفاظاً لا معقولاً على سيادته وترابه اللامعقولين. وألا أرتكب أية خيانة معقولة ضد الصالح العام اللامعقول. وأن أبذل كل جُهدي في سبيل تحقيق التقدم اللامعقول».

كيف تسير أمور الناس وكيف تكون الدنيا لو حكم الفنانون؟

أنا لا أقول: ان الفن ليس نابعاً من صميم الحياة. أو أن الفنانين أصبحوا صُماً بُكماً عُمياً لا يفقهون هموم الأرض والإنسان.

حاشى! فالفنانون هم المصابيح المنيرة والأنجم الزُّهر التي تتزينُ بها سماؤنا. هم الذين يحضنون آلامنا، فإذا هي تفقس آمالاً. هم التهوئة المركزية في حياتنا. فهم كحبيبة عمر ابن أبي ربيعة: مدفأة في الشتاء ومكيف في الصيف. هم الذين ندرك بفضل وجودهم أننا لا نفقه شيئاً، وأننا كالأنعام بل نحن أضل سبيلاً. وأنهم هم الذين أوتوا الحكمة والهدى والرشاد.

هم لسان حالنا. نحن نتألم ونحزن ونأسى ونتمزق وتطلع روحنا، وهم الذين يعبرون عما نعانيه بأشكال سيكون فهمها في متناول الناس بعد مئات السنين!

فكيف يدّعي المتسرعون أن الفن شيء والحياة شيء آخر في زماننا؟

لكن، ليس عيباً أن نسلم بوجود مسافة بين الفن والحياة. مسافة تكفي لحدوث كارثة إذا وصل الفنانون إلى السلطة.

حتى أولئك الرومانسيون وصولهم مشكلة.

فالرئيس الرومانسي يخصص خطبة في أحلك الظروف لآلام ليالي الوحدة والوحشة وبكائيات الفراشة والشمعة:

«أنَّى لي الوصول بزورق هذا الشعب إلى شاطىء الأمان، وأنا مجداف كسير وجناح مهيض؟ ليت الظلمات الأزلية ألقت بنا في بحار النسيان... بعيداً... بعيداً... في سديم العدم».

أما قائد الجبهة الدادية عند استلام زمام السلطة فيقول في خطاب جماهيري:

«إستعمار... طقطق

فرشاة... شجرة... زقزق

لقلق...

لق... بق... مق... حق

والسلام على الشمقمق».

بيان رسمي، وتذيعه كل الشبكات المرئية والمسموعة ويصدر على الصفحات الأولى مع الإفتتاحيات والتحاليل.

في جمهورية اللامعقول، حيث الحزب يمسك بقبضة من حديد، الأجسام والعقول، ترى القوانين والدساتير كلها تهويمات وشطحات لم يعرفها حتى أهل التيمارستان. قوانين عائمة هائمة سائمة. تسنّ بعشوائية. تملى من وراء الستار. ويصادق عليها بأغلبية ساحقة تسحق كل الإعتبارات والمقاييس. وتنفذ حسب المزاج على غرار قوانين الحشاشين.

في بلاد اللامعقول لا يجوز لأحد أن يتكلم عن العقل والمنطق. لأنه سيكون عدو المصالح القومية العليا.

وعلى رأي أبي الزبائد:

لا يوجد شيء واضح في بلاد اللامعقول غير القوانين الجزائية والأحكام العرفية.

في بلاد اللامعقول ترى عيشة الناس تنظيراً وخطباً ولوائح ولافتات من الصباح إلى المساء. تصحو على الهتافات وتنام على الشعارات.

في بلاد اللامعقول ترى عالماً من الأراضي الصالحة للزراعة ولا تزرعها السلطة حفاظاً على مصلحة الإستيراد العليا. وعند سرد الإنجازات التي حققها حزب اللامعقول يقولون بكل فخر:

«لقد زرعنا كل الأرض ولم يبق سوى خمسة أرباع البلد أو ستة أخماسه أو سبعة أسداسه فقط».

ولا يحتاج الأمر إلا لخطّة ألفيّة لإنجاز المشاريع اللامعقولة.

في بلاد اللامعقول تحظر إجبارية التعليم حظراً باتاً ضماناً للحرية الفردية في الإختيار:

«أريد أن أبقى أمياً... فما دخلك أنت؟ ومتى حررتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم عبيدا؟».

الإحصاءات برهان قاطع في بلاد اللامعقول على أن الأكثرية اختارت الأمية. فهل تتهم الأغلبية بأنها ضحية ضحك على الذقون؟ أو انها فريسة لعبة أممية كبيرة؟

في بلاد اللامعقول تظل القضية المركزية خمسين عاماً تبحث عن حل... «ممرمطة» في المحافل اللامعقولة... «ممططة...» بين القمم اللامعقولة... «متنططة» من مؤتمر إلى مؤامرة أخرى...

ما أراد الله بأمة عذاباً إلا وعلمها فنون المؤتمرات وإصدار القرارات وتشكيل اللجان.

نحن والحمد لله في العالم العربي بعيدون عن هذه الأساطير، إذ لم يحكمنا الفنانون بعد. وكل شيء في الوطن العربي معقول، والحمد لله!!

أصل الكلام

لوس انجلوس

من فقهاء اللغة من يرى كتابتها هكذا خطأ، ككتابة: العلم نورن. فصوابها عند هؤلاء «لوس جلوس». يقال: قوم لوس أي أشداء. جمع أَلْيَس. ويستشهدون بقول الشاعر:

لوسٌ جلوس إذا ما ضيم واحدهم
قامت قيامتهم فوضى على شغب

إذا ظلمتهُمُ أشعلت نارهُمُ
فصيّروا الناس في النيران كالحطب

وذهب بعضهم إلى أن ذلك ليس كذلك. فالأصل عندهم ان اسم المدينة إنما هو من قولهم «لص ان جلس» بدليل قول الشاعر في شخص نهاب سلاب:

ينهب الناس نهاراً
وهو وحش في الغلس

هو لص واقفاً
وهو «لص إن جلس»

ربـاعي في قميص

منذ عرفت الدنيا وأنا وأبو الزبائد صدران في قميص. إنسجام عجيب. كنا كما يقول جلال الدين الرومي:

روحـــــــه روحـــي وروحـــي روحـــــــه

من رأى روحـين عــــاشـــا فـــــي جســـد

كنا لا نفترق. نأكل معاً. نمرح معاً. نعدو نقهقه... براءة الطفولة شيـدنـا بها مدناً وملأناها قصوراً. وملأنا القصور طيوراً. وأفعمنا الطيور حبوراً...

وانثنينا فمحونا الأربعا!

منذ المراهقة بدأت تلوح في الآفاق بعض خلافات في الرأي. بغاية السرعـة أصبحت لنا آراء. صرنا لا تعجبنا الدنيا. فقـد خـرجت الـدنيـا من قمقم قطعـة الحلوى والبالونة وهموم البوظة والبسكويت.

تقدم السن كان مشكلة كبيرة. فأبو الـزبـائد بـدأت تظهـر عليـه عـلائم غريبة. كان يهمس في سمعي:

- ألا تبدو لك الآذان تطول، بمرور الأيام؟!

وكنت أرد عليه بعنف:

- إتق الله يا أخي!

ومع ذلك، كنت من حين لآخر إذا مر أحد أعرفه استرق النظر إلى أذنيه لكي أكون على بيّنة من أن أذنيه لم تطولا حقاً. وكم احتاج إلى فرك عيني لأتيقن من أن هذه الظاهرة الفسيولوجية إفتراء زبائدي أم حقيقة!

كنت أتهمه بالإنخداع البصري. وكان هو متطرفاً يتهم الناس بالإنخداع البصيري. وكان يستشهد بالذكر الحكيم:

﴿انها لا تعمى الأبصار ولكن تعمى القلوب التي في الصدور﴾.

ويضيف: أي عمى بصيرة هذا الذي يجعل الناس لا يرون الأمور على اعوجاجها وارتجاجها وكثرة فجاجها وكثافة عجاجها وملح أجاجها وضحالة نتاجها، فأسودها فرائس نعاجها. ونسورها صيد دجاجها.

ورغم ذلك لم تكن لتفرق بيننا الأيام. فالقناعات في النهاية واحدة. والشخص الذي تصبح روحه روحك ترى الدنيا بعينيه ويراها بعينيك.

لعل آذان الناس تطول حقاً! أستغفر الله، إن بعض الظن إثم!

أداعب أذني، أتفحصها. ملياً. لا، ليس ثمة شيء جديد يذكر. لا عرض إضافي ولا طول زائد.

لكن أبا الزبائد يقول: إن العملية تتم بغاية البطء لذلك لا تكتشفها العين المجردة فوراً.

إلى المرآة إذن. اسحب أذني إلى أعلى. أجرها إلى أسفل. أذناي هما أذناي. والأرجح هو أنه لم يطرأ أي تحول على أذني على الأقل.

من الصعب أن تستوقف أحد المارة:

ـ معذرة يا أخي.

تمتد يده إلى جيبه قبل أن تنطق ليبادرك بعلبة الكبريت أو الولاعة. وآخر يكشف عن ساعته فوراً لأنك ستسأله عن الوقت.

وإذا بك تفاجئه:

ـ هل طالت أذناك؟

تتراوح الردود عندئذ بين الكلمة واللكمة وسلة الشتائم المختارة. وفي أحسن الحالات يتجمد الدم في عروق الرجل، فينظر إليك شزراً، ويمر متمتماً:

ـ لقد أصبح الناس حقاً حمـ...!

رفاق السوء دائماً هكذا، وإلا فمن الأجدر منا باللّكمات والركلات وسلال الشتائم المختارة أنا أم أبو الزبائد؟

لكن، كيف أشك في رأيه وهو القائل دائماً:

الحق ظاهر عندنا، لكن الباطل أظهر.

هذه المواقف خلقت انفصاماً عندي. صرت أغتابه وأشكك أحياناً في صحة ما يذهب إليه. أجلس أحياناً إلى نفسي وأحياناً أخرى إلى المرآة ونتحدث عنه.

وهكذا صرنا ثلاثة. أصبحت أنا إثنين وهو ثالثنا.

الناس لا يميزون بيننا. لمجرد أنني أرتدي مثله. وهو يقلدني في مشيتي وحركاتي.

وهكذا تفاقمت المشاكل. فإذا ارتكب خطأ اتهموني أنا. وإذا اقترفت حماقة الصقوا التهمة به.

وهكذا... ثقلت عليه تناقضاته الداخلية والخارجية، فأصيب بالإزدواجية.
فصرنا أربعة. ولك أن تتصور متاهة العلاقات بين أربعة أشخاص يعيشون معاً ولا يفترقون.

أمل

قيل: إن العدوّ فتح خطوطه السلكية واللاسلكية. فقلنا:

فتح العدوّ خطوطهُ
يا ليت ما فتح الخطوطْ

فسيسمعون شخيرنا
ويسجّلون لنا شريطْ

يبقى لنا أملٌ بأنْ
تغشاهمُ عدوى الغطيطْ

عبثية الانفصال

ماذا لو ركبت كل دولة عربية قرنها، عناداً وتمرداً، وأعلنت انفصالها عن العالم العربي إقتداء بدعوة بعض الإخوان في الجماهيرية العظمى؟

فكرة تأملها مليّاً، فلن يقيمك الفكر بين العجز والتعب كما فعل بأبي الطيب. فكرة لها محاسن لم تحظ بها خود العرب، ولا فاتنات العجم والبربر، ولا حسان من جاورهم من ذوي السلطان الأكبر.

فكرة بذورها مشتركة اللقاح بين إبن خلدون وأرنولد توينبي. أعني نشوء الحضارات واندثارها. وما هي ببعيدة عن الفكرة التي تحمل في طياتها بذور فنائها عند هيجل.

صبرك يا أخي، دعنا نتفلسف لحظة. فسينجلي لك الأمر، والصبح قريب. فما يحدث لنا ليس لعبة.

لو فعلتها كل دولة عربية على حدة، لكان في ذلك شرف «بيدي لا بيد جورج»! عندئذ سنوقع العالم كله، جملة وتفصيلاً، في مقلب.

أول المكاسب أن «إسرائيل» لن تستطيع احتلال أي شبر جديد، فستكون الأراضي غير عربية. أما ما ابتلعته فنحن أساساً عاجزون عن استرداده. والذين يغضبهم هذا الكلام عليهم التفكير جيداً في هذا السؤال: ماذا سيفعل رابين بقولة شامير: «كنت سأفاوض عشر سنوات أواصل فيها بناء المستوطنات؟».

المكسب الثاني ان علاقاتنا، فيما بيننا، ستشهد قرن عسل لا شهر عسل. فكل خلافاتنا، إذا كنا صادقين، لها منشأ واحد: وهو اننا عرب!!

تتحاور مع مجموعة من الأشخاص، فإذا كل واحد ينق من جهة: يا أخي نحن العرب كذا وكذا... فيقول الآخر: ماذا نفعل؟ يا أخي نحن العرب دائمًا كذا وكذا...

وهكذا... تكاد تقطع شعرك غضباً على هذا التمزق العربي. فلا تجد مفراً من أن تترك الجلسة قائلاً: يا أخي نحن العرب بنا وفينا وعلينا...

فإذا أصبحنا فراعنة في مصر، وبرابرة في شمال افريقيا، وفينيقيين في لبنان، سرياناً، آشوريين، آراميين، بابليين، كنعانيين. قحطانيين... لست أدري ماذانيين... فسنقيم علاقات ودية واحتراماً متبادلاً وتعايشاً سلمياً، ونوطد الأواصر ونعزز التعاون... وننهل من معين ثقافات وحضارات عريقة. ونتبادل الخبرات والكفاءات والطاقات والمواد الأولية والآخرية... وننعم بقصص حب لم تعرفها الدنيا... ونتزاوج وننجب أولاداً وبنات يملأون الدنيا، ويتكلمون لغة واحدة. ويشكلون في النهاية أمة واحدة تصيبنا مرة أخرى بالصداع إلخ... إلخ...



ربّـنــا...

هبنا بيئة بلا تلوث

ومدناً غير مختنقة بثاني أكسيد الكربونِ

وسواحل بلا بقع زيت

وأمطاراً لا حمراءَ ولا صفراءَ ولا سوداء

وقِـنـا عذاب النفايات النووية

جُمهُورِيَّة الحَمَاقَة

اللهم لا نسألك رد الحماقة

ولكن اللطف فيها !

مطب الحماقة

حدّث أبو الزبائد قال:

لم أشغف على مدى السنين ببيت كقول القائل:

لكـــــل داءٍ دواء يُستطـــــبُّ بـــه
إلا الحماقـــة أعيت من يــــداويها

منذ صباي وأنا أتوق إلى علاج الحماقات. وأحلم بمداواة الحمقى. حتى لا تسود الحماقة وينتشر الحمق. فيصبح لا قدّر الله ايديولوجيا يتباهى الناس بالتنظير فيها. تمجدها وسائل الاعلام السمعية والبصرية وتقوم على أساسها الأحزاب والمنظمات والمؤسسات وتعلو بها الرتب في المحافل الدولية.

كنت دائمًا أحلم بأن يكون لديّ من المال والرجال ما يمكّنني من إضافة علم جديد إلى العلوم يكون إسمه بإذن الله تعالى: «حماقولوجيا» أي علم الحماقة.

ويتفرع عنه «هو مو حماقة تيرابي» أو علاج الحماقة بالحماقة وغيره...

وقد فصّل المصنّف جوانب هذا المشروع القومي القيم، قائلاً:

لما رأيت بني قومي قد تحولوا إلى مرجئة يرجئون محو الأمية ومكافحة الجهالة الجهْلاء والضلالة العمياء. ويسوّفون في كل ما يحتاج إلى المواجهة والكفاح. أدركت أن محو الأمية ليس أول مطلب، فالقضاء على وباء الحماقة يجب أن يأتي في مقدمة الإهتمامات والخطط والمشاريع.

وعندما استخرت الله، وتوكلت عليه في تأسيس مطب الحماقة، وقعت في مطب عجيب! فالذين يصدرون الرخص رفضوا الإعتراف بالمشروع، لأنه يهدف إلى معالجة العقول، ولو كان مستوصفاً لعلاج جرح إبرة أو شفرة لحصلت على الترخيص قبل أن أقوم من مقامي، بل قبل أن ترتد إليَّ حماقتي. فمطب الحماقة في نظر أصحاب النظر يفتح جراحاً عميقة، جراحاً كان ينبغي أن تفتح منذ زمن بعيد. في حين أن شعارهم هو: «الفتنة نائمة، لعن الله من أيقظها»!

كان المؤلف يعلم علم اليقين أن أصحاب الترخيص لا يستطيعون بسهولة إصدار رخصة لإنشاء مطب لا سابق له ولا نظير. فهم أهل تقليد. ولا يخافون شيئاً خوفهم الخلق والإبداع والإختراع والإبتكار والتطوير والتجديد... فهذه في نظرهم تعني التمرد على العادات والتقاليد.

بعد جهود مضنية ونضال مرير، علانية جهاراً، إستطاع الرجل أن يقنع أهل الترخيص بأن هذا المطب عمل خيّر لصالح الأمة وما هو بالهزل واللهو والهوى. وما كاد يتنفس الصعداء حتى لاحت له العقبة الكأداء:

أنشىء المطب. وقام البنيان. وحضر الإفتتاح لفيف من العقلاء. ووضعت على المبنى لافتات عملاقة. وأخرى في الشوارع والأزقة المجاورة تشير إلى موقع المطب. وإذا بالسيارات تهدىء السرعة كلما رأت لافتة، مولّية الأدبار. خالطة بين مطب الحماقة ومطبات المرور. فما أن يعود السائق أدراجه حتى يجد لافتة أخرى في انتظاره. فتحولت المنطقة إلى متاهة. فصار الناس يسمون الحي تندّرا: حي الحماقة!

حي الحماقة أصبح مصدر صداع للسلطات.

بعضهم اقترح تغيير الإسم إلى «مستوصف الحماقة». فكان الرد عليه بأنه لا يمكن تصور الحماقة داخلةً بإصبع مربوطة جرحتها في أثناء تقطيع السبانخ مطالبة بضماد.

فما القول في «مستشفى الحماقة»؟

تخيل مثلاً سيارة الإسعاف قادمة مسرعة: «بيم. بام... بيم بام...»، تتوقف بسرعة، ينزل الممرضون... يفتحون الباب الخلفي على مصراعيه... يُنزلون الحماقة ممددة على النقالة ويركضون بها نحو غرف العمليات وفي يدٍ وصْلٌ إلى المصل.

بعضهم رأى تسميته: «نقاهة الحماقة».

لكن ذلك خطأ فادح. إذ يُفهم من ذلك أن الحماقة تدخل مريضة لا قدّر الله، وتخرج معافاة باذن الله! فتصبح الكارثة على الأمة أشد وأنكى!

مرّت أيام والمطب لا يدخله أحد. فليس من السهل أن يتقدم المرء قائلاً:

- أنا أحمق أيها المتخصص في طب الحماقة. فهل لديك علاج؟

تُرى، من له مثل هذه الشهامة؟

لكن هذه العقبة لم تستطع أن تقتل طموح أبي الزبائد. فقد قرر أن يبث ممرضيه في الآفاق يبحثون عن الحماقات حيثما كانت. وينقلونها إلى المطب لعلاجها.

وما هي إلا أيام معدودات حتى تضاعف عدد المرضين وأطباء الحماقة. وأنشئت دائرة تشغيل خاصة للإنتداب والتوظيف.

وأصبح من العسير توفير وسائل نقل لا تتوقف ليل نهار. فقد أصبحت المدينة طوال الساعات الأربع والعشرين: «بيم بام... بيم بام...»، لنقل الحالات الطارئة خاصة: حماقة أكل، حماقة عاطفية، حماقة عمل، حماقة شرب، حماقة ضمير، حماقة أخلاق... لم يعد أحدِ يعرف كيف ينام أو حتى يستريح: «بيم بام... بيم بام...».

كان الحل الوحيد هو إنشاء مطبات للحماقة في كل الأحياء. لكل حي مطب خاص بحماقاته.

وحتى لا تكون الأمور سائبة، تشكلت لجنة للإشراف على المطبات والتنسيق بينها. ويرأس اللجنة شخص ملمّ بتسيير أمور الحماقات.

وهكذا حدث في كل المدن. فقد انتشر المشروع وسرى في المناطق والنواحي والقصبات، سريان الحماقة في الفهم والذكاء.

وكان من الضروري أن تضم القرية إلى البلدة. وهذه إلى المدينة. والمدن تصبح محافظة. والمحافظات يضمها الإقليم. ومجموع الأقاليم بلد.

هناك مسألة غير هينة. فقد أصبحت أمور مطبات الحماقة أوسع مدى وأكثر تنوعاً من أن تشملها إدارة واحدة.

أصبحت المطبات تستهلك من المواد الغذائية ما يحتاج إلى جهاز كبير للزراعة وتربية الماشية والأسماك والدواجن... قل إن شئت انه يشبه وزارات الزراعة في الدول.

وغدت الإتصالات السلكية واللاسلكية والبريد تتطلب جهازاً جبّاراً، لك أن تسميه وزارة البريد والبرق والهاتف.

وأضحت المواصلات البرية والبحرية والجوية تستدعي جهازاً كفؤاً، ليكن، إن شئت، وزارة الطرق والمواصلات.

هل يمكن أن لا يكون هناك جهاز عظيم للصحة في مثل هذه الهيجاء؟ لتكن، إذا سمحت، وزارة الصحة.

أبناء موظفي مطبات الحماقة يحتاجون، هم وأبناء مرضى الحماقة إلى مدارس مختلفة ومناهج غير المنتشرة في بلاد الله، مناهج تكسبهم مناعة ضد الحماقة. وهذا، كما تعلم، أيّدك الله، يحتاج إلى جهاز تربوي تعليمي ضخم، لا بأس بأن نسميه وزارة التربية والتعليم...

وهكذا في كل ميادين الحياة...

ولا بد من التنسيق في كل هذه الأمور مع الدول الشقيقة والصديقة مما يتطلب العديد من المنظمات الدولية لدعم حركة القضاء على الحماقة.

قال أبو الزبائد:

ما هي إلا فترة وجيزة، حتى تجاوزتني الأحداث.

فقد قامت في لمح البصر أحزاب واتحادات وجمعيات ومنظمات وحركات تتهمني بأشد الحماقات حماقة، وبأشد ألوان الرجعية رجعية، مؤكدة على أن ما تصورته أنا شيئاً جديداً، إنما هو قديم قدم الإنسان!

غزل الحمقى

قال أبو الزبائد: الكون بُـنـيَ عل المحبة، فكـل الكـائنـات تحب وتعشق. والحمقى جزء لا يتجزأ من هذه الكائنات والمخلوقات لهم أن يهـووا وأن يكـون لهم ما شاؤوا من نسيب وتشبيب.

للحمقى الحق في الشـوق وألم الفـراق، وعـذاب الهجـر وأنّـات السهـد واللوعة. وللمغفلين الحق في التعبير عن مكنونـات الصـدور إزاء محيـا الحبيب، وجنتيه، عينيه، قوامه الرشيق وفرعه الذي يسدل ستار الدُّجى على فجر الجيـد وبسمة الوليد.

تبقى مسألة واحدة وحيدة وهي الإختلاف في طـرائق التعبير. لكن لهؤلاء الحمقى حججاً دامغةً. فكل حرٌّ في التعبير باسم حـريـة التعبير. وهم يـرفعـون شعار: فلتسقط كل معايير النقاد. وليذهب النقـد إلى الجحيم. فـاليـوم، وبـاسم حرية التعبير، لا معايير بعد ولا مقاييس. فهذا زمن التحرر من قيود النقـد. ولا نقد اليوم يقف على قدميه ويستحق التعظيم سوى ذلك الذي تهتم به المصارف.

كل شيء مجاز باسم الحداثة والتجديد، وحرية أي كان في فعل ما يريـد. لا تفرقة ولا تمييز. وشاعرنا الخالد يقول:

«ولمـــا رأيت العلـــم فـــي النـــاس فـــاشيـــاً

تعـــالمـــت حتى ظُـــن أنـــي عـــالـــم»!

يبدو أن الحمقى أرادوا وضع حد لمأساة النـزاعـات القـائمـة بين حـزبي الأصالة والحداثـة. وعقـدوا العـزم على إيجاد تيـار أدبي يجمـع بين الأصـالـة والتجديد. حركة تحافظ على الأشكال الكلاسيّـة العريقة وبهلوانيـات التجـديـد والتعصير والتحديث.

ورغم ذلك فإن أبا الزبائد مُـصر على تسمية هذا التيـار التـوفيقي بتيـار الحمقى. وهو يرى أنه ما دام شعر العقلاء والأذكيـاء قـد آل إلى مـا آل إليـه في أيامنا هذه، وأصبح التجديد في مأزق، فإن علينـا أن نـدفـع عجلـة هـذا التيـار الجديد، لعل فيه خيراً لأمة الأدباء وأهل القلم. والله من وراء القصد.

يقول: إعلم علمك الله ما لم تعلم أن للحمقى مـدارس أدبيـة شتى منهـا الطبيعية والواقعية والتصويرية والرومانسية... وقد ذهب أصحابها في غزلياتهم مذاهب شتى، وطرقوا مواضيع عديدة. ولا شأن لنا هنا بالمدارس، فالأمر متروك للنقاد كسائر الأمور الهامشية التي لا طـائل من ورائهـا. وقـد رأينـا تقسيمهـا حسب الموضوع.

قال أحمق متغزلاً في عصر تكشف فيه الأشعة المجهولـة عما في الحقـائب وما في الصدور:

حـــدثـــانـــي عن بـــانهـــا وصفـــا لـــــي

فقـــد احتـــرت لـــم أجـــد أســـماء

وقـــوام مـثـــل الـــزجـــاج صـفـــاء

تـبـصـــــر الـقـلـب مـنـــه والأمـعـــاء

وأراد أحدهم أن يتّقي انعدام الإخلاص الذي تتهم به الفاتنات عادة فعشق شمطاء قدّها أنحل من عود كبريت:

احببتها قبيحة
نحيلة مثل العصا
سليطة إن نطقت
أتاك رجم بالحصى
لا يرتضيها أحد
فشأنها أن تخلصا
لكن يقول حاسدي
ان «العصا لمن عصى»

أما عن الخدود فلأحد فطاحل الحمقى:

وجنتها في حمرة الطماطم
وأنفها كأنه خيار
يحرقني صدودها كالفلفل
وليس لي في حبها خيار

بينما ذهب أحد الشعراء المغفلين إلى وصف ضفائر حبيبته بأنها في رشاقة جدائل البصل، غير أن شعرها أسود، فماذا قال؟

خصلات تنساب كالليل تيها
بصل أخضر طلوه بقار

وأمام هذه الطماطم والخيار والبصل في سلطة الحب، لا بأس من إستحضار الخبز:

ومحياك كالرغيف إذا ما

أخرجوه من التنور لتوه

قيل له: ما هذه القافية؟ فقال: ستقدر الحبيبة أنني ركبت مركباً صعباً، وأنني أهدي إليها شيئاً نادراً!

ولم يتورع آخر فوصف عيني الحبيبة بأنهما تنوران:

عيناك تنوران أخبز فيهما لحن الهوى

والثغر فرن لاهب يا سعد من منه اكتوى

فقال له أحد النقاد: يا هذا... ان الخُبز لا يُخبز في التنور. فرد عليه قائلاً: يا هذا... وهل تُخبز الألحان؟ فكان الشاعر الأحمق أذكى من الناقد.

وللحمقى شوقهم وفراقهم وسهادهم ووصالهم. ولهم فيه مشارب ومذاهب.

يقول أحدهم واصفاً سهاده مستهيناً بما يُلاقي العشاق من أرق وتسهيد، فمعاناتهم قطرة في بحر آلامه:

قل لمن يدعي التأرق مهلاً

إن عندي غرائباً في السهاد

سهري في النهار لا أغمض الجفن

وليلي تركته للرقاد

هذا السهاد وهذا السهر الطويل المضني طوال النهار إنما هو من ألم الفراق المرير الذي يدفع الشاعر إلى أن يقول:

ظللت من فراقها

في حسرة مقهوراً

مثل الحمار مكرهاً

يفارق الشعيرا

وقد تجاوزه آخر في بلاغة وصف الحال قائلاً للحبيبة:

لو وضعت الفؤاد في سطل ماء

طشش القلب من أسى الإحتراق

فارحميه بطشت وصلك يوماً

انه صار فحمة في الفراق

لكن الغريب أن بعض هؤلاء الشعراء الفطاحل يحترقون إلى حد أن الوصال لم يعد قادراً على إطفاء لظاهم. فالهجر عندهم أرحم:

ليس لي طاقة على القرب يوماً

فجحيم الغرام عندي الوصالُ

أنا مثل البطيخ يقتله الماءُ

ووصل الحبيب لي قتّالُ

ويبقى الشوق سيد مواضيع الشعر. فلا شعر بلا شوق. وشوق الحمقى كله ذوق، هذا شاعر يتمنى أن يكون مرجاً للحبيب:

ليتني عشب ندي
أنت فيه بقرهْ

فارفسيني واقضميني
تجديني عنترهْ

لكن أين هذا من ذلك القائل:

شوقي إليها عارم
شوق النبات إلى السماد

شوق الحمار إلى الشعير
إذا تشرّد في البلاد

لكن أين هذا من ذلك القائل:

إن تأمري يا حلوتي
فأنا أطيعك كالعساكر

شوقي إليك كأنه
شوق الذباب إلى السكاكر

لكن أين هذا من ذلك القائل:

قلبي ينق كضفدعهْ
شوقاً إلى أن تسمعهْ

شوق البعوض إلى النؤو
م مرامه أن يلسعهْ

شوق القراد لناقةٍ
شوق الحمار لبرذعهْ

لكن كل ذلك ليس شيئاً إذا قيس بقول ذلك الشاعر الذي تمنى أن يمسك بيد حبيبته ويجرها وهما يعدوان في حديقة فلم تخطر على باله غير هذه الصورة:

ليتنا كنا حبيبي
في حياة طَرِبَهْ
نعبر البستان ركضاً
ما لنا من عقبه
أنا مثل البغلِ جراً
أنت مثل العربه

رثاء الحمقى

بعد «غزل الحمقى» أفرد أبو الزبائد فصلاً للحديث عن مراثي الحمقى، مؤكداً على ضرورة إنصاف المغفلين ونشر مآثرهم ومفاخرهم. برهانه القاطع في ذلك أن نتاجهم ليس دون أدب أدعياء العقل والذكاء. بل انه يصف بعض نتاج غير الحمقى بأنه ضربٌ من ضروبِ الحماقة. ولكن أكثر الناس لا يعلمون.

يقول صاحب الفرائد:

بماذا يمتاز شعر العقلاء الأذكياء على شعر الحمقى المغفلين في أيامنا هذه؟ أليس من حق دور تفريخ المطبوعات ان تفرش لهم دروب الشهرة بالورود؟

أسئلة محيرة على العاقل (إن وجد لهُ مكان) أن يتقي شر الإجابة عنها.

عجباً لأدباء هذا الزمان: خمسون بالمائة منهم يخطئون في الإملاء. وسبعون في المائة فاعلهم مفعول وحالهم مجرور. وثمانون بالمائة شعرهم نثر وقصصهم هذيان.

فقيل له: ان المجموع مائتان في المائة. فقال: وإن شئتم زدناكم!

رثاء الحمقى؟ ولم لا؟ فعباد الله هؤلاء يموت لهم من الأهل والأحباب كما يموت لغيرهم. ومشاعرهم ليست دون عواطف أهل الحداثة. ولا لغتهم دون لغتهم.

قال شاعر أحمق يرثي صديقاً له ذاق الأمرين من حماته ولم يكن أحد يرثي لحاله في حياته:

انــــه كـــان محالا أن تــــرانــــا
كيف نبكيك سوى بعد مماتك
قد كفاك الدهر فخراً واعتزازا
أنك الآن بعيد عن حماتك

لقد أنقذته المنية من مخالب حماته. لكن المنايا متطرفة في تصرفها، فهي مثل كارلوس أحياناً:

خطفته يد المنية غدراً
كان خيراً لو مات دون اختطاف

ان الموت قضية وجودية في عالم الحمقى أيضاً. فهذا الشاعر المغفل يسأل سؤالاً شكسبيرياً معرياً في آن واحد.

كيف كنا نبكيك لو كنت حياً؟
فممات الإنسان يذكي العواطف

ان الشطر الأول يضع أمامنا قضية فلسفية علمية، وهي أن الشيء الواحد لا يمكن أن يوجد في مكانين مختلفين في آن واحد. (إلا إذا كان قد رضع حليب غول الحداثة!).

أما الشطر الأخير فانه يعيدنا إلى تلك القولة المأثورة الرائعة: «ان البذرة لا تنمو إلا إذا تعفنت في التربة المظلمة»، كذلك الموت يذكي العواطف.

بل إن شاعرنا الأحمق الآخر لينسف مشكلة «البحث عن الزمن الضائع» ليصدع بحقيقة «البحث عن الموت الضائع» قائلاً في رثاء أحدهم:

أنت لو مت من سنين لكنا
قد بكينا شبابك المهدورا

أجل ان الإنسان عندما يبلغ أرذل العمر لا يبكيه الناس مثلما يبكون فقيد الشباب!

أولم يكن من الأفضل لهذا الرجل الذي مات الآن أن يموت قبل ثلاثين سنة حتى يأسف الناس على شبابه؟!

هناك مراثي الحمقى التي تهتم بالجوانب الأخلاقية في الفقيد. يقول أحد شعرائنا مخاطباً المأسوف له وعليه مؤكداً على المدرسة الواقعية:

لم تكن لصاً ولا مفترياً
لا سفيهاً لا عديم الشرف

في حين يخطو شاعر آخر خطوة أبعد على طريق الواقعية مدعماً مشاعره بمثل حي من صميم الواقع:

أسفا قد خطفته
بغتة كف المنونِ
كان إنساناً شريفاً
لم يكن كالزنكلوني

أما شعراء المراثي الحمقى من المدرسة الطبيعية فإنهم أوضح ملامح في أدبهم من زملائهم في المدرسة الواقعية. فلأحدهم:

كنت في الناس هصوراً وتخيف السبعا

هذه جثتك الآن تخيف الضبعا

ويقول آخر من المدرسة الطبيعية:

قد عرفناه طيباً ونظيفاً

عابق الريح ليس مثل التيوس

إحدى المعجبات بمطرب قالت ترثيه:

لقد كنت كالديك تصدح فينا

وكنا حواليك مثل الدجاج

لكن أين قولها هذا من قول تلك الطالبة التي رثت أستاذ الآداب:

وكنت بليغاً كتيس يَنِبُّ

ونحن حواليك مثل المعيز

ولكم يتألم المرء عندما يقرأ هذين البيتين لأحمق يرثي صديقاً له من أهل الطرائف واللطائف:

إذا حضرت رأيت الناس في مرح

كأنك القرد في سرك إذا حضرا

واليوم لا يضحك الأصحاب من حزن

على رحيلك يا من يضحك البقرا

لكن كل ذلك ليس شيئاً إذا قيس بطلاوة المراثي ذات الطابع الـرومـانسي. تلك التي في ثناياها لمسات من الحب ومداعبات من الغـرام. فهـذا أحمق يـوصي صديقه الراحل بأن ينام مطمئناً لأنه سيقوم مقامه:

حتى حبيبتك التي خلفتها
سأحبها كيلا يكون لها فراغ

ويبلغ ألم الفراق بشاعرة حمقاء حد قولها ترثي حبيب القلب:

لقد كنت حبي ألذي ليس ينسى
فلما تواريت مات الهوى
سأبحث عن أي حب جديد
لأدفن فيه هموم النوى

لكن كل ذلك ليس شيئاً إذا قيس بهذه الشاعـرة العقـلانيـة التي تحسب لكل شيء حساباً، فهي لا تأمن حتى امكانية وجود أزمة سكنية في العالم الآخر. تقول لزوجها الراحل:

احجز القبر احتساباً
لصروف الزمنِ
ربما في القبر أيضاً
أزمة في السكن

قالت، فرد عليها زوجها في المنام قائلاً:

حجزت لك القبر فوراً، حياتي
تعالي إليّ وضمي رفاتي

عســــى اللـــــه يقبــل منـــي دعـــائـي

يمــد إلـــى الحشـــر عمـــر حماتـــي

قال أبو الزبائد:

إذا لم يكن ثمة رثاء للحمقى فإن علينا أن نخلقه!

حماسة الحمقى

أيجوز أن يكون للحمقى غزل ورثاء، ونستكثر عليهم الحماسة؟ هم أيضاً غيارى غيورون أغيار، تماماً مثل سائر الأبطال الأشاوس غير الحمقى الـذين لا يدعون شبراً سليباً إلا حرّروه، ولا يتركون موطناً للشرف والعرض إلا ذادوا عن حياضه بكل غالٍ ونفيس. فأبخس ما في سوق الوغى عندهم النفوس.

للحمقى حماستهم. وللمغفلين ملاحمهم. لهم ثأرهم الذي لا تدركه هـدأة أو غفوة أو كرى. ولهم البأس الذي لا يعرف اليأس.

لم يكن عسيراً على الشعراء الحمقى أن يهتدوا إلى أن بحر الحماسة هـو المتقارب: فعولن فعـولن فعـولن فعـول. فهـذه التفعيلـة تجعلك فـوراً تختطف سلاحك وتخوض غمار المعركة.

لقـد أبـدع الشعـراء، غير الحمقى، روائع حماسيـة في بحـور شتى. لكن المتقارب يبقى سيد البحور في أشعار ساحات القتال.

وقد أفرد أبو الزبائد فصلاً خاصاً لهذا الفن العظيم لدى الحمقى يقول:

إعلم، ذكّاك الله، أن الحماقة نسبية، وأن للحمق منطقه وحججه الدامغـة،

وأدلته الساطعة، وبراهينه القاطعة. حتى انك لا تجد أحياناً بين الحماقة والذكاء، والغفلة والألمعية سوى شعرة، تكاد تكون مجرد اختلاف في وجهة النظر. وفي هذا الباب يقول شاعر أحمق:

أدمّر أرضي بنفسي فإن
غزاني عدو رآها يبابا
ففيم البناء إذا كان خصمي
سيرشف كأساً ويشوي كبابا؟

مسألة وجهة نظر. فما يراه الذكي غاية الذكاء قد يراه الأحمق غاية الحمق. والعكس أيضاً صحيح.

من قال ان الكر أفضل من الفر؟ ولم لا يكون الاحجام خيراً وأحفظ للنفس العزيزة من الإقدام؟

يقول شاعر أحمق:

إذا كان أعداؤنا يفخرون
علينا بِكَرّ فخرنا بفرْ
إذا ما خلعنا النعال وطرنا
طوينا القفار بلمح البصر

ويستهزىء آخر، من فحول المغفلين، بلقاء العدو في ساحات النزال، مفتخراً بمآثر قومه:

تظل سباعهمُ في اللقاء
تكر وغزلاننا كالبروقْ

تمـــوت لهاثـــــــــــاً ذئابهـــــــــــــــمُ

فـــــلا السهـــــــم يجـــدي ولا المنجنيـــــــق

لكن، هناك الشعراء الحمقى الواقعيون. أولئك الذين لا يخاطرون في إقدام ولا يتهورون في إحجام. فهم يعدون للعـواقب العـدة الـلازمـة. ولا يستهينـون بالمعادلات. يرى أحدهم أن أفضل سبيل هو الإحتماء في سبيل درء ذل الهزيمة:

ألا حـــاشـــــــى تقـــاربنـــــا المـــذلّــــةْ

ففـي هـــــول الحـــــروب لـنـــــا مـظـلّـــه

ويذهب غيره إلى أبعد من ذلك. فهو يرفض أن تكـون القـوة التي يحتمي بها ضعيفة. أو ليس أدولف هتلر يقول: إن في الشعوب صفة من صفات المرأة. وهي أنها لا تستسلم إلا للرجل القوي؟

يقول شاعرنا الأحمق في ملحمته:

سنتـــــــرك أعـــــداءنـــــا فــــــي صـــــــراع

لـكـيـمـــــــا نُـزفَّ إلـــــــى المـنـتـصـــــــرْ

ولا لـن نـكـــــــون نـصـيـــــــب الـضـعـيـف

ولن نقبـــــل العيـــــــش بيـــــــن الحفـــــــر!

لقد تفنن الحمقى في سائر جـوانب الحماســة. حتى انهم درسـوا الخطط الحربية، وخبروا الحرب فناً وعلمًا:

حـبـكـنـــــا لأعـــــدائـنــــــا خـطـــــة

يصيـــــر بهـــا الفيـــــل مثـــــل الـــــجُعَلْ

وخطة أيوب خير سلاح
فبالصبر نقتل حتى الجبل
سيندحر الخصم شر اندحار
قبيل القيامة دون جدل
ألا هللوا لإنتصار عظيم
سيجعل هاماتنا كالقُلل

ولم تخف عن شعراء الحماقة الحماسيين مسألة طلب المساعدة مهما كان حجمها. فالمهم، تماماً مثلما هو الحال في عالم الأذكياء، ليس المساعدة أحياناً، وإنما صوت صاحب المساعدة:

أدرك ببغلك بغل النصر جحفلنا
عسى نساوي جميعاً في الوغى فِلْسا
فإن أبى البغل، لا همٌّ ولا حرج،
سنجعل الحِلْس في ساحاتها ترسا

وعندما تشمر الحرب عن ساق، وتكشر عن ناب، ويحمى الوطيس، وتلوح في الآفاق أشباح الهزيمة فإنه لا يبقى مجال للتبرير. يقول الشاعر الأحمق:

ومهما سبيتم لنا من نساء
فسوف يلدن لديكم أسودا
ويرضعنهمُ في الحليب انتقاما
وثأراً فتلقون بأساً شديداً

لكن الأمل هو القبس، هو الفجر الذي يظل دائمًا يبدد الظلمات في القلوب.

يقول شاعر الحماسة الأحمق:

يقـــول العـــدو بـــأنـــا انتهينـــا
فَشَرْ أيهـــا الخـــاسئـــون فَشَرْ

ستـــزحف حتى الحميـــر لـــدينـــا
مـــدججـــةً بقـــرون البقـــرْ

وصف الحمقى

للحمقى عالم لا تحيط به أفهام العقلاء، ولا تدرك مداه أذهـان الأذكيـاء. وإذا كان لهم في الغزل فنون، وفي الرثاء مذاهب، وفي الحماسة روائع، فـإن لهم في الوصف مشارب وبـدائع. لـذلك مـا كـان ينبغي لأبي الـزبـائد أن يستثني الوصف فلا يخصه بفصل في هذا الكتاب:

ولقد خصهم بفصل هم أهل له وهو أهل لهم. والمصنف يقول:

إعلم، لا أنقض الله ظهرك بالحماقة، ان للمغفلين فنوناً وصفية جـاوزوا بها الجوزاء.

يقول أحمق واصفاً البدر في بهائه وجلائه:

أيهـــا البـــدر أنـت رأس حـبيبـــي
قـطعـــوه وعـلقـــوه هـنـــاكـــا

لـــم يعـــد لـــي شـــوق إليـــه لأنـــي
كلمـــا شئـــت أن أراه أراكـــا

ولكن قلّ من الشعراء الحمقى من جمع مثل هذه الأوصاف التي، والحقُّ يُقال، جاء فيها بخلق عجيب:

وساقاكِ ساقا غزال عنيد
ولكنّ جيدكِ جيد الزرافهْ

فنعى ذلك عليه شاعر مغفل قائلاً:

وجيدك جيد الزرافه لكن
لسانك دون لسان الزرافهْ

وقال آخر يصف ظبياً:

غزال في رشاقته
ككرسيّ له رقبهْ

والغريب أن صورة الغزال والظبي والرشأ والمهاة لا تغادر قرائح الشعراء الحمقى تماماً مثلما هي تلازم قرائح العقلاء الأذكياء، تأمل هذا الوصف:

أنت والله غزال شاردٌ
إنما من دون ذيلٍ وقرون

لقد أنعم الله على هذا المحبوب بأن جعله كالغزال الشارد، وحتى يكون في حِمىً من غوائل الصيادين أراحه الله من الذيل والقرنين، فلا يكون هناك مجال للخلط واللبس.

ومن مبعدات الإلتباس قول آخر:

إذا ما تهاديتِ فاحت طيوبُ
وإما ضحكتِ فنعم النيوبُ

وليس هذا مما يرقى إلى قول القائل:

وأنيـــابٌ لـــــو أن الـــدهـــر يصفـــو
تظـــل العمـــــر تنهـــش لـــي عظـــامي

ولم يكن الوصف لدى الحمقى ليقتصر على الأحبة فقد ذهبوا فيه كل مذهب. يقول مغفل وهو يصف عيني الممدوح:

عينـــاه ثـــاقبتـــان فـــي نظـــراتـــه
فكـــأنـــه الثـعبـــان حيـــــن يحدقُ

واستهجن هذا أحد فحول شعراء الحمقى فقال:

إذا حـــدقتْ عينـــاه ينصعق الـــورى
فعينـــــاه كشـــــاف، ومن ذا يحدق؟

ومن شدة الإنبهار ما يعطل اللسان. فقد أراد شاعر مغفل أن يصف عظمة البحر في ترامي أبعاده وآماده، فقال:

بحـــرٌ خضـــمٌ مـــا لـــه ســـاحـــلُ
كـــأنـــه ....

ولم يدر كيف يكمل البيت، فأنجده آخر بقوله:

كـــأنـــه صحـــراء من مـــاءِ

فقال فحل الحمقى: ليس هذا بليغاً، قل:

بحـــر خضـــم مـــا لـــه ســـاحـــل
قفـــرٌ عظيم كلـــــه مـــاءُ

ورأى مغفل وردة ممزقة فقال:

وردة قد مزقوها
أولعتني ولعاً

خلتها قلب حبيبي
قطعوه قطعا

هل تدري، لا حمّقك الله، كيف يصف الشعراء المغفلون الدجى إذا سجى:

وليلةٍ حالكةٍ
نجومها بلا قمرْ

مثل لحاف أسود
ملحٌ عليه قد نُثِرْ

ولا تتصور أن الحمقى لم يبهروا بما أبدعه العلماء. فهذا يقول في مركبة فضائية:

مركبة في جوّها سائرهْ
كأنها مئذنة طائرهْ

وقد بزّه شاعر أحمق آخر في وصف الصاروخ:

كشمعة عملاقةٍ
من أسفل مشتعلهْ

وتبقى الذكريات والحنين في صدارة الأوصاف. فليس كمثل الحب شيء،

لدى الحمقى كما لدى العقلاء الأذكياء:

يـــا نـخلـــة ذكــــرتـنــــــي
بــقـــــــــد ذاك الحـبـيـبِ

فــبــتُّ مــثـــــــل غـــــــراب
أبـكـي بــــــأشـجـى الـنـعـيـب

يقول شاعر أحمق يصف فرع العشيقة:

لامــــس الأرضَ فــرعُهـــا إذ تـــدلّـى
فـــــي دلال كـــأنـــه خـــرطـــومُ

فعاب عليه شاعر مغفل كبير ذلك مصححاً:

قـــد تـــدلّـى فـــرعُهـــا النـــاعمُ حتـــى
صـــار خـــرطـــوم حـــريـــرٍ يتـــدلّـى

فعاب عليهما فحل شعراء الحمقى ذلك منقحاً:

حيـــــن ألقـت فـــرعَهـــا مختـــالـــةً
صـــار خـــرطـــومَ حـــريـــر مـن وراءِ

قال أبو الزبائد في نهاية هذا الفصل:

لله در الحمقى، فلولاهم لما عرفنا كيف يمكن التوفيق بين الأصالة والحداثة.



شعر الحمقى

• للأستاذ حسيب كيالي

هذه قصيدة لأستاذنا حسيب كيالي قالها في أشعار الحمقى التي وردت في جمهوريتهم. وقد أبدعها وهو في سرير وعكة صحية. سلمت ساقه:

ما ألطف الشعر الذي قوَّل
الحمقى أخو الألطاف عبداللطيفْ!
قرأتُهُ والساق مرفوعةٌ
لا دلعاً لكنْ لأمرٍ مخيفْ
دمّلةٌ في الساق مشؤومةٌ
كأداء كادت أن تصيب الوظيفْ
طُرحت منها فرشة بعد أن
طُرحت في الشارع فوق الرصيفْ

هـأنـذا فـي التـخـت لا يـرتجى
منـي، مـع الأوجـاع، رأيٌ حـصيـفْ
كـأنـني، مـن شـبـح، خـطـرة
أو ريـشـة فـي هبّة مـن شـفـيـف
أو أنـني الحـفـيـف فـي دوحـة
خـلّصـهـا مـن الـثـيـاب الخـريـفْ
عُصـافـةٌ لا مـسـتـقـر لهـا
تـلـهـو بهـا أدراج ريـح عـصـوفْ
لـكـنـنـي عـصـافـة حـيّة
مـا زلـت والـبرهـان أني نـزيـفْ!
أوجـاع سـوء لـم يـذق مثـلهـا
أيـوب فـي محنتـه أو سـزيـفْ
مـا أوهـنـت مـن جـسـدي وحـده
فـالعقـل لاقى مـن أذاهـا الـصـروفْ
عُـدتُ كضـرس العقـل لا نفـع لـي
أو «فـشـة» المعـلاق عـنـد الخـروفْ
لا عـمـلٌ أسـطـيـع إنـجـازه
غيـر قـريض مثـل هـذا الـسخـيـفْ

فكرت في المغزى: إذن أعذب

المنظوم ما يوحى لعبد ضعيفْ

وأشعرُ الأنام مرضاهمو:

الشدو فخم والمغني طفيفْ

ما خلق الشاعر إلا بما

صيّره الإسفاف مثل السفوفْ

ويبلغ الشعر الذرى حينما

يصدر عن عقل شرود خفيفْ

فإن تُطل دمّلتي مكثها

أبزَّ في الأشعار عبداللطيفْ

أشعار حمقاه على حمقها

طافحة بكل معنى طريفْ!

دعاء

ربّنـــا...

يسر لنا تعادل العرض والطلب

ولا تلجئنا إلى صندوق النصب الدولي

ولا تثقلنا بالقروض الخارجية

ربّنـــا...

إنا نسألك ميزانية بلا عجز

وأسواقاً بلا مافيا

واقتصاداً رشيداً... لا ترشيد إنفاق

ربّنـــا...

ادرأ عنا الشيكات بلا رصيد

والإعتمادات التي لا يُعتمد عليها

والإحتيال التجاري

ربّنـــا...

جنبنا التضخم

وادرأ عنا تعويم العملة

وقِنا عذاب بنوك مصاصة للدماء

ا الحيوانات المشؤومة

قال أبو الزبائد في هذا الفصل:

حديثي هنا ليس عن تلك الحيوانات المشؤومة التي عرفها التاريخ. فلا أنا هيرودوتس ولا الجبرتي. لا أنا عبدالرحمن بن خلدون ولا أرنولد توينبي... فلا ينصرف ذهن القارىء الطيب إلى أنني أقصد بالحيوانات المشؤومة فيلة أبرهة الحبشي، التي تحدّت إرادة الله في بيته، **﴿فأرسل عليهم طيرا أبابيل، ترميهم بحجارة من سجيل. فجعلهم كعصف مأكول﴾**.

أبداً! ما دخل أصحاب الفيل اليوم؟ فديارنا آمنة. القطعان هائمة سائمة. والرعيان نائمة حالمة. والحمد لله. لا منغص ولا مكدر.

أما أعداؤنا فليس لهم طائرات أبابيل حتى يجعلونا بها كعصف مأكول. زد على ذلك أننا لسنا غزاة أصلاً. أجدادنا كانوا فاتحين. أما نحن فلا نريد سيوفاً ولابنادق. نريد السلام. بالزيتون والحمام. والسلام.

ولا ينصرف ذهن القارىء الطيب إلى أنني أعني تلك الناقة المشؤومة، البسوس، التي دفعت العرب إلى الإقتتال أربعين عاماً.

خذ مثلاً: منذ احتلال فلسطين إلى اليوم، لم يقتتل العرب إلا لماما «على الخفيف». مناوشات بين الأشقاء في شمال افريقيا. شؤون منزلية خاطفة في اليمن. يوم أسود هناك. شهر أسود ها هناك. أطول حرب لم تدم أكثر من كذا عشر عاماً في لبنان. وها هم بـ «عون» الله على وشك إنهاء لبنان. وتنتهي المشكلة إلى الأبد.

واللبنانيون، ما شاء الله، منظمون مهذبون، فمنذ كذا عشر عاماً وهم يذبح بعضهم بعضاً، دون أن تفلت مقاليد الأمور من أيديهم أو تتسرب قيد أنملة إلى الخارج. مهمة الناس إذن التفرج أو غض النظر!

حضارة فينيقية عريقة. والحقُّ يُقال!

ولا ينصرف ذهن القارىء الطيب إلى أنني أقصد جمل السيدة عائشة، الذي كاد يفني العرب في وقعته الشهيرة.

فليأكل الحاسدون بعضهم بعضاً كالنار، إن لم تجد ما تأكله. فالعرب اليوم لا يفنيهم جملٌ ولا حتى جبل. بإمكان الجمل أن يقتل فرداً في حوادث المرور الخليجية، أما أن يأتي على العرب، فالجامعة العربية، سلمت يدها، ليست نائمة إلى هذا الحد! والدليل القاطع والبرهان الساطع تلك الأكوام المكوّمة، والأكداس المكدّسة، من التقارير الحاسمة منذ تأسيس الجامعة. والعبد الفقير يقترح على الحضرات جمعها في سفر يسمى «سفر الجامعة»! والله ولي التوفيق!

فلا ينصرف ذهن القارىء الطيب إذن إلى أن المقصود تلك الكلبة الرعناء، براقش، التي جنت على أهلها.

سذاجة أن يتصور المرء مثل هذا الأمر في عهدنا الزاهي الزاهر هذا.

نحن أمة تداركها الله؟ نعم، بلى، أجل، لكن، لا إلى هذا الحد. ثم إن عهد براقش قد ولّى. فنحن تحرسنا وترعانا عيون كلاب الأقمار الصناعية، لا ذوات الأذناب النباحات في الأرض. اليوم، براقش في السماء. كلبة الكترونية

كمبيوترية. ونحن ننام هانئين تماماً مثلما كان ينام أهل براقش!

ولا ينصرف ذهن القارىء الطيب، إلى أن المقصود البوم أو غراب البين.

لا بوم في ليالينا ولا هم يحزنون. فالعالم العربي كله يغني كل ليلة: هـذه ليلتي وحلم حياتي... ولا يوجد شخص واحد ينوح نواح أبي الطيب: ليـالي بعـد الظاعنين شكول!

أما غراب البين، فموضة قديمة. نحن اليوم تطورنا وقلبنا المفاهيم البالية.

أي غراب بين؟! نحن اليوم لدينا: غراب القرب... غـراب الكمب... كمب ابن الكمب! لقد قرّبنا ما كان بعيداً. وحلّـلنا كل محرم. وجعلنا المحال حقيقة مكشرة عن أنيابها المتقطرة دماء من فلذات الأكباد.

خسىء الذين يقولون إننا لسنا عباقرة!

فلا ينصرف إذن ذهن القارىء الطيب إلى أنني أشير أو ألمح إلى حصـان طروادة. فليس بيننا وبينه من صلة سوى الثلاثي (طرد) فنحن المطرودون من الأرض. المطاردون في كل مكان. فوقنـا المطـاردات. وخلفنـا الطـرادات. وتحتنـا الطرود الملغومة. والخيل لنا وتجشم الطراد لأعدائنا لا لنـا، هم الـذين يشنـون المغار. وعلينا لزوم الغار.

نظرتنا جمالية بحتة. فالغزال أرشق من الجواد. وصدق القـائل: «أخـاف على فخّـارتي أن تهشما»!

فماذا عن الخيول التي ملئت نفطاً وأعدت لفيلة الإسكنـدر المقـدوني. فما أن لفت خراطيمها على رقاب الخيل المشتعلة من الداخل حتى ولّـت هاربة داكـة فوارسـها دكاً دكاً؟

لا ينصرف ذهن القارىء إلى مثل هذا التصور، فأولئك الذين جعلوا النفط سلاحاً قبل ثلاثة وعشرين قرناً، جهلة ليس لهم ولا حتى ذرة إدراك لتعقيـدات

الأمور في عصرنا.

تصور سيادتك، لو تأكد لنا أن إسرائيل ستضربنا فحشدنا لها جيشاً عرمرماً من الخيول الفولاذية وأشعلنا النفط في بطونها، في انتظار الفيلة الإسرائيلية.

مهزلة، والله! ما بعدها مهزلة!

إذن، إتفقنا على أن النفط لا يصلح كسلاح في هذا العصر الذهبي!

ماذا بقي من الحيوانات المشؤومة؟

كليلة ودمنة؟ لا ينصرف ذهن القارىء الطيب إلى مثل هذه الأمور. فلا مؤامرات في الغاب العربي. كل شيء مرتب ومنظم على أحسن ما يُرام. من يفتح فمه هكذا أو هكذا يلقم حجراً.

أساساً، لا يجد الفرد، الطامع في أن يصبح كليلة أو دمنة، حرية تنقل تسمح له ببث سمومه التي يلونها بألوان حرية التعبير.

هناك رأي واحد في الغاب: زئير ملك الغاب! إلى أن يُقال: غاب! فيكون غيره قد حضر. والحبل على الجرار، والملك للواحد القهار.

القطة السوداء يتشاءمون منها، يتطيرون؟ لا ينصرف ذهن القارىء الطيب إلى القطط.

تأمل ما أسعد أيامك. تصحو من نومك، تفتح جريدة أو تضغط على زر المذياع، فينساب شلّال الأخبار يغمرك بالسعادة. يحملك بعيداً إلى عالم يحده ماء من هنا وماء من هناك. مترامي الأطراف. ليس به حدود تستطيع أن تتنقّل فيه بغاية السهولة فأنت مواطن أصيل في كل شبر منه وما دون الشبر. معرض رائع يغزو العالم بكل جديد مبتكر. صناعات متطورة، آداب راقية، فنون ساحرة...

بإيجاز أحلام وردية، تستيقظ منها وكـأنك خـارج من كيلـو هيروين في شمة واحدة! تتساءل: هذه أخبار أم قصص من الخيال العلمي؟!

أما الحيوانات المشؤومة من قبيل الخفافيش المغرمة بمص الدماء، فأعـوذ بالله.

حذار أن ينصرف ذهنك إليها. حذار.

تتساءل في النهاية: لماذا كتب أبو الزبائد كل هذا الكلام إذن؟

يجيبك ببساطة: مجرد نفي وتكذيب لما يمكن أن يتردد في الأذهان. لا قدّر اللـــه.

افريقيا

أصل كلمة افريقيا «أفريقاً؟» في حالة الإستفهام.

ومردّ ذلك إلى أنّ أهـل هـذه القـارة ظلّـوا يقـولـون لكـل استعمار يحكم قبضته على مساكين هذه القارة: افريقا تعذبون وفريقا تقتلون؟ افريقا تجوعون وفريقا تشـردون؟ إلـى أن أصـبح أهـل الفرنجـة يطلقـون عـلى القـارة اسـم «افريقا» (AFRICAN) ثم أصبحت (AFRICA) ، قال الشاعر:

أفـــريـقـــاً انـتـمـــو عـــذبـتـمـــو

وفـــريـقـــا دون ذنـب تـقـتـلـــون؟

مدينة النحو

حدّث أبو الزبائد قال:

يسرني دائمًا أن أزور مدينة النحو. مدينة عريقة. بُنيانها شامخ وأرجاؤها فسيحة. والعلاقات بين أهلها واضحة في أغلب الأحيان. ومع ذلك ترى الكثير من الناس لا يعرف حتى أين توجد.

مدينة النحو لا تشبه بانكوك أو هامبورج، رغم كثرة «الشواذ» فيها. لكن «القاعدة» راسخة.

سكانها يعرفونني وأعرفهم. منهم من لا أعرفه إلا بالوجه. فريق معارف وفريق نكرات. ككل مدينة.

أمرُّ بالفعل، الصحيح لا المعتل، أحييه لشدة الشوق إليه. أعاتبه: لماذا غبت عنا كل هذه السنين... وتركت الساحة للأفعال المعتلة؟ قلوبنا ليست من حجر حتى نطيق هجرك. فعندما تتوارى، أيها الفعل الصحيح، تظلم الدنيا في عيوننا، وتجثم على صدورنا كآبة خرساء. نحن جملة بدون فعل. فكم تستطيع أن تدوم جملة بغير فعل؟ إلا كدوام وضع قائم على حراب البنادق!

أما الصرح العتيد، فيُشاد من قواعد راسخة. من خرسانة العدل واسمنت الإخاء المسلح وأعمدة الحرية الشامخة. والصرح التاريخي لا يكون أبداً مبنياً للمجهول.

ينظر إلــيَّ الفعل نظرة خاطفة، ثاقبة، كنظرة الشاهين معناها: «أتريد فعلاً بغير فاعل؟».

أمُــرُّ بأحياء المدينة أبحث عن الفاعل، فإذا هو بعيد عن الجملة... بعيد. يا إلهي! هو ذا الفاعل تحاصره جحافل لغوية هائلة من حروف الجر وأدوات النصب.

لماذا ابتعد الفاعل عن الجملة؟ وإلى أين كل هذا الجر؟ ولماذا كل هذا النصب؟ أوضاع الاعراب مريبة!! حرف جر صغير يجر مدينة وتاريخاً وشعباً؟!

مدينة النحو تغيرت. وشابت وما شاب الزمان الغرانق. فمن المؤسف أن تشوه علاقات الاعرابِ إلى هذا الحد! عجباً! حروف الجر الضاربة بالجزم تصبح نائبة الفاعل؟!

أقول كلمتي وأسير، مكتوف اليدين إلى الوراء كالأسير. فأنا متفرج جيد، والمدينة متحف أين منه عجائب الدنيا؟!

لا احتاج إلى نظاراتي لأتعرّف على المفعول به. فمن بعيد لاحت لي الفتحة الظاهرة في آخره. كائن عجيب. راضٍ بما يفعلون به. لا يشكو ولا يبكي. لكنه شخصية لا تخلو من الطرافة. بل إنك إذا حاورته وجدته على جانب من الحكمة.

حذار أن تقول له: كيف صرت المفعول بك؟ فإنه يمطرك بخطبة رنانة في ضرورة الرضى بالجبرية. وان ذلك هو ما قسم له. وان اعتقاد الفرد بمسؤوليته عن وجوده ومصيره خيانة عظمى للمبادىء السامية. وتمرد على الدساتير والأقانيم والقوانين والأعراف!

أما إذا جئته في لحظاته الرومانسية ووجدته في مجلس أنس مع بعض الحالات الشاذة أجابك في غنج ودلال:

ـ أنا المفعول بيه. أنا المفعول باشا بيه!

فليس لك إلا الإنصراف. فمن الصعب أن تقلب العلاقات النحوية رأساً على عقب. وأنّى لك ذلك وأنت لست مذيعاً؟

ليس مستحسناً التوقف كثيراً عند المفعول باشا بيه، فقد بلغني أن محيط المفعولات غير سليم.

هو ذا المفعول فيه تسأله:

ـ ما الذي فعلوه فيك؟ لماذا أنت هكذا ذليل كأنك عَيْرُ الحي الذي قيل فيه:

«ولا يقيم على ضيم يُراد به
إلا الأذلّان عير الحي والوتدُ
هذا على الخسف مربوط برمته
وذا يضام فلا يرثي له أحدُ»

ـ يجيبك بكامل الإستكانة:

ـ الحمد لله على أنني لست المفعول المطلق! فذاك قصة عجيبة. المفعولية دينه وديدنه. هو يعتبرها رسالة يضطلع بها. لأنه أصلاً يؤكد الفعل بكل فخر واعتزاز.

قلت: حنانيك... حنانيك أيها المفعول فيه. أوضح.

قال:

ـ المفعول المطلق كائن ماهر في المزايدة. تصور أمة تُصاب بنكبة، نكسة، هزيمة، فإن المفعول المطلق يكرّس ذلك الفعل العدواني على أمته!

لكنك إذا سألته عن فلسفته في هذا السلوك أجابك:

ـ ظروف الزمان والمكان هي المسؤولة! وجان جاك روسو يقول: الإنسان طيب بطبعه والمجتمع يفسده. كذلك المفعول طيب بطبعه والجملة تفسده. بدليل انه بمجرد انفصاله عن الجملة تزول عنه المفعولية. فيمكن أن تراه مع جمع المذكر السالم أو جمع المؤنث السالم. ويمكن أن يتحول إلى عَلَم شهير يشار إليه بأسماء الإشارة.

لك أن تردّ عليه في هذه الحالة بقولك: عندما ينفصل عن الجملة ينطبق عليه بيت أبي الطيب:

«وإذا ما خلا الجبان بأرض
طلب الحرب وحده والنزالا»

من بين كل المفعولات هناك واحد فقط نجا من وصمة عار المفاعيل. لكنه وصولي حقير. ذلك هو المفعول لأجله. قلت له:

ـ لماذا فعلوا كل هذا لأجلك؟ وكيف تميزت عن سائر المفعول بهم وفيهم والمطلقين؟ قال:

ـ أنا أعرف من أين تؤكل الكتف. هات أذنك:

إذا أراد الفرد الوصول وأن يصبح الإسم الموصول، فلا بد من همزة وصل. فقد كنت واحداً من المفعولات لكنني أقمت علاقات وثيقة مع العزيزة كان وأخواتها والحبيبة إن وأخواتها. وهن أوصلنني إلى الفاعل. فصار يشملني «بالعطف» وجعل لي في «المعية» مجموعة تخدمني من حروف الجر وأدوات النصب. وطالبت فيما بعد بأن يكون لي «جمع تكسير» وهكذا تحسن «الحال»

وصرت «المستثنى» و«البدل» بل ونائب الفاعل.

قلت له: ويحك هذا هو «التمييز» بالنسبة والعدد في الوقت نفسه! أنت حقاً من أهل «الإختصاص» ولا أجد لك أي «نعت».

تركت المدينة. فابن الرومي يقول: «من أوحشته البلاد لم يُقِمِ».

قال أبو الزبائد:

مدينة النحو تقع في قارتين. فاعلها ممتنع عن الفعل. ومفعولها لا يدري من أوقع عليه الفعل. وقد اتخذ أهلوها شعاراً، كان حقاً وأرادوا به باطلاً، من قول أبي العلاء:

«ألا في سبيل المجد ما أنا فاعل».

فقد جعلوا ما نافية. لكنها عندهم غير نافية «للجنس»!

رأس الحكمة

قيل: نصف العرب أمّيون. فقلنا:

سـاد آبـاؤنـا الـوجـود بـعـلمٍ
فـلـنـجـربْ بـالجـهـل كـيـف نـسـودُ

صـاحب العقـل بـالمعـارف يشقـى
وأخـو الجـهـل «رائق» وسـعـيـدُ

نـصـف سـكّـانـنـا بـغـيـر حـروف؟
هـذه نـعـمـةٌ فـأيـن المـزيـدُ؟!

في التقدم والتقدمية

أليس غريباً أن تسكت شهرزاد التقدمية عن الكلام المباح؟ مكانها خال. فقد كانت الخرافة التي هدهدتنا بها الأنظمة طوال عقود، بمعسول الوعود وحتميات التاريخ.

كنا في كل يوم قاب قوسين أو أدنى من الإلقاء بأعدائنا في مزبلة التاريخ. وإذا بنا لا نخشى شيئاً غير أن يُلقى التاريخ برمته في المزبلة!

لك أن تتساءل: هل التقدم في حد ذاته مصطلح أجوف، نسبي، فضفاض، شغلوا الشعوب به عقوداً ثم ماتت موضته؟

هناك شعرة مهمة وهي المسافة التي بين التقدم والتقدمية. فالرأسماليون لا يؤمنون بالتقدمية وإن كان التقدم ديدنهم. في حين لا يخفي بعض مفكري الغرب الساخرين، إشفاقهم على المتحمسين كثيراً لمثل هذه المصطلحات النسبية. فالتقدم كالتطور لا يعني شيئاً جيداً بالضرورة. خذ مثلاً تطور الداء. وقس على ذلك تقدم صناعة الأسلحة النووية والجرثومية والكيمياوية... وصناعة المخدرات...

السؤال المحرج هو: هل تستطيع أن ترمي مئات الملايين من البشر بأنهم مصابون ببلاهة جماعية، قل بغيبوبة ذهنية، لفترات تُقاس بعشرات السنين؟

الكتلة الإشتراكية برمتها، أضف إليها افريقيا وآسيا وأميركا اللاتينية، بإيجاز، ثلاثة أرباع العالم كانت طوال عقود تردد بحماقة ليل نهار أساطير التقدم والتقدمية، دون أن تدرك ولو للحظة، أن الحكاية وما فيها كلام فارغ وطق حنك!

ماذا يعني أن تكون واقفاً مكانك عشرات السنين، ومن حولك أصوات توهمك بأنك تتقدم؟ بماذا تصف نفسك إذا صدقت؟ اختر الصفة اللائقة دون غش. ولا تقل لي إنك ستظل واقفاً على رجلين فقط!

التقدم واضح في البلدان الإشتراكية سابقاً والكثير من بلدان عالمنا العربي!

عدا بضعة شوارع، لتغيير المذاق، تدخل القرون الوسطى من أوسع أبوابها. وفوقها تفتيش العقائد.

إذا كان ذلك تقدماً مضاداً، فهم على حق. فالواضح أن المصطلحات هي من قبيل أسماء الأضداد.

لا شك في أن العرب كانوا منذ الجاهلية مغرمين بأسماء الأضداد. حتى اللديغ كان يُسمى عندهم سليمًا، تفاؤلاً. وإلى الآن ندعو الضرير بصيراً...

لنا إذن أن نفهم التقدم والرخاء والإزدهار وما إليها من هذه الزاوية الضدية.

ها هي الموازين انقلبت وانهار كل البنيان المصطلحي القائم على الأسس الماركسية بمختلف مستوياتها وتطبيقاتها وادعاءات تطبيقها. وانكشفت الهياكل العظمية للأنظمة وتعرت الشُجيرات، فإذا هي بضعة عيدان متشابكة يابسة. ولم يبق شيء راسخ سليم في التقدم والتقدمية سوى الإشتقاق من القدم.

مكسيك

لأصل هذه الكلمة قصة. فالأوائل الذين حلّوا بتلك الأصقاع نزلوا بأرض لا زرع فيها ولا ضرع. فتخوّف معظمهم وأرسلوا إلى رئيسهم رجلاً وجيهاً ينصحه بشد الرحال إلى أرض أخرى فارتجل الرئيس فوراً:

مُكسيك ربُّك إن عريتَ فلا تَحَرْ
أو جُعتَ فهو الواهب الرزّاقُ

فسمّيت على ذلك وقيل لها: مكسيك

مناكيب الفيضانات الثقافية

هكذا اقتحم المصنّف هذا الفصل دون مقدمات:

الدكاكين الثقافية تصيبني بالإكتئاب. متى ما دخلت أحدها ضاق عليَّ خناق. وكدت أخلع نعلي وأولي الأدبار هارباً مثلما يفعل الجنود الصناديد في معارك المصيرية.

في الدكاكين الثقافية، لم يدع الأول للآخر من كلام فارغ. حاول أن تأتي بهراء لم يهتد إليه أحد من طوابير المثقوفين، منكوبي الفيضانات الثقافية.

طابور النمل متعة غريبة! نملة طائرة بهجة بجناح ذبابة... وأخرى سكرى فرحاً بقطعة من رجل صرصور. كل نملة بما لديها فرحة. تحسب نتاجها ذخراً وفخراً للعالم النملي بأسره!

أما في المحلات التجارية الكبرى، وحتى في أصغر بقالة، فيا ناعمًا! أمد رجلي، ولا أفكر في شيء غير الوحدة العربية.

من علبة الطماطم إلى السجائر، حفّاظات الأطفال وحليبهم، الكبريت، مربّى، الأقلام، المصابيح الكهربائية...

في لمح البصر تتحول حفّاظات الأطفال إلى قضية عقائدية، نظرية وحدوية شاملة. وكذلك هرّاسة الثوم والبخاخ المبيد أو المعطر.

قبل كم سنة اكتشفت الكهرباء؟ عيب أن أجيب أنا.

إسألوا الليبية!

لا نزال في العصور المظلمة. لم نستطع بعد أن نسد حاجة العالم العربي إلى المصابيح الكهربائية، التي لا توجد فيها أسرار نووية ولا خوارق كمبيوترية. لذلك نستوردها.

والأقلام؟: منذ خمسة عشر قرناً، أقسم الله بالقلم! لكن هذه المدة غير كافية لصنع أقلام عربية في العالم العربي. لذلك ظللنا ننتظر أن تستيقظ الصين، وتضمن لكل صيني جفنة أرز يومياً، وتأخذ راحتها في إنشاء الصناعات من الإبرة إلى القنبلة الهيدروجينية، حتى نستورد منها الأقلام لأطفالنا!

وحتى نكون قد جمعنا مجد الإستيراد من أطرافه، أمرنا السويد، في أقصى شمال الأرض، بأن تصنع لنا الكبريت.

كم من كيلومتر بين الصين والسويد؟ عيب أن أجيب أنا. إسألوا الليبية!

بخ، بخ... لقد سخرنا المشارق والمغارب. قال الشاعر:

«قد جمعنا المجد من أطرافه
قلم الصين وكبريت السويد»

وتسألني بعد ذلك كيف يتحول الكبريت لديّ إلى قضية عقائدية؟

أنا أربط الأمور بحبال المنطق: الكبريت من السويد. والسويد بلاد الديناميت... بلاد نوبل... ومن نوبل استوردنا نجيب محفوظ أيضاً! نجيب هو الآخر شعلة!

من منا أطلق على محفوظ، قبل نوبل، صفة العملاق؟ الآن وبقدرة قدير، أصبحنا نأسف لأنه لا يوجد في العربية وصف أطول من العملاق. ماذا نقول؟ هل نصف نجيب محفوظ بأنه كالمركز التجاري في دبي؟ أم أنه كناطحة السحاب؟

نحن لا نطالب المخ العربي بأن يصنع طائرة نفاثة أو قمراً صناعياً أو منظاراً الكترونياً أو مجهراً ذرياً... كل ما نريده هو أن يصنع على الأقل سمومه بنفسه... ألا يدع حبل التبغ الجيد على غارب الأميركان.

نحن نستورد السوبرماركت قلباً وقالباً... من الإسم فصاعداً... وما فيه فنازلا... واحداً ثم واحداً!

حتى العقل الذي نستورد به هو الآخر مستورد... لذلك أشعر بحاجة ماسة إلى مخ آخر، يرفض الإستيراد، حتى ولو كانت الواردات هواء أو ماء.

والآن أيهما أثقل ذنباً، من يستورد علبة أناناس من الصين تفقد صلاحيتها بعد ستة أشهر، أم من يستورد مدرسة أدبية أو فنية انتهت صلاحيتها منذ سنين؟

أيهما أبعد عن النخوة، ذلك الذي لم يفكر في توفير معجون الأسنان لنعالم العربي بأسره، أم من يلبس في كل يوم مسوح مدرسة نقدية مستوردة؟ ويسلط نظرياتها وتهويماتها، على أدبنا طارفه وتليده؟

علينا أن نرثي لحال المثقوفين، مناكيب الفيضانات الثقافية الغربية (أنا لا أسميهم منكوبي الفيضانات الثقافية. لأن وزن مفعول يجمع على مفاعيل).

تصور، كم يكون الفرد مسكيناً إذا هو أغرقه في عام ١٩٨٩ سيل نزلت أمطاره في عام ١٩١٩؟

تصور أن يأكل الجد وجبة قبل سبعين عاماً، فإذا بالحفيد يمرر يده على بطنه ويتلمظ قائلاً: وجبة لذيذة!

تخيل تياراً فكرياً أو نقدياً يثير ضجة عارمة قبل سبعين عاماً، ويطوى ملفه، ويمسي سطراً أو سطرين في قاموس، وإذا بنباشي القبور الثقافية يعرضونه على أنه آخر صيحة! مثلهم كمثل الدكاكين الغشاشة التي تعرض بضائع منتهية الصلاحية وتقدمها تحت شعار «وصل حديثاً».

على الوسط الأدبي، في كل بلد عربي، أن يكون له قسم رقابة صحية، مثل البلديات. ومتى عثر أحد على علبة شعر فاسدة، أو أقراص قصصية انتهت صلاحيتها، استنجد بقسم الصحة الثقافية أو بالدفاع المدني الثقافي.

البقالات أكثر الهاماً من الدكاكين الثقافية.

ما رأيك في أن نسمي الدكاكين الثقافية: ثقّافات، مثل بقّالات، تيمناً؟! والواحدة ثقافة بتشديد القاف. وتصبح ربة البيت تقول لابنها:

«إذهب إلى الثقّاف واشتر لنا بدرهم باقة شعر بلا جذور. ودرهم ونصف قصصاً قصيرة، وقل له ينظفها لك. وخمسين جراماً تأملات ناعمة»!

قد يكون رأيك أن نسمي الدكان الثقافي: مثقفة.

مثل منجرة، مصبغة، مذبحة، مهزلة.

وقد يعترض أحدهم لأن الصواب في نظره هو: مُسْتَثْقف. مثل مستوصف، مستشفى.

بالمناسبة: المستوصف مذكر أم مؤنث؟ إذا كان مذكراً فلماذا يؤنث البعض المستشفى؟ هل يصل بنا الشغف بالأنوثة إلى هذا الحد؟!

مناكيب الفيضانات الثقافية، أرثي لحالهم أحياناً إلى حد الدعاء لهم بدخول مستشفيات الأمراض العقلية.

لكن، سرعان ما أندم على هذا الدعاء، خشية أن يكون لهم ذلك فيحسبهم

الناس عباقرة. وهؤلاء المساكين أبرياء من هذه التهمة المغرضة!

الرأي السديد هو أن تعين لمناكيب الفيضانات الثقافية إعانات من مؤسسة يكون إسمها بإذن الله وعونه: «وكالة غوث مناكيب الكوارث الثقافية».

فيعطى المنكوب طحيناً وجبناً وبطانية وشيئاً من زيت كبد الحوت... ويطعم ضد الكوليرا، ويوقى ضد البلهارسيا والملاريا.

مساكين! شردتهم الفيضانات الثقافية وأبعدتهم عن أحيائهم ومدنهم. أصبح التشرد لديهم هو المدينة والإغتراب هو الأهل والأحباب... والإنفصام هو العودة إلى الذات!

مصيبة المصائب هي أنه مع كل هذا لا يخرج منهم لا مجنون مثل نيتشه أو فان جوخ. ولا من يسجل نقطة إيجابية في حياته بإحراق ما كتب مقتدياً بأبي حيان التوحيدي... ولا من يطلِّق الأوراق والأقلام ويلقي بنفسه إلى أدغال إفريقيا مثل رامبو.

هم مضربون إضراباً تاماً عن الإقتداء بالعظماء والكبار لا في الخير ولا في الشر.

مناكيب الفيضانات الثقافية كالإناء المسطح لا يقوى على استيعاب السيل العرم العرمرم. تغرقهم أدنى موجة أدبية أو فنية أو فكرية قادمة من أي مكان من العالم.

فهل هم في مستوى النهوض برسالة الأمة؟!

تدور رأسي فجأة لهذا السؤال، يكبر الدوار، يتعاظم الدوران.

أصرخ: لتذهب كل البقالات والمستثقفات إلى حيث ألقت رحلها أم سفينة فضائية.

في كل دورة فكرة بحجم العالم العربي:

* دار نشر عربية إذا نشرت لأحد دخل التاريخ.

* وكالة أنباء عربية موظفوها ومراسلوها هم جميع العاملين في جميع وكالات الأنباء العربية.

* خطوط جوية أسطولها كل طائرات العالم العربي.

* قوة جوية طائراتها كل قاذفات العالم العربي ومقاتلاته.

* نظام تعليمي واحد من المحيط إلى الخليج.

* أقلام واحدة، مصابيح حفّاظات، أطفال، حليب واحد، قمصان واحدة، سيارات، مشروبات واحدة.

واحد، واحدة، وحدة.

ما حجم المستثقفات والمثاقف والـمَـثْـقَـفات ومناكيب الفيضانات الثقافية إذن؟

دع الخلق للخالق!

سياسة بالألوان

لا شك في أن القمصان تتمتع بقدر كبير من الذكاء والشيطنة. إلى حد الخطورة أحياناً. في حين أن السراويل تبدو لي غبية جداً. فمنذ فجر التاريخ والقمصان تقحم نفسها في صلب الأحداث، وصميم الوقائع. بينما السراويل واقفة على الرصيف تتفرج من بعيد. والمسألة ليست مجرد أن القمصان ولدت قبل البنطلونات. فهناك مسألة روح المبادرة والجرأة. من ذلك أن القميص لعب دوراً كبيراً في قصة يوسف.

وبعد ذلك بقرون تشتاق القمصان إلى الزوابع. فنرى قميص عثمان. وهذا القميص مثال جدال ونقاش منذ ذلك الوقت. فقد كتب للقمصان أن تخلد.

قرون أخرى تمر. وإذا بالقمصان تحتل أوروبا، وتطمع في احتلال العالم، وكأنه مال أبيها. وفشلها يكلف الكرة الأرضية خمسين مليون قتيل. تلك هي القمصان البنية التي تميزت بها الشبيبة النازية. والقمصان السوداء التي عرفت بها الشبيبة الفاشيّة بزعامة موسوليني. لكن إيطاليا تحب القمصان السياسية كثيراً. فجاريبالدي هو الآخر كان في القرن التاسع عشر يميز جماعته بالقمصان الحمراء. هناك أيضاً القمصان الزرقاء لمصر الفتاة.

اللون الأحمر؟ ستقول فوراً: «أوروبا الشرقية»! فهناك في موسكو نجوم حمراء على جنود الجيش الأحمر في الساحة الحمراء. وعلى حدودهم كان يعيش في «قديم الزمان» رجل اسمه ماوتسي تونج كان له كتاب أحمر.

هل الأحمر هو اللون الرابع؟! نجده في وردة ميتران التي هي رمز الحزب الإشتراكي الفرنسي. ولا علاقة لها طبعاً «بالوردة البيضاء» فيلم محمد عبدالوهاب! فهذه فنية وتلك سياسية.

الوردة الحمراء التي يحملها أعضاء الحزب الإشتراكي الفرنسي، تذكرنا طبعاً «باليد الحمراء»، تلك العصابات السرية التي فعلت ما فعلت بأهل شمال إفريقيا. وكانت تنتمي إلى شعب فولتير وهوجو ومالرو وكاترين دينوف.

وعدِّد الكتب الملونة في السياسة. سترى الكتاب الأخضر للخارجيات. والكتاب الأخضر للقذافي. الكتاب الأبيض الذي أصدرته بريطانيا. السجل الذهبي. والكتاب الأسود الذي كتبه مكرم عبيد ضد الوفد. الكتاب الأحمر. الكتاب الأزرق.

حتى الأيام لها ألوان سياسية: الأحد الدامي الذي تسبب فيه النازيون. وكذلك الأحد الدامي الذي تسبب فيه النازيون الجدد في بيروت. لكن الأربعاء الرمادي المعروف ضمن آلام السيد المسيح، ليس سياسياً. لكن اللون الرمادي سياسي. فهو صفة لموقف الجبان أو المنافق أو من لا رأي له أو من يقول: «ما دخلي؟» ويضع رأسه في الرمل. هؤلاء ينسجمون مع الناس جميعاً لأنهم عديمو الشخصية. تأمل الرمادي، هل تجد لوناً لا يتماشى معه؟ لكن المسألة نسبية ولو في الأمل، الذي يبقى وحده وسط هذا اللون الرمادي الممتد من الخليج إلى المحيط يحذر الطامعين فينا بقول الشابي: «حذار فتحت الرماد اللهيب».

أخطر من الشطرنج

تعلق قلبي لعبة وحيدة. حتى في الظروف العصيبة المصيبة لا أستطيع إخفاء إعجابي الشديد بها وبعقلية مصمميها. ومع ذلك لم أجربها قط. ولا مرّة.

كان غرامي، منذ صباي بالشطرنج، ألعبه ساعات لا كلل ولا ملل. فيه تتجسد لعبة الحياة والموت. فيه البداية المنطلقة اعتداداً بالنفس. وفيه التأزم التصعيدي. وختامها أحد ثلاثة: نصر أو هزيمة أو عودة إلى الحدود بالتساوي. وهكذا هي اللعبة إلى أن يرث الله رقعة شطرنج الحياة.

منذ فترة سرقت لُب ذهني لعبة أخرى. عضلية ولكنها قائمة على فكرة جبّارة. إذا طبقتها في غير ميدانها أعطتك نتائج مذهلة خاصة على صعيد الجغرافيا السياسية.

هل تستطيع أن تخلق من كرة القدم نهجاً سياسياً؟ لعبة سياسية؟... ولا الكرة الطائرة أو كرة المضرب ولا ولا...

لعبة الورق أيضاً كلام فارغ كالنرد...

نقل الفكرة من ميدان إلى ميدان مسألة في غاية الخطورة. يدركها القادرون على توجيه رياح التاريخ.

خذ مثلاً، الفيلسوف الألماني هيجل. قال ذات مرّة عبارة في منتهى التجريد. هي فكر مجرد محض. قال: «ان كل فكرة تحمل في طياتها بذور فنائها». ولم يكن يقصد لا البشر ولا الشجر ولا الحجر على وجه التحديد. وإذا بالماكر كارل ماركس تبرق عيناه، بريق عيني يهودي لجوهرة لمحها فجأة. قال: الأرستقراطية أيضاً فكرة فنهايتها في الشيوعية. ولم يكن يدري أن بروليتارياً يدعى جورباتشوف سيقول يوماً ما: ان الماركسية أيضاً فكرة تحمل في طيّاتها بذور فنائها. وفنيت وانتهت.

نقل الفكرة من ميدان إلى آخر يعطي نتائج غريبة أحياناً.

منذ فترة تركّز ذهني على اللعبة التي أتصور أن الساسة وقعوا في غرامها. كباراً وصغاراً. وهي أخطر بكثير من أن تبسط في «فَرِّق تَسُد».

كانت هناك أشكال عربية لتكتلات إقليمية أو على مستوى الأمة. وفجأة افرنقعت، تفركشت. بضربة واحدة.

أخشى ما نخشاه هو أن يكون اللاعبون المهرة يعدون كرات أخرى.

انها لعبة البولينج!

بن غازي

أصلها إبن غاز من قول أحدهم:

صار بترولي وغازي
بين غاز وابن غاز
طمعوا فينا قديماً
قبل فاشي ونازي
طمعت حتى يهود
مشرقي واشكنازي
وإذا الأمة نامت
نهبت دون احتراز
وإذا ما نهبوها
صار حتى القرد هازي
وإذا ما «هزلت»
فتفضل بالتعازي

أسماء الأضداد

إبتلاني الله، من قديم الزمان، بأصناف شتى من الحساسية. منها ما يظهر علناً في وضح النهار. ومنها ما ليس يزور إلا في الظلام. لكل عضو من أعضاء هذا الجسد الفاني قائمة خاصة به من الحساسيات. أداعب وردة، ينتفخ جلد رأسي. ألاعب كلباً، أغدو لوحة حمراء. ارتدي قميصاً من صنع الشرق الأقصى، لأنه لا صناعة للعرب، فأمسي كمن به جرب.

لكن كل ذلك أصبح عندي مألوفاً. ولم أذهل إلا عندما قرأت أن أبا الزبائد يعاني المعاناة عينها. وزيادة! يقول:

صرت من سنين تمتحنني العناية بألوان جديدة من الحساسية. إضافة إلى ما كان بي. لكن، ليس من بينها ما هو أشد علي وأنكى من الحساسية إزاء بعض الكلمات.

هناك مفردات ما أن تطرق سمعي حتى أصاب بالحكة أو الكحة.

الإنتصارات، إحداها!

يكفي أن أسمع: «انتصا...» فقط، لا غير، حتى يتصبب العرق. وتجتاحني موجة من الحكة من رأس أمي إلى قدم أخمصي. وبسرعة خاطفة أرد على كل ذلك.

منظر، لا أراك الله مكروها. كأنني أرقص التـويست: قـائمًا، قـرفصـا... قائماً، قرفصا... بل لكأني ألعب الهيلاهـوب. تلك الـدائرة التي يضـعهـا المـرء في وسطه فيتحول فجأة إلى نجوى فؤاد!

وغالباً ما تنتهي هذه المهزلة بنوبة ضحك هستيري. فأغيب عن الـوجـود لحظات... اسمع بين الفجاج السحيقة، بنظام سوبر استريو فوني للأصداء:

إنتصارات... رات... رات...

انتصا... صا... صا...

انتصارات... صارات... صارات...

مؤثرات صوتية رهيبة لمختارات من مشاهد تاريخنا المعاصر المجيد.

سنة ثمان وأربعين... عين... عين... ست وخمسين... سين... سين... سبع وستين... تين... تين...

مشاهد من شريط طويل ثقيل فأظل أردد مخاطباً الأمة:

تموت بـك الأبـطـــــال يـــــأســـــاً وحـســـــرة
ووجـهـك وضـــــــاح وثـغـــــــرك بـــــــاسـم

وتارة أخرى أقول في نفسي:

ولـــــولا كثـــــرة البـــاكـــين حـــولـــــي
عـلـــــــى أبـطـــــالهم لـقـتـلـت نـفـســـــي

إعلم، نصرك الله، ان الهزائم قد يتسبب فيها الكبار العمالقة، وفي التاريـخ ألف شاهد، أما الإنتصارات فلم يعهد الله بتحقيقهـا إلى الصغـار. لأن الـهزيمـة خطأ يمكن أن يقع فيه الكبير والصغير، إذا غاب التقديـر والتـدبير. وأمـا النصر

فعقل ومعرفة وخبرة وإحاطة وإلمام ودراية وإعداد وفطنة وحيطة وذكاء وخدعة ودراسة واستقصاء وقوة واقتدار. وهذه أبعد من أن ينالها الجهول الكسول المتواكل المتداعي النؤوم الراقد ذو الروح الراكد، والذهن الخامد، والقلب الجامد، والحس البارد، والفكر الشارد، لا المارد، لا الطارد، لا الصائد، لا القائد، لا الرائد، لا السائد...

ويفرغ أبو الزبائد من استطراده فيقول:

من النعم التي أسبغها علينا الباري، عز ونصر، انك لا تجد أمة تتحدث نهار ليل عن الإنتصارات مثلنا. حتى أن أحدنا إذا وفقه الله تعالى، بعد التي واللتيا، إلى إدخال خيط في إبرة، تغنت بإنجازه الركبان وقيلت فيه المعلقات. وغدا بين عشية وضحاها من مفاخر الأمة ومآثرها. ولو عاش الزركلي لبلغ الآن الجزء المليون من كتابه «الأعلام». تخيل نفسك في مكتبة من عدة طوابق كلها كتاب واحد!

فجأة يستدرك المصنِّف: لعل بني قومي محقون فيما ذهبوا إليه؟ فانهم منذ القديم ينزلون من بطون أمهاتهم علماء لغة. حتى انك لو تأملت حديث أهل المنابر المرئية والمسموعة لأدركت أن الله سبحانه نزههم عن الصواب. ولو أنعمت النظر حتى في مشية الناس لرأيتهم يزنون (من الوزن طبعاً!) خطواتهم بأوزان الخليل. هذه تجر رجلها دافعة بطنها على وزن الرمل فاعلاتن فاعلاتن فاعلات... وهذا ليث هصور ذاهب إلى ميادين الإنتصارات وهو يدك الهواء بجمعي يديه على المتقارب فعولن فعولن فعولن فعول... بينما طفله يخب خلفه فعلن فعلن فعلن فعل... مردداً في براءة:

عــــجــــبٌ عــــجــــبٌ عــــجــــبُ

قــطــــــــط ســــــــــود ولهـــا ذنـــــــــبُ

يا ترى القوم محقون؟ إنهم، ولا شك، مغرمون منذ القديم بأسماء الأضداد، يسمون الفحم بياضاً والجمر عافية...

والإنجازات؟

تبارك الله أحسن الخالقين! ما فتح أحد في هذه الأمة فمه، ولو متثائباً، إلا وقُيِّد له ذلك في سجل الأمة إنجازات تضم إلى المآثر والمفاخر.

طيّر طائرة ورقية... إصنع نمراً من ورق... شيد جمهورية فاضلة للبيبسي كولا... بع زيت الزيتون لإيطاليا لكي تصدره هي إلى العرب... امنع تشييد السدود لإغراق البلد بالفيضانات... إرفع علم عدوك اللدود على أكبر عاصمة لديك... إطحن نفسك سياسياً ولا تدع صديقاً حولك ولا أخاً... إجعل نفسك نكتة كل يوم على كل الألسنة في المشارق والمغارب... ستجد طوابير من المهللين: يا للإنجازات الرائعة... يا للمنجزات التاريخية!

ومن الكلمات التي تسبب الحساسية لأبي الزبائد: الإبداعات. يقول:

لا توجد أمة شغفت، شغف أمتنا اليوم، بالإبداعات. فكل شيء بديع. وكل فرد مبدع. الخباز في خبزه. والكناس في كنسه والزبال في مزبلته أو في مزبلة التاريخ!

إبداع في المضغ. وخلق في ربط خيط الحذاء. تبديع في السلام عليكم. وبداعة في شرب الماء. سعال إبداعي وتنحنح إبداعاتي.

وتبدأ الإبداعات والحديث عنها من نشاطات المدارس الإبتدائية إلى اجتماعات الأحزاب إلى ساحات الكرويين والملاكمين.

ولما كان الإبداع هو خلق شيء لم يكن، شيء يكون خارجاً عن المألوف وعلى المعهود فإننا آثرنا تمزيق حجب الإبداع بإنجازات وانتصارات جديدة، من الطراز الخارق. فأتينا بشعراء وكتاب سلامة اللغة عندهم كأنما نزلت آية في

تحريمها. وبفنانين تسألهم عن المقامات كأنما تطلب منهم أن يدلوك على دار العنقاء.

يتساءل المؤلف في نهاية هذا الفصل قائلاً: كيف يعتبر المفترون والأفّاكون المغرضون أن كثرة حديثنا عن الإنجازات والإبداعات والإنتصارات إنما هي أشبه بالحاجة البيولوجية التي تجعل الجسم يبحث عن تأمين العناصر الناقصة بطرق ملتوية؟!

يقولون: حدثني عمن أحب ولو كذباً.

فحدثني عن الإنتصارات والإنجازات والإبداعات وأسهب في الخيال والتخيل والتخييل... طر بي إلى حيث تلك الفجاج العميقة السحيقة. إلى حيث الأصداء الحبيبة تتردد بنظام سوبر استيريو فوني سرمدي:

إنتصارات... صارات... رات... آت...

إبداعات... داعات... عات... آت...

انجازات... جازات... زات... آت...

آت... آت... آت...

آت... آت...

آت...



إلهي قد دعونا خاشعينا

بألا نغتدي متأيدزينا

ولكن التأيدز صار غولا،

غزا حتى الثقافة والفنونا

اللاحيائيّة

الحمد لله الذي جعل المقاييس نسبية، وإلا لظلمنا هذه الأمة التي يتحدث عنها أبو الزبائد في هذا الفصل. فمن المذاهب السائدة فيها مذهب «اللاحيائية». وقد أسس له فطاحل الشعراء، وعمالقة الفكر، بما لا يصدقه عقل، ولا جاء به نقل. حتى أنهم يتندرون بقول أحد شعرائهم:

غاض نبع الحياء يا ويح قومي
والذين اختشوا لعمرك ماتوا

لقد كانت لتلك الأمة نظرة لا تزعج نفسك بطول التأمل فيها. فشاعرهم المفلق تتغنى بقوله الركبان:

لا حياء عندنا لا وجلُ
فلربّات الخدور الخجلْ
أي عيب إن غُزينا ونُهبنا
فانتظرناهُمُ حتى يرحلوا

كمبنـــــا كمــــب ســـــلام ووئـــام

لا قتـــال عنـــــدنــــا لا حيــــلُ

فماذا تفعل تلك الأمة يا ترى في الملمات والنوائب؟ يفاجئك المصنّف قائلاً:

كأني بك تعجب لأمر هذه الأمة. خذ. فهكذا تفكر عقولها:

ليـــس لـــدينـــا أبـــداً مستعجـــلُ

الـصبــــــر حــــــق أولاً والأمـــــل

كيـــف نضيـــع العمــــر فـــي معمعـــة؟

فـــالـــدهـــر من أي طـــويـــل أطـــولُ

فإذا قلت: إنكم يا قوم تعانون ما يدعو إلى الخجل. أعادوك إلى قول الشاعر:

خجـــلُ المـــرء من دنـــيء الصنيـــع

يجَعـــل الـــذئب فـــي القطيـــع يضيـــعُ

خُلـق الكـــون هكـــذا يـــا حبيبي:

أنـــا ذئـــب وذا خــــروف وديـــــعُ

فلا تتساءل بسذاجة الأطفال: وهذا التخلّف في الأجسام والعقول؟ في الجمادات والنباتات والحيوانات؟ لأنهم سيردون عليك بقول شاعرهم:

دول العـــالـــم جمعـــاء تعـــانـــي

فلنكن مثـــل جميـــع الـــدول

نُظُم عاجزة عن نهضةٍ
وعقول أزمنت في الوحلِ

قد أتوكمْ بنظام عالمي
يستوي فيه ميشيل وعلي

لعلك تشعر بالدوار أو الصداع؟ ان المصنف يحذرك من أن تقع فريسة للهموم كذلك الشاعر الذي ظل يردد حتى مات:

أنا في جبهة تداركها الله
غريب كثائر في الصمود

لقد دخلت الأمة عصرها من أوسع الأبواب. في أروع الأحقاب. وحذار أن تتذكر بائية نزار فليس هذا مقامها. بل تأمل تلك القصيدة العصماء الرائعة، لامية الأرب:

ولي دونكم أهلون بوش وبيكرٌ
وتيسٌ ومادونا وجاكسون ميكلُ

وقد ورد في الأشعار نظيرها في رائية، يقول الآخر:

ولي دونكم أهلون بوش وبيكرٌ
وإسحق شامير وكول وميجرُ

لكن هذا الإمتزاج الحضاري، وهذا النكران للذات القومية الضيقة، وهذا الذوبان الرائع في الغير الأقوى، تدل على أن الذين أسسوا لمذهب اللاحيائية عرفوا كيف يعزفون على الوتر الحساس، ويدغدغون الإحساس، في مجلس أنس وإيناس، يفوح منه مسك الماضي، وعبق الأمس، مستلقين على الحرير والدمقس،

واحلى الجواري يغنين، مداعبات أوتار الجنان قبل أوتار العيدان:

اسقنيهـــا فــــي مســـــاء وصبـــاحْ
خـطبــــاً قـــد أَلِفَــت دونَ الـكـفـــاحْ
بنت حـــزب عصــــروهـــا من نـضـــال
تملأ الخــــــافـق أنــســـــــاً وانـشراح
تـسكــــر الأمــــة منهــــا سكـــــرة
تُسْلـم المبـــدأ فـيهـــا والســـــلاح

أستراليا

في قديم الزمان عاشت امرأة كانت من عليّة القوم بين نبلاء أستراليا. وكان لها نفوذ كبير. ذات يوم زلّت قدمها وانحرفت، وإذا بشخصين يشهدان فضيحتها. وعندما أدركت الكارثة التي سيؤول إليها أمرها. توسلت بالشخصين طالبة منهما ألا يكشفا أمرها وأن يسترا لها ما شهدا، قائلة في أبيات من البحر الطويل منها:

بربكما لا تنطقا إن سئلتما

إذا قيل هيا فاشهدا أسترا ليا

نادي الضاحكين

دعا أبو الزبائد في هذا الفصل من كتاب الفرائد إلى تأسيس ناد للضاحكين. وهي فكرة يطرحها بغاية الجد:

على كل مدينة عربية ان تفتح نادياً للضاحكين. لأولئك الذين لا يجد السأم سبيلاً إلى قلوبهم وأذهانهم، الذين يستيقظون كل صباح على الأمل والموسيقى والشعر والجمال والقهقهات والعطور وعد الأيام في الإتجاه المعاكس. فكل يوم يطوى خطوة إلى الأمام، خطوة نحو شباب أكثر تدفقاً وانطلاقاً. كل صباح جديد إنبعاث جديد، دم جديد، خفقة قلب جديدة، حب جديد.

تقفز من مكانك، تريد لنفسك أول بطاقة لأول عضوية؟ لكن صاحب الفرائد يهدىء من روعك:

لن يسبقك أحد إليها. لكن هناك شروطاً من الضروري توفرها في العضو. خذ:

* أن لا تكون لك سوابق كآبة واكتئاب، أو تكون قد تبت توبة نصوحاً قبل حول كامل من تقديم طلب العضوية (راجع بدقة تاريخ آخر اكتئاب لك).

* في نادي الضاحكين لا يهم تاريخ ميلاد الشخص فتاريخ ميلاد قلبه هو المهم الأهم.

تبصرة: لا تمنح العضوية لقلب جاوز الثلاثين. تماماً مثل كرة القدم.

* أن تقيس كل شيء بمقياس الضحك: سعادة الناس وشقاءهم، فقرهم وغناهم، مستواهم. على قدر أهل الضحك يأتي التقويم. على قدر حساسيتهم إزاء أدنى رفة أو رعشة ضاحكة، نسمة ضحك. قهقهة تمزق الصمت كرفرفة جناحين يافعين فجأة في أصيل حزين فتخاله الفلق، إنبثق، من الغسق!

* إذا وصلت إلى إدارة النادي ثلاثة تقارير مختلفة أجمعت على أن العضو «شوهد» مكتئباً، مطرقاً، لا قدر الله، عبوساً قمطريراً، في الأماكن العامة تسحب منه العضوية. فإذا خففت العقوبة، علقت العضوية على قدر عدد التقارير شهوراً.

ما الذي يمكن أن يدخل على قلب حضرتك الأسى؟ تردي الأوضاع العربية؟ هب انك صرت خنساء العصر، وان العالم العربي صخر، فهل ستحييه إذا نحت: «أعيني جوداً ولا تجمدا»؟!

* يتعهد العضو بألا يدع ساعة تمر دون أن يضحك. فالمضحكات أكثر من أن لا ترى، واظهر من أن تخفى، ولا دخل للنادي إذا كان ضحكاً كالبكاء، فالنادي غير مسؤول عن تأويلات المتنبي.

المضحكات؟ وهل يخفى القمر؟ أي قمر؟ فنحن لنا في كل زاوية بدر بدور وشمس ملوك، فكم ذا تعد من المضحكات! إتسع الخرق على الراقع، والحمد لله و«تكاثرت الظباء على خراش... فما يدري خراش ما يصيد» على العضو، بالتالي، أن يريح باله من العديد من المشاكل التي لا طائل من ورائها... مثلاً:

- بيع الأرض: مسألة عقارية. فما المشكلة؟ ما اعتراضك على شخص له قدر وشأن وصولة وجولة، يبيع متراً مربعاً أو هكتاراً أو من الأفق إلى الأفق؟

هل هي ملك الوالد؟! إذن؟! قضية عقارية راجعة لأملاك الدولة!

ـ من الخيانات العظمى أن ينادي المغرورون بالكشف عن المعاهدات السرية وما يجري في الكواليس! حتى ولو كان ذلك يؤدي إلى الإلقاء بالناس جميعاً في ستين داهية.

أيجوز أن تفضح الفتاة نفسها بنفسها إذا عود الكبريت، على رأي يوسف وهبي، إشتعل؟

على العضو أن يضحك كل دقيقة فهناك بحر من المضحكات.

* يقسم العضو بأنه لن يكتئب حتى لو تآمرت عليه كل القوى الظاهرة والخفية.

تبصرة 1: حتى لو أحيط بصحافة العالم العربي كلها.

تبصرة 2: حتى ولو حاصرته كل الإذاعات والتلفزيونات العربية.

تبصرة 3: وحتى ولو أجبر على سماع خطابات حزبية لمدة ساعات وأيام وليال وعشرات السنين.

تبصرة 4: بل حتى لو أقنعوه بأن العالم العربي مغلق داراً داراً... شارعاً شارعاً... مدينةً مدينةً... أرضاً أرضاً وسماءً سماء...

* يتعهد العضو بأن يقدم يومياً شيئاً ضاحكاً للناس، أن يجعل عدداً من الناس يضحكون بأي شكل من الأشكال. نكتة، تعليق، تعقيب، إشارة، حركة... لأن عدم الضحك رضوخ لمطرقة الكآبة والإكتئاب التي تريد أحزاب دراكولا فرضها.

ـ من هو عدو دراكولا؟

ـ شارلي شابلن!

* ثبوت عدم الإلتزام بهذه المواد والتبصرات يزيد من سيئات العضو. ونقاطه السوداء المتصاعدة تؤدي إلى سحب العضوية.

* كل الأعذار مرفوضة إذا كان الهدف منها تبرير الإكتئاب. لأن الكآبة أصلاً، في مفهوم النادي، من جرائم الحق العام وليست مجرد إيذاء ذاتي. فالإكتئاب يجعلك تنشر بين الناس أفكاراً سوداء سامة. يقول صاحب الفرائد:

لا ينصرف ذهن أحد إلى أنني أريد، لا قدر الله، تأسيس ناد للمهرجين. حاشى! بدليل أن قيمة العضوية عشر طرائف مبتكرة، أبكار عذراوات، لم يسمعهن إنس قبلهم ولا جان.

لا تكرار، لا اجترار، ناد لا يقربه إلا أهل التجديد والإبداع والإبتكار، في سبيل استنهاض الطاقة الخلاقة.

* لا فضل لعضو على آخر إلا بالضحك.

تبصرة: إذا زلت بك القدم فوقعت في فخ موجز أخبار، فضحكت عشرين ضحكة في خمسة أخبار فخليق بك أن تكون من رواد هذه الأمة، لقدرتك على التقاط كل حركة وكل سكون في ظلمات الأحداث، فمكانتك في النادي فوق مرتبة من تلقي به المقادير إلى نشرة مفصلة فلا يحركه عشرون خبراً، ولا يدغدغه تعليق أو تحليل سياسي لتحريم الفكر.

* من الضروري الإلتزام بآداب العضوية في الحياة اليومية:

- أن يكون إلى جانب فراشك، دائمًا وأبداً، كتاب ضاحك، تصحو ضاحكاً وتنام وأنت تضحك.

- لا تفتح باباً أو توصد نافذة إلا وأنت نضر الطلعة وضّاح المحيا.

- عندما يرتكب أحد حماقة، إضحك، لأنه أتعس من أن يكون ذكياً. وإلا ما كان ليختار درب الغباء.

- لا تأكل مثقال ذرة، ولا تشرب، ولو كان قطرة، على هم وغم.

- زر البحر، في دورات مكثفة، وتعلم من الأمواج ملاحة البسمات والقهقهات. أنظر إلى الشمس وهي تضحك ملء شدقيها... هل لك من ضحكة باهرة؟!

ستراك تعب كؤوس الشباب بلا حساب... تمسك باليوم الهارب، من أذنه وتعيده رغم أنفه، توقف الزمن حين تريد، وتدعه يلهث خلفك متى ما تشاء.

* للنادي مكتب خاص لقبول اعترافات مرتكبي خطايا الإكتئاب، الراغبين في صكوك الغفران الضاحكة.

* لا يحق للعضو الإعتراض أو المقاومة إذا أوقفته شرطة النادي الضاحكة للتأكد من أنه لا يحمل أي شيء من دواعي الكآبة.

تبصرة: يحظر على العضو حظراً باتاً قراءة الأعمال المأساوية وأشعار البكائين ومشاهدة أفلام الرعب والعنف. يقع المذنب تحت طائلة قوانين الضحك.

* التخلي عن العضوية، بعد إكتسابها، يعتبر إرتداداً إلى غياهب الإكتئاب، ويعاقب المرتد بشد وثاقه ودغدغة قدميه بالريش إلى أين يشرف على الهلاك فيُخلى سبيله بعد إعلان التوبة النصوح.

يقول أبو الزبائد: أول خطوة عملاقة ينجزها النادي هي تأسيس مكتب للدراسات والبحوث يعكف على تقصي غياب البسمة والضحكة عن وجه هذه الأمة.

التراثيّة

أكون في سابع نومة، فتنطلق من فم أو جهاز كلمة تـراث، فـأقفـز واقفـاً كالعصا تعظيمًا للتراث. وأكون جالساً وادعاً وديعاً أهاتفُ شخصاً فتجري كلمة تراث على لسانه فأقف سلاماً واحتراماً ويسمع لنعلـيَّ وقـعٌ كـإيقـاع حـوافـر الجنود وهم يجتاحون أي جزء أرادوا من الوطن الكبير.

بهذا الأسلوب المفاجىء، يقتحم أبو الزبائد هذا الفصل متهمًا الطاعنين في التراث بأنهم لا يعلمون أننا لا نملك شيئاً سواه. فلا حاضر في اليد، ولا مستقبل على الشجرة. فإذا لم تلتحف التراثية، فافترش الصفرية. لقـد انـدلعت حـروب طاحنة بين الشعراء. فريق مع التراث وآخـر ضـده. ولـولا خشيتي أن يلـومني القارىء ما أوردت نماذج من هذه الأشعار. يقول أحدهم مفاخراً:

أنـــا مـن أمـــة لــــديهـــا تـــــراث
إن مـعـنـى الـتراث مـعـنـى عـظـيـمُ
فطعـــامي وملـبـســي وفـــراشـــي
مـن تـــراثي ومنـــه حتى الـعـلـــومُ

منــــــه أستلهـــــــم الحيــــــــاة فعيشـــــــي
جســـــــــدٌ محدثٌ وفكـــــــــرٌ قــــــــديمُ

كـــــل من كــــان ضـــد فكـــري جهـــولٌ
كـــل شــــــيء عـــدا التـــــراث سقيمُ

الشعراء مجانين حقاً! فقد وثب إلى الميدان شاعر صاباً جام غضبه على هذه الأبيات قائلاً:

رويــــــدك دعْ عنك هـــــذا اللهـــــاثْ
وقـــــــل لـــــــيَ من أنت؟ أين التراثْ؟

فـــــلا حـــــاضــــــــر لا ولا من غـــــدٍ
فطلّق حيـــــاتك هــــــذي ثـــــلاثْ

ويتطرق المصنف بعد ذلك إلى نظرته إلى التراث قائلاً:

من التهريج أن يقف إنسان ضد تاريخه أو ماضيه أو تراثه. فنحن لدينا تراث فكري وفني لا نظير له.

عيني على الغزل العربي، تتثنى تفعيلاته في أوصال السامع كأنها صهباء الجنة التي لا تسبب الصداع. تأمل رائعة شاعرنا الأموي الدون جوان عمر بن أبي ربيعة.

أَمِــنْ آلِ نُعْـمٍ أنت غـــادٍ فـــمُـبْكــــرُ
غــــداة غــــدٍ أم لاجــــــىء فَمُهَجَّرُ؟

كيف يمكن لأحد أن يتنكر لهذا التراث الذي يقطر عسلاً ومسلاً؟ ثم تأمل رائعة زهير بن أبي سلمى:

رأيتُ القضـــايـــا خَبْطَ عشـــواءَ من تُصِبْ

تُمِـــتْهُ ومن تُخْـــطِىءْ يُعَمَّرْ فَيَهْرَمِ

ولله درّ الملك الضليل في معلقته التي مطلعها:

قفـــا نبكِ من ذكـــرى حبـــيبٍ ومنـــزلِ

بسقط اللّوى بين الدَّخــول فحومــلِ

أما رائعة شاعرنا العظيم عمرو بن كلثوم فهي من أروع روائع التراث والميراث. وعلينا أن نتأمل هذا الإبداع، وهذا الحماس إلى أين يؤدي:

إذا بلـــغ الـــرضيـــع لنـــا فطـــامـــاً

تخـــرّ لـــه الجبـــابـــر ساجدينـــا

وتأمل معي الموسيقى الشعرية، والجرس والجناس، في رائعة أبي الطيب:

لك يـــا منـــازل فـــي القلـــوب منـــازل

أقفرتِ أنت وهن منك أواهـــلُ

ولا ننس تراثنا الحديث. فنحن من أخمص الرأس إلى أم القدم تراث. لا فضّ فو الشابي القائل:

إذا الـــشـــعب يـــومـــاً أراد الحيـــاة

فـــلا بـــد أن يـــستجيـــب القـــدرْ

قال أبو الزبائد:

الروايات الشائعة لهذه الأبيات كلها من تحريف العامة. أما ما نقلناه فهو عن روايات خاصة الخاصة.

نواكشوط

قيل الكثير في أصل العاصمة الموريتانية، حتى أنهم كتبوها ولفظوها بألف طريقة وطريقة. إلا أن ما نذهب إليه هو أصل الكلام والعاصمة أصلها: نواك شط من النوى والشطط. قال الشاعر:

نــــواك شـــــط فـــزرنـــا أيهـــا النفـــطُ
فقـــد بـرانـــا الطـــوى والجـــدب والقحـــطُ
طـــالـــت مجاعتنـــا والفقـــر أرهقنـــا
وأنـــت تـــدري بـأنَّـا الأهـــل والـــرهـــطُ
نـــريـــد كســـرة خبـــز نستقيـــت بهـــا
وأنـــت دونـــك ذا الكـــافيـــار والبـــطُّ

على هامش ملحمة صفية

إتفق جميع الرواة على أن الزعيم سعد زغلول، قال لزوجته عندما شعر بدنو موعد الرحيل:

ـ مفيش فايده... غطيني يا صفية.

لكن الرواية التي جاء بها أبو الزبائد، مختلفة تماماً، فهو لا يكره شيئاً في الدنيا كرهه الإتفاق والإجماع. وحيثما رأى إجماعاً أطلق ساقيه للريح، حتى لترى رجليه أعلى من رأسه. ومتى طرقت سمعه كلمة «إجماع»... هكذا صدفة، أصيب بالحكة، كأنما ألبسوه جلباباً من النمل الأبيض. وما رأى الجيم والميم والعين اجتمعت إلا ونظر إليها شزراً، عل ألفا تنضم إليها قبل الجيم وأخرى بعد الميم فتصبح الكلمة التي تثير الحساسية.

قال: ان نختلف على الإتفاق، خير لنا من أن نتفق على الإختلاف.

وله أيضاً:

يجب أن نكون كالفرقة السمفونية. لكل آلة صوت وتعبير وشخصية وأبعاد ومميزات كاملة مختلفة عما لدى غيرها، ولكنها عندما تشترك في العزف تبدع سمفونية.

وله أيضاً:

نهايتنا هي الرضى بأن نكون قياساً واحداً كزجاجات الكوكا.

وله أيضاً:

لا تستطيع أية قوة في هذا العالم أن تزج بأمة في علبة سردين. أمة أصغر صبي فيها يرى تمثال الحرية قزماً عند قدمه.

ومن فرائده:

أريد سلاماً وطنياً واحداً يكون كله بيتاً واحداً:

إذا بلـــغ الــرضيـــع لنـــا فطـامـــاً

تخـــر لــــه الجبـابـــر ســاجـــدينـــا.

وله أيضاً:

لم يشهد التاريخ شعباً تقدم بالإجماع. كل التقـدم الـذي حـدث على مـر العصور في جميع الحضـارات كـان مـرده إلى الخـروج عن الإجماع. ولا تميـل الشعوب والأمم إلى الإجماع إلا في فترات انحطاطها وركودها.

وله أيضاً:

الثقافة فكر أو لا تكون... والفكر هموم أو لا يكون.

ومن مقولاته:

الأمة التي لا تعرف الضحك. بكاؤها غبي.

وله أيضاً:

الذين يتصورون الصراخ والبذاءة حرية تعبير لم يعرفوا بعد معنى أنكـر الأصوات. ولم يعرفوا بعد أن الصوت الجميل أوقع وأعمق تأثيراً.

ومن مقولاته:

أزمة الورق في العالم العربي أساسها طبع كتب مدرسية لا جدوى من ورائها. فما أروع أن تجمع من مراكش إلى عدن ويشاد بها هرم «للتغبية والتبليم».



صفية مع الزعيم سعد زغلول ممدداً على فراشه. في غرفة أنيقة بلا زخرف، مثلما هو الذوق السليم. متاعب الإستعداد للرحيل مجرد بعوضة في أذن الضرغام. فقد اعتاد النفي والترحال. لكنه لم يكن قط منفياً عن ذاته. كان دائمًا نفي النفي. كان الإثبات.



ترنيمة للأطفال:

كانت صفيه

لزوجها صفيه

تقية، نقيه

قويـــــه

في أحلك الظروف لم تكن شقيه

صامدة، تهزأ بالبليه

علّـمها زغلول كيف ترفض المنيه



رواية أبي الزبائد جاءت خارجة عن إجماع الرواة جميعاً. ولم يستند المؤلف إلى أية أسانيد أو مصادر أو إجماعات واتفاقات.

فهو يقول:

لم أشعر بالضعف أو الإنهيار حتى أستند إلى الأخشاب المسندة وأعجاز النخل الخاوية. جعل الله لي عينين ولساناً وشفتين وهداني النجدين، فلا أستند إلى غير هذا الذي وضعه الله، مشكوراً، على أثافي جمجمتي.

وله أيضاً:

لا وجود لأهداف واضحة لدينا غير أهداف لعبة «الدارتس» ولا لمواقف ثابتة سوى مواقف السيارات.

ومن فرائده:

لا تغضبوا كباركم بترديد: إذا الشعب يوماً أراد الحياة...

قولوا:

«إذا الشعب يوماً أراد المهات
فلا بد أن يستجيب القدر».

وكان يقول:

النهضة زوجة الشعب. ووراء كل عظيم إمرأة.

★ ★ ★

صفية، إمرأة رائعة. زوجة مطيعة. لكنها آثرت التمرد والعصيان على سعد زغلول في أحرج اللحظات. حين قال لها:

ـ مفيش فايده... غطيني يا صفية.

زوجها زعيم عظيم لا أحد يشك في نزاهته ونخوته وجليل أعماله. ومع ذلك قررت أن تبدي له وجهاً آخر. غير وجه صفية المطيعة المنقادة إلى تنفيذ أوامر زوجها بلا كيف ولماذا؟ صفية لم تكن صحافية حتى تعتبر التغطية أمراً هيناً، فتمسك أي قلم وأية أوراق وتجهز على الموضوع.

أن تغطي سعد زغلول في أحرج اللحظات يعني أنها تقبل بالإجهاز عليه. يعني أنها ترضى بالتخلي عنه. يعني أنها تنضم إلى قائمة أعدائه الطويلة العريضة.

زغلول لم يكن أبداً زغلولاً، حتى يسهل التخلي عنه. لقد كان قضية. والقضايا كالقضاء لا أحد يقدر على ردها أو الفرار منها.

تغطية زغلول تعني في ذهن صفية أن تطوي آخر صفحة في حياته بنفسها وتنساه. وهذا أمر مرفوض. ولم تجد الحرة غير الرفض.

فعلاً، رفضت صفية تغطية زغلول.

يقول صاحب الفرائد:

الرموز لا تُغطى، يجب أن تُكشف على طول السنين لكي تقتدي بها الأجيال.

وله أيضاً:

نريد حزماً أو ابن حزم واحداً. يكون مثل الإسكندر المقدوني عندما عرض عليه حبل عقد ألف عقدة. وقيل له: قد حللت مشاكل الدنيا كلها فحل هذه العقد. فأخذ سيفه وشطر الحبل شطرين!

ولــه:

أفضل قدوة لنا القط الذي تحبسه في غرفة لا منفذ له منها. ماذا يفعل؟ ينقض على وجهك.

وله أيضاً:

من المحيط إلى المحيط ننعم، والحمد لله، بالأنهار والبحار والمحيطات، فما خوفنا من البلل؟.

ومن فرائده:

أعجب لوضع ترهبه مقالة أو يزعجه كاريكاتير. فمثل هذا الوضع لا يوجد إلا حيث لا حياة لمن تنادي.

★ ★ ★

ماذا فعلت إذن صفية؟

أمسكت زغلول. رفعته بكل قواها، أوليست أم المصريين؟ أصبحت ملايين في إبنة حواء واحدة. أوقفته فإذا هو أشد صلابة ورباطة جأش في وقفته من تمثاله. وجرّته خارج الغرفة، خارج البيت.

أمسكته من يده، وظلت تجرّه. طاوعها. ظلا يعدوان قليلاً قليلاً... حتى دارت دماء الشباب في عروقه. ظل يرتفع... يشمخ... يسمق... يسمو... عملاقاً، أشد عملقة من العمالقة... حتى وضع قدماً على جبل طارق والأخرى على الشاطىء العربي للمحيط الهندي.

قالت صفية آنذاك:

«أي مجال للمؤرخين هنا؟ فلو وصفوا هذا المشهد لرماهم الناس بالجنون!».

دعوة

إلغوا الجوازات بين الإخوة العرب

واعلنوه اتحاد السادة النجب

توحد الغرب لم يعبأ بألسنة

تعددت أو خلافات مدى الحقب

ونحن ضاد وانساب موحدة

وديننا راية في كف خير نبي

ولا اتفاق لنا إلا على شَجب

يا أمة أصبحت من أعجب العجب!

شيء من الضغط العالي

في مقدمة ما يميز الإنسان عن الحيوان نعمتان لا تقدران بثمن: القدرة على التعلم والإحساس بالزمن.

كلتا النعمتين لا تشترى من سوق، ولا توجد مطروحة على الطريق. نعمتان ذاتيتان. مجاناً. ومع ذلك أهيننا في العالم العربي وأهملتا بشكل شنيع.

القدرة على التعلم؟ خذ:

- ما الذي تغير منذ رحلة رفاعة الطهطاوي إلى الغرب؟ أليس جديراً بالكاتب العربي اليوم أن يكتب ثانية «تخليص الابريز في تلخيص باريز»؟

تأملوا جيداً حياة المدن والقرى في العالم العربي وسترون الكارثة التي يعجز الشيطان عن تصميم أبعادها. فبعد عقود كاملة من الشعارات الفارغة، التي أصابتنا بصداع مزمن، يرفع الستار عن ثلاثة أرباع العالم العربي جياعاً، مرضى، فقراء، أميين، مضطهدين، مهزومين داخلاً وخارجاً...

- ما الذي تغير منذ اعلان جمال الدين الأفغاني ومحمد عبده إفلاس الفقهاء؟

عدا الفرائض والعبادات (وهي أمور يمكن أن تؤدى في جانب منها بشكل فردي) لا نعرف كيف نتعامل مع العصر بعقل منفتح إنساني خلاّق.

* بعقل منفتح: يقبل الرأي الآخر.

* إنساني: لا يكون الدم ضريبة أساسية فيه.

* خلاّق: حر قادر على تجاوز الماضي في سبيل الحاضر والمستقبل.

المشكلة التي قصدهـا عبـده والأفغـاني تتلخص في: النص رائع والتطبيق سيء. والمعضلة اليوم هي هي.

- ما الذي تغير في عقلية الحشو التي ابتلينا بها طوال قرون؟

التعليم لدينا ينتهج الحشو. والاعلام في معظمه حشـو. فمن أين ستنمـو القدرة على التعلم ويتحرر الذهن ويتحرك الفكر وينطلق الخلق والإبداع إذا كانت «الماكنة خربانة»؟

الإحساس بالزمن؟

هو في جوانب عديدة مرادف للقدرة على التعلم، هو الوجه الآخر لها. مثلاً؛ نحن لم نستفد شيئاً من مسلسل الهزائم الذي أفضى بنا إلى متاهة حضـاريـة، نحن فيها أضيع من الأيتام في مأدبة اللئام.

من السذاجة أن ننتظر من الغير الإشفاق على وضعنا والـرثـاء لحـالنـا. فنحن أمة لها من مقومات النهضة ما لا تملكه لا الولايات المتحدة ولا بريطانيـا ولا روسيا، لو وجدت القيادات التاريخية حقاً.

الدول الكبرى تنظر إلى النواة العربية بمنظار الإحساس بالزمن. فتتخيـل أبعاد شجرتها لو قدر لها أن تنمـو. ستكـون السـدرة الفـريـدة التي تبـدو إلى جانبها كل الأشجار طفيليات. ومن هذا المنطلق نعامل.

أصبحنا نخشى أي هدوء على الساحة العربية، لا يكونن الذي يسبق العاصفة. هي ذي نتيجة عدم الإحساس بالزمن:

* مجلس التعاون الخليجي لم يحقق بعد الأبعاد التي قام من أجلها.

* الوحدة المغاربية تتعثر، تمشي مشي اللام ألف.

* الوحدة العربية أبعد من الخيال.

* أما الوحدة الإسلامية فجزر الأحلام بعينها.

لنتفاءل في حذر: لا يأس مع العرب ولا عرب مع اليأس.

الألمان

لماذا سُمي الألمان ألماناً؟ القول الفصل فيها أن تلك الأصقاع من بلاد الجرمان (من قول الشاعر: لست جرماً فأنت ذا جرمان. لأنهم قوم لهم كبرياء عجيبة!) كانت تعيش فوضى وحروباً وتطاحناً، فوحدها رجل بحد السيف. ولكنها قسمت من بعده. فرآه أحد الصالحين في المنام ينشد:

أنا وحدت بلادي ... بعد حرب وطعانْ
لم أكن أدري لعمري ... ما بغيب الحدثان
قسموا أرضي وشعبي ... لعن الله الهوان
كان عندي ألم ... صار عندي ألمان

فقيل هؤلاء ألمان وسكنت اللام للتخفيف.

نهم اصطلاحي

أي نهم اصطلاحي لاحم هذا الذي جعل الناس يتحدثون عن «الشرائح» بدل «الطبقات». فالمجتمع ينقسم عندهم إلى شرائح، دون أن يحددوا ما إذا كان عجلاً أم خروفاً.

كانوا يقولون: طبقة العمال... طبقة الأثرياء... الطبقة الوسطى... أما اليوم فالرؤيا «انعم»: شريحة المثقفين...

الإيرانيون لهم رؤيا أخرى، فهم يستخدمون الكلمة العربية «قشر». وكأن البلد كله قشور ويبقى النظام هو القلب، على ما يبدو، هو اللب!

من الذي يختار هذه المصطلحات؟

إذا كان المثقفون هم الذين ينتقونها فلعمري انهم لساخرون من سادية الأنظمة. والا فهم مازوخيون.

أما إذا كانت الأنظمة هي التي تصطفي هذه المصطلحات فالصورة مرعبة.

لكن ما الغريب في أن يصل القصاب إلى السلطة؟!

منذ فجر تاريخ الكباب لم يوجد قصاب واحد استطاع أن يذبح ثلاثين مليون رأس من الأنعام!

وفعلها ستالين برؤوس بشرية، بواسطة الجولاج (وهي اختصار لثلاث كلمات: الإدارة العامة للمخيمات).

هناك أنظمة لا وقت لديها تضيعه في فنون التشريح وتصفيف الشرائح، فهي تفضل «الفرم». وللفرامة عدالة عجيبة، لافضل للحم فيها على شحم، ولا لكتف على فخذ: بضع دبابات في الشوارع، وإذا الطبقات والشرائح سواسية كاللحم المفروم.

الحياة ليست رومانسية إلى حد أن نرى مصطلحات وردية حالمة. فيقسم المجتمع إلى وريقات ورد مثلاً أو إلى خصلات ذهبية. ماذا يكون موقفك ممن يحدثك عن الخصلات الإجتماعية؟ عن خصلة العسكريين أو خصلة المترمتين؟

الدنيا ليست بخير إلى هذا الحد، فالفرّامة «شغالة» ليل نهار. كل أملنا ألا يتطور النهم الإصطلاحي اللاحم، الذي انتقل من الطبقة إلى الشريحة، ويزداد إصراراً على «النعومة» فيصبح الحديث عن المقانق... مقانق الأطباء... نقانق المثقفين... ومعجنات لست أدري ماذا...

نقيق المثقفين نعرفه... أما نقانق المثقفين فلا!

غرائب القيم في غوابر الأمم

يتناول أبو الزبائد غرائب الأفكار وعجائب المبادىء والمعتقدات التي سادت أمماً بادت. وكانت شاءت، عمداً مع سبق إصرار، أن تكون كل حياتها وتصرفاتها بالمقلوب.

يقول أهلها:

للناس القيم. ولنا القيم المضادة. المبادىء لغيرنا. ونحن لنا اللامبادىء.

يقول المصنّف: أنت أعجز من أن تفرض رأيك على فرد. باسم حرية الفرد. فهل تستطيع أن تفرض آراءك على أمة بحالها ومالها ورجالها؟ وأين حريات الشعوب؟ و«الدويلات الصغيرات الحمى... أين حرياتهن الأربع»؟

لك أن تتساءل: كيف جمع صاحب الفرائد معلوماته عن هذه الأمم الغابرة؟ ما أن تتساءل حتى يعاجلك قائلاً:

لم تترك هذه الأمم مصادر أو مراجع. لا وثائق ولا مستندات. لا آثار ولا ما يقي الباحث العثار. ولكنني استدللت على كل ذلك بالعقل. مثلما استدل الناس على الله بالعقل. و«ليس يصح في الأفهام شيء... إذا احتاج النهار إلى دليل».

في إحدى تلك الأمم الغابرة، التي ضاعت فيها الهويّات والقضيات، كان الناس لا يتحدثون عن شيء حديثهم عن الوحدة. ملبسهم ومسكنهم ومشربهم ومأكلهم وحدة. يلتزمون «بوحدة الأزياء». ولكل واحد «وحدة» سكنية. وجبات طعامهم يقيسونها «بالوحدة الحرارية». حتى أغانيهم يضبطونها «بالوحدة الإيقاعية». وكذلك قصائدهم في أوزانها. وكتاباتهم كلها تعالج «الوحدة» والعزلة...

إذا سعلوا أو تنحنحوا فباسم الوحدة. وإذا انصرفوا إلى لهو أو لعب فلأجل عينيها، ولإدخال المرح إلى قلبها، سلم قلبها.

وكانوا أيضاً إذا تنابزوا بالألقاب، فعلوا ذلك دفاعاً عنها ضد أعدائها منهم. وإذا اقتتلوا فلكي يفتدوها بالروح... بالدم... إلى الركب.

لم يكتب شاعر فيهم قصيدة إلا ليتغزل بساقي غزالة الوحدة، وجيدها الأغيد. بالخصلات النواعم واللواحظ النواعس... ولا رسم أحد لوحة على كهف إلا ولوى عنق خط فجعله واواً... وطوى آخر فصار حاء... وثنى ثالثاً فإذا هو دال... وعقد آخر بإحكام فإذا هو تاء مربوطة.

لقد بلغ شغف أهل تلك الأمة الغابرة بالوحدة حد التفرق والتشتت في سبيل الحفاظ عليها.

تقول: كيف؟ عليك بالصبر. فإن من خصال تلك الأمة الصبر والجلد وطول النفس ونبذ العجلة خشية الوقوع في حبائل الندامة. وألا تفعل شيئاً طوال مائة عام من المنام، خير من أن تأتي أمراً فلا يأتي على ما يرام. ولا يبلغ من ورائه التمام. فانبذ التسرع في الأحكام.

كان أهل تلك الأمة ذوي نظرة فلسفية عميقة بعيدة المدى. نظرة في عمق الفلسفة وبعد مداها، وصلابة الرياضيات ورسوخ أسسها. يقولون: إذا كانت الوحدة تؤدي إلى التشتت، فإن علينا بلوغها بالعكس عن طريق التفرق. أي أن

علينا أن نتشتت إلى أبعد الحدود حتى لا تكون هناك حدود بالمرة. ومتى تجزأنا بغير حساب، إلى ألف قطعة زالت كل عراقيل الوحدة. فتتحقق لنا ونظفر بالضالة المنشودة، والغاية المقصودة.

يقولون: يجب أن تصبح العواصم أكثر من عدد المدن والقرى. في كل شارع دولة ذات عاصمة. إلى أن يصبح كل كوخ وزقاق دولة بطم طميمها.

وهكذا، لا يمكن أن نجعل لكل أسرة هوية مميّزة. ولا تبقى عندئذ حاجة إلى حدود أو سدود ورجال ضبط وربط.

عندئذ تصبح النخوة والعزة للجميع. يصبح كل فرد فخامة فلان... دولة علان... تماماً مثلما حدث في عهد الخديويين وملوك الطوائف كل الناس حضرت، باشا، بك... فجأة ترى كل فرد في الأمة لا يكلم إلا حين يبتسم. كل واحد صمصام الدولة، كل فرد تفضل حضرته بالنوم... تكرم سيادته بالصحو. وكل واحد يُلقي خطباً تاريخية أمام المرآة. فتبقى آذان الناس جميعاً سالمة بإذنه.

يقول المنظرون في تلك الأمة الغابرة، طبقاً لرواية أبي الزبائد:

لا أحد يستطيع بث التفرقة والتشتت في أمة هذا شأنها. فالوحدة الصورية لا تجلب الطامعين. والفريسة الوهمية تعيي الراكضين.

يا لغرائب القيم في غوابر الأمم؟

آسيا

هناك أخطاء شائعة كثيرة، وقديمًا قيل: خطأ شائع خير من صحيح مهمل. كذلك أصبح الخطأ في كتابة آسيا غالباً على الصواب. فهي قارة آسية. «حمالة الأسية» بل و«حمالة الحطب» فهي قارة الأسى دون منازع ويستدل فقهاء اللغة على ذلك بقول الشاعر:

الأسى فينا أصيل أي نفس راضيه
أنا آس أنت آس وهي أيضاً آسيه

النوادي الفردية ممنوعة

حدث أبو الزبائد قال:

كنا أربعة. أحدنا بكّاء يبكيه أدنى شيء. شعر شجي، لحن جميل، وتنهمر الدموع... حتى أسعد الذكريات يستعيدها بحسرة فإذا هي مناحة و: جادك الدمع إذا الدمع همى!

الآخر، نسميه دائماً الضحاك. لا يفوت أية حماقة ولو كانت عابرة. ولكثرة الحماقات في كل زمان ومكان، بإمكان سيادتك أن تتخيل الوقت الرهيب الذي يحتله الضحك في حياته. كل شيء يبدو له مكتنزاً حماقة وغباء. حتى الجدران تلوح لعينيه ذات قرون كقرون الوعول تارة وتارة كقرون الجواميس. وفي اللحظات الخاصة تبدو له كقرون الأيايل. لك أن تتصور المدينة!

وحين كنا نعود إلى البيت ويخلع نعليه، كان يلقي نظرة خاطفة على الحذاء:

ـ يا له من كتلة غباء متحركة! أشد حماقة من أهالي تلك المدينة التي يحكمها الجنود والتي يسمون فيها الأحذية ناقلات الأفراد!

الثالث كان عصبياً جهنمياً. كانت السياسة كل شيء في حياته: إفلاس الأمة. ضياع الأجيال في خطط وهمية. إنهيار القيم. تفاقم الجريمة والفساد. الفشل الذريع في كل المشاريع. تفشي الأمية. إستشراء اللصوصية بشتى أنواعها وعلى جميع مستوياتها... وفي النهاية: لا شيء!

أما الرابع فقد كان نغمة الحكمة التي تحاول أن تكون همزة الوصل بين هذه الأضداد.

يقول للبكّاء: من لم يعرف البكاء لا يحق له الضحك. أي شيء مضحك في هذا العالم المفعم بالمآسي؟

ويقول للضحاك: لا شيء في الدنيا يستحق الحزن والرثاء. إضحك تضحك لك الدنيا. فلن تعيش مرتين.

ويقول للملتزم: الحياة مبادىء أو لا تكون. ليس إنساناً من لا يهتم بمصائر الآخرين وأقدارهم.

هناك أناس لا يستطيعون أن يفكروا في مصائرهم. فهل نتركهم كالقطعان السائبة؟

كل الناس كانوا على حق في نظره. حتى أولئك المخطئون. فهو يترك دائماً هامشاً واسعاً لاحتمال وجود أسباب وجيهة وراء الأخطاء.

وعندما كان ينصرف كان البكّاء يقول:

- ما أطيبه. ما أظنه يعيش طويلاً. فالحياة تضيق بالطيبين. فيختطفهم الموت... وتنهمر عيناه بالدموع.

أما الضحاك فينفجر بالضحك:

ـ يا للحماقة! كيف يستطيع أن يكون أربعة في واحد؟

ويصرخ الملتزم:

ـ ما أشطرنا في ترك الأمور الجوهرية والإهتمام بما لا ينفع الناس. صرنا متخصصين في تهميش المسائل وتتفيه القضايا المصيرية الحساسة.

وينصرف الحكيم وهو يقول في نفسه:

ـ لكل شيء جماله ورونقه. لو كنا جميعاً أمة واحدة لكانت حياتنا رتيبة قاتلة. ولكان اليوم يمر كأنه أعوام...

مع مرور الأيام والسنين كان البكاء يزداد حساسية. وسماء الأسى تزداد سخاءً بالعبرات. ولك أن تستعيد كل الإستعارات الجميلة في تاريخ الحزن ستراها منطبقة تماماً.

وكان الضحاك يغدو أكثر ضحكاً وأسرع رد فعل لأدنى سبب. يقهقه إذا داعبته نسمة رقيقة.

ـ وي... دغدغتني الشيطانة!

وكان الملتزم يزداد صرامة وعنفاً. في كل يوم تتأجج دوافعه أكثر فأكثر:

ـ هناك مبادىء يجب الثأر لها. فقد ظلت طوال مسيرة البشرية تحت نير الظلم والإستبداد.

أما الحكيم، فكان يزداد رصانة. يتمتم:

ـ مسكين البكاء سيشيب بين عشية وضحاها، ولا يدرك للحياة متعة. صحيح أن الحياة مأساة. لكن يكفي أن تضيف لمسة بيضاء إلى الصفحة السوداء لتصبح الصورة لوحة. لمَ نترك هذا الجمال المتدفق في كل شيء؟ مرح الطفولة على الشاطىء. هذه الفتاة القافزة على المرج الأخضر. روح الشباب

متجسدة، موسيقى من لحم ودم. هذه الشجرة هي الأخرى روح الفرحة منحوتة من أوراق وأغصان. كل شيء سماحة وأريحية وقهقهات... هناك أشياء كثيرة غير البكاء.

ويمضي يتمتم وقد ارتسمت في ذهنه صورة الضحاك...

مسكين الضحاك... يأخذ الأمور بهذه السهولة. سيظل دائمًا على السطح. فكم هي الحياة قاتمة حين تغوص إلى أعماقها! كم هي خطرة مرعبة. أحس نفسي واقعاً بسرعة خيالية في بئر مظلمة لا قرار لها. هناك أشياء كثيرة غير الضحك في الحياة...

وهذا الملتزم؟ مسكين! ما الذي يستطيع أن يفعله في عالم خاضع لقواعد ثابتة منذ ألوف السنين. ليس هناك شيء فوري على الإطلاق! فحتى الطلائع التي تدعي الرغبة في إصلاح الأمور تصبح أسوأ من الكل في الكل حين تمتطي ظهورنا الغبية! في الحياة... هناك أشياء كثيرة غير الإلتزام...

بمرور الزمن تعمقت الهوة بيننا. أصبح لكل واحد وجه واحد. تخيل عملة لها وجه واحد، إذا كان من الصعب عليك أن تتصور عملة لها أربعة وجوه!

أصبح الملتزم يدعو الحكيم سقراط. والبكاء الخنساء. ويسمي الضحاك المهرج. بينما أمسى البكاء ينادي الضحاك: يا جحا. ويدعو الحكيم: الطيب. والملتزم: الحجاج.

أما الضحاك فيسمي الملتزم الدكتاتور الواعد. والبكاء المستبكي بالله. والحكيم: حكمت الله أفندي.

وأما الحكيم فينادي الضحاك: سامحك الله بك. والبكاء: سلوان باشا. والملتزم: صدر الملتزمين.

لا تسلني كيف تجيد الأيام صنع الأشياء. فكل شيء كان مهيأ لذلك اللقاء الذي ضمنا جميعاً: سقراط، الخنساء، المهرج، جحا، الطيب، الحجاج، الدكتاتور

الواعد، المستيكي بالله، حكمت الله أفندي، سامحك الله بك، سلوان باشا وصدر الملتزمين.

هل تستطيع أن تتصور كيف كان النقاش؟

كان أعنف من أي نقاش في أي حزب أو برلمان. حدثت جميع الإنقسامات الممكنة. حتى غير الممكنة حدثت. وأصبح كل واحد من هؤلاء الإثني عشر ينادي الأحد عشر الآخرين بأسماء أخرى، طبقاً للشخصيات التي يراها هو. لأن الحقيقة هي ما يراه هو لا تلك الشخصيات الظاهرة المتظاهرة.

وهكذا صار المجموع في اللقاء التالي اثنين وثلاثين ومائة شخص. من بينهم العديد من النساء. فإضافة إلى الخنساء مثلاً هناك مناحة خاتون، عزاء هانم، لَـلاًّ الندابة، مدام دموع، ماديموازيل لوعة...

أي مكان يمكن أن يتسع لكل هؤلاء؟ شقتي؟ طلب من العبد الفقير الحصول على رخصة تأسيس ناد. فتقدمت بكل الأوراق.

لكن، عندما سئلت عن الأعضاء، من هم؟ لم أجد سوى شخص واحد أمام المرآة! انه يشبهني تماماً!

ملاحظة: جرت العادة على عدم تأسيس نواد فردية.

نشطب أم لا نشطب؟

إذا لم يُسأ فهمي، فلا حرج في الإعتراف بأنني لا أحب الإفراط الشديد في الرقابة على صعيدي الصحافة والتلفزيون.

ما الذي يمكن أن يحب من لا يحب الجمال؟

القبح؟

حب الجمال ليس طارئاً أو حادثاً أو عارضاً أو عابراً.

حب الجمال في عظامنا وروحنا، في دمنا وحسنا.

إدراكنا أساسه التناسب التناسق التناغم التوافق التماثل التطابق. وهذه هي الجمال.

تراث القرون الأدبية العربية يسري في عروقي، يحقن كل خلية من خلاياي بجيد الظبي الأغنِ، وعيون المها، وحُق العاج الرَّخْصِ الحَصان من أكف اللامسين، ورضاب الشفاه، والفرع الداجي، والخدِّ الوهّاج، وغصن البان الهيفاء حين تقبل. الفتنة التي تزلزل الدنيا وهي تمر مر السحابة لا ريث ولا

عجل، في خطوتين إلى بيت جارتها... الرداح التي تمطر لؤلؤاً من نرجس وتسقي ورداً وتعض على العناب بالبرد... العربية التي تبدو طلائع لحظيها فإذا هي فتاكة فتانة، ترد القلوب منكسرات، كلما راحت كاسرة أجفانها. تلك التي خطرات النسيم تجرح خدّيها، ولمس الحرير يدمي بنانها... الفاتنة التي إذا تبسمت افتر ثغرها عن برق لامع، استجبنا له نحن بهاطل غزير من الدموع...

خمسة عشر قرناً، أضف إليها الجاهلية وخلاياي، خلية خلية، تختزن عشق الجمال. وآتي في هذه السنوات الأخيرة من هذا القرن الرديء، وأعلن حرباً على كل الجمال المخزون المتوارث في روحي ودمي ومشاشي؟!

وكيف أستطيع إقناع سليمى وهند وخولة وليلى بأن كل ما قيل كان مروقاً وكذباً وافتراء؟

كيف أقول لهن إنكن وجوه جهنمية وخسران مبين؟

كيف أقنع كل شعرائنا، من امرىء القيس إلى أحمد شوقي ونزار قباني، بأن كل ما قالوه هراء وافتراء وقبائح ومنكرات؟

لا بد من حل لهذه المسألة: من منا على خطأ؟ المتمسكون بهذه الآراء أم كل القرون الماضية؟

هل نشطب كل التاريخ الأدبي العربي ونستريح؟

كلاب التقدّم

كلمة مضحكة ولا شك! فالتقدم لا معنى لـه إلا بقـدر مـا تعـارف عليـه الناس من أوهام. فإن هذه الكلمة أو هذا المصطلح لا يعني الكثير، لا يعني شيئاً في نظري أنا على أقل تقدير. ما هو التقدم؟ لست أدري!

ولكن المسألة ليست بهذه السهولة، إذ لا يمكن أن يقف الإنسان العـاقـل أمام كلمة على هذا القدر من الضـوضـاء والصخب دون أن يحرك سـاكنـاً من مخه.

التقدم مثلاً هو الفارق بين لسان الكلب والكاسيت. فقد كانت أمي تقـول لي وأنـا طفـلٌ: «كم تهذي؟ كم تتكلم؟ كـأنك ابتلعت لسـان كلب!» وقـد تنبـأت بمستقبلي! أما اليوم فقد تقدم الناس وأصبحوا يقولون: «فلان ثرثار كأنه ابتلع كاسيت»! وسيقولون غداً أشياء أخرى.

لكن للكلب علاقـة كبيرة بـالتقـدم على هـذا المسـتـوى الصـوتي، ولعلكم تذكرون كيف كانت أجهزة الحـاكي من صنـع مـاركـوني تحمـل صـورة كلب ظريف، عندما كانت الأسطوانة الواحدة أثقل من أسطوانة الرياضيين اليوم، حين كانت إبرة الحاكي أشبه بالسلاح، لصلابتها ومضائها.

أما اليوم، فقد أصبح ماركوني متقلصاً مثل بلده إيطاليا، التي كانت الإمبراطورية الرومانية العظمى، فأصبحت اليوم كائناً جغرافياً صغيراً طافياً على صفحة البحر الأبيض المتوسط. اليوم الإمبراطورية للعلم، للتكنولوجيا، للمخ. أصبح التوسع فكرة تخرج من الرأس، لا ضربة من اليد. واحتلال أدمغة الآخرين أقوى من احتلال أجسامهم. وذلك ما قاله علماء ألمان للأميركان عندما اقتادوهم عقب الهزيمة في الحرب العالمية الثانية: «إنكم أسرتم أجسامنا، أما عقولنا فهي لنا».

وعلى ذكر الحرب، ان التقدم هو الحرب. أو قل إن شئت الحرب هي التقدم. فالمسألة هي هي: إن تقدمت حاربت، وإن حاربت تقدمت. لأنك ستظل تبحث عن الأسلحة الأقوى، فتكتشف أشياء في الطريق، لم تكن تهدف إليها.

تقدم عظيم، أن ينتقل الإنسان من قتل أخيه بصخرة على جمجمته، إلى إهلاك مدينة كاملة بقنبلة نيوترونية تبيد الأهالي وتدع العمران قائماً، لأنه أهم من الإنسان! «فالمنطق» يقضي بأن تكلفة صنع الإنسان أقل بما لا يحصى من تكلفة تشييد عمارة! أما القنبلة الهيدروجينية فلا تدخل فيها هذه الحسابات التجارية.

لكن الفضل في تأسيس حروب المستقبل سيعود إلى كلب لا إلى إنسان! فالكلاب هي التي كان لها الشرف الأول في غزو الفضاء، عندما صعدت الكلبة الروسية «لايكا» إلى الفضاء و«استشهدت» هنالك، بينما لا تزال ذكراها خالدة على علب السجائر الروسية.

أليس الروس بأذكياء؟ فقد اختاروا لإسم «لايكا» شيئاً يـ..ـعد إلى الفضاء: دخان السجائر! فتظل التحيات تترى ما اشتعلت في أصقاع الروس سيجارة.

أجل، إن ما يصنعه الإنسان ليس في هذا العالم أكثر من دخان. «دخان ورماد... فات المعاد!».

كم من حضارات كانت لها أعظم النيران والأنوار، ثم خمدت كل نار، وخبا كل نور، ولم يبق منها سوى دخان ثقافي يتصاعد أمام ناظر متأمل، أو قارىء كتاب.

فارغة هي الحياة من المعنى، لولا ما نضيفه إليها، ونضفيه عليها.

هباء هي المدنيّة لولا ما ينفخه فيها الإنسان من روحه، من روح روحه، من روح الأرواح، فتبقى، فتدوم، فتخلد.

هراء هي الحضارة إذا كانت هضمًا بالمعدة، وهضمًا بالمعدات والعتاد فقط.

فعندئذ لا فرق بينها وبين نباح الكلاب، فالكل حركة، ذبذبات، موجات، وليس ثمة في الفيزياء حديث عن طيب وخبيث، عن جميل وقبيح، عن تقدم وتأخر.

ألبانيا

أسفي لهذه الأمة، كم تدنى العلم فيها، وانهار بُنيان المعرفة. فما من زقاق أو زنقة إلا وبها دكان به عشرات الأنواع من الألبان. فإذا سألت أحداً عن ألبانيا إرتج عليه وتلعثم وتعرقت يداه واصفر وجهه. وأصل هذه الكلمة، أن قبيلة صغيرة كانت تقيم بتلك الربوع. فإذا بالغزو يأتي عليها لا يترك لها زرعاً ولا ضرعاً. وقتل من قتل وفر من فر. عدا عجوزاً دمروا كوخها وقتلوا بقراتها وهموا باتلاف ألبانها فقالت نائحة متفجعة:

يا لتعسي، أين كوخي؟
ما رحمتم حاليا
كل مخلوق وان عا
ش سيمسي فانيا
قد بقرتم بقراتي
فاتركوا ألبانيا

كان يا ما زال

قال أبو الزبائد:

من غرائب القيم في غوابر الأمم، أن شعوباً كانت تهيم باللامعقول، فلا هي تعمل ليومها، لأن الساعة التي هي فيها ليست لها، ولا هي تؤسس لغدها وتشيد مستقبلها. فما أعجب قوماً حاضرهم ليت وآتيهم هيهات!

يهيمون باللامعقول؟

هم كذلك! تخيل أنه لم تعشق قبيلة أو شعب الحرية عشقهم إياها. ولكنهم لم يستنشقوها، لا شموها، لا شربوها، لا لبسوها، لا ذاقوها، لا سمِعوها، لا أكلوها، لا لمسوها، لا عزفوها، لا عاشوها، لا كتبوها، لا قرأوها، لا رسموها، لا ولدوها، لا ربّوها... فهي لديهم كالعنقاء!

فإذا تساءلت عن العلة فاعلم أنهم كانوا من هواة غرائب القيم. يقولون: يجب أن تكون لنا دائماً مثل عليا لاتبلغ، لكي نظل أبداً متعلقين بها. أحلام وأمنيات عذاب لا تتحقق. فيظل للمرء شيء ينشده. كل المبادىء السامية يجب أن تظل سامية أبعد من الأرض بكثير كثير... لا تدنسها يد آدمي. خسىء! أتراها مال أبيه حتى يدنسها؟

يقولون: لو ترك الناس على السجية بلا قيود لعفّروا محيا الحرية البهي السني بالتراب. فلا يلثمن ابن أنثى فاها الكرزي. كانوا يخافون عواقب ما وقع فيه الشاعر:

وألثم فاها كي تموت حرارتي

فيزداد ما عندي من الهيمان

الحرية حسناء فاتنة. هي عرض القوانين وشرفها. والقوانين والدساتير جعلت كلها للدفاع عن شرف هذه الحسناء. لا تختطفنها عصابة إرهابية. لا تَصِمَن شرفها شرذمة أو حفنة من أعداء غرائب القيم، فتجرها إلى الإنحراف فتمسي بنت الأصول لا قدر الله...

هكذا ترسخت غرائب القيم وأصبح لها بنود ومواد وتبصرات وتذكرات وهوامش وحواش وشروح ومنظرون أبرار ومفكرون أحرار... ولما كانت الحرب أولها كلام فقد وضع الكلام في قفص الإتهام بوصفه العدو رقم واحد. فالحكمة ترى أنه إذا كان الكلام من قصدير ونحاس، فالسكوت من ذهب إبريز وماس.

الحمد لله على أن الأمم تنبذ هذه الحكم. وإلا ما فتح فيها فم. ولاختار الناس موضعاً آخر لإدخال اللقم.

إنبثق الحل فجأة كالبرق اللامع في أذهان أرباب غرائب القيم: نقنن الكلام. والسلام.

كيف؟

يقول أبو الزبائد: كانت الحلول لا تُحصى ولا تُعد. ولا تخطر منا على بال أحد. اللهم لا شماتة ولا حسد. فتلك أمم اختارت لجيدها حبلاً من مسد!

قال أحد حكماء غرائب القيم: نقطع الألسنة تماماً ونستريح. فما أن يولد المولود حتى نقطع لسانه. فتصبح المسألة عادة وتقليداً. لأن المصيبة إذا عمت

هانت. ألا ترون أن الخِتان مفيد. ويقي المرء ألواناً من الداء. قطع طرف اللسان أيضاً يقي المرء سرطان التعبير. فيُختن الإنسان من اللسان أيضاً.

فردوا اقتراحه قائلين: لولا لسانك ما كنت لتبين هذا البيان والتبيين. ثم إن اللسان يصلح للغناء والثناء.

قال حكيم آخر: بل نمنع الكلام في الشوارع والميادين والساحات وسائر المحلات العامة. فلا يفتح المرء فمه إلا متثائباً أو ساعلاً.

فأجابوه: وهل تستطيع أن تمنع الناس عندئذ من الزحير؟ وكيف لو أخذوا يقلدون أصوات الحيوان دون كلام؟ فإذا المدن أسوأ حالاً. أتراك تجرؤ على اعتقال لفيف من الناس يختارون ساحة عامة ويأخذون في النباح والنهيق والنعيق والخوار والزئير والمواء...؟ إنك لا تقدر حتى على إصدار قانون يمنع الناس من الرغاء والثغاء، وإلا اعتبرتهم، بغير حق، إبلاً وخرافا.

صاح في تلك الحيرة والذهول حكيم قال:

وجدتها. نكم الأفواه. نجعل لكل فم كمامة يقتنيها الفرد على قياسه بحر ماله. ونفرض عليه ضريبة. ونضع الكمامات أشكالاً وألواناً. بعضها زهيد بخس الثمن كأنه صنع في بانكوك أو هونج كونج، وبعضها الآخر فخم فاخر من أجود الجلود ذات الفرو والمرو، إذا كانت لجاماً، ومن أنقى المعادن إذا كان رسناً.

ويضع المرء الكمامة بنفسه كل صباح قبل الخروج من بيته. وظيفة يومية. تماماً مثل سائر الأشياء التي يقوم بها كل يوم قبل مغادرة المنزل.

حسن هذه الكمامة في نظر ذلك الحكيم أنها لا تعرقل صاحبها. فلديه الكثير من طرائق التعبير عن الضروريات كالتحية والرد عليها... يحرك حاجبيه، يغمز بعينيه الإثنتين... يفتحهما، يغمضهما بالتناوب أو معاً، يرقص أرنبة أنفه ومنخريه. أما الرأس فيستطيع أن يحركه بألف طريقة وطريقة. فهل يحتاج إلى

أكثر من ألف وسيلة تعبير؟

هناك إذن حرية تعبير فظيعة. أليس كذلك؟

قيل لهذا الحكيم: لقد نسيت شيئاً مهماً. إذا كانت هذه هي الحجة الدامغة لديك، فذلك الذي تكم فمه، يداه طليقتان، ووسطه حر ورجلاه بلا قيود. وبيد واحدة يستطيع أن يعبر إلى أبد الآبدين كالصم والبكم.

فبهت الحكيم...

قال آخر: نجعل الكلام مقنناً. لكل فرد من الأمة حصة كلام. بل نجعل لحرية الكلام بطاقة نوزعها على الأكفاء والثقات. على المقربين. ومن خرج على القانون ضربنا عنقه.

قيل له: أتدري كم تخلق هذه الطريقة البائسة من مشاكل نحن في غنى عنها؟ يا لضيق الأفق!

تفتقت فكرة بدت لأحد الحكماء عبقرية. قال: نجعل في كل شبر أذناً صاغية. ولكل ساقطة لاقطة. ونجعل لكل حديد مبرداً.

قيل له: رأي سديد. لكنه غير عملي. كيف نسخر نصف الناس لمراقبة نصف الناس؟ ومن أين لك أن تمنع أدوات التعبير الأخرى؟ فإمكانات الإعلام والتعبير أكثر من أن تحصرها في الكلام!

هنا، صرخ أحكم حكماء غرائب القيم في غوابر الأمم قائلاً:

أنا ابن جلا وقصّاب الكلام
متى أضع الرقابة تعرفوني

أقترح أن نطور رؤيتنا للأشياء. فنجعل الرقابة خميرة لقمة العيش. نجعلها هورموناً خاصاً في كل حبة أرز وكل حبة حنطة أو ذرة. في كل قطعة

سكر وكل قطرة ماء. نجعلها الخيوط التي منها الثياب. عندئذ يغدو الهم في الراس لا في الكراس. وتمسي الرقابة في الصدور لا في السطور... في الأفكار لا في الأوتار... في الأذهان لا في الألوان...

قال أبو الزبائد واضعاً يده على جبينه مستنداً إلى الجدار: يا لغرائب القيم في غوابر الأمم!

مانيلا

جاء في كتاب «ما نيلَ في مانيلا» أن زمرة من أهل الظرف واللهو صالت وجالت في أصقاع الشرق الأقصى، وقالوا فيها أشعاراً كثيرة مليحة كانوا يغنونها في مجالس طربهم. منها:

بلدةٌ ترجع الشباب فترجو
بين أرجائها مقاماً طويلاً
نيلَ ما نيلَ من هوى ووصال
لا تسل عن فتوحنا: ما نيلا؟

فتغنت بها الركبان فشاع الإسم فسميت المدينة مانيلا.

انحصاريّة الأزياء

كلما تذكرت لافونتين، صاحب الأمثولات، ذات الأمثال والحكم، إبتسمت إبتسامة ساخرة. فهذا الشاعر الفرنسي يقول في إحدى أمثولاته: «الزي لا يصنع الراهب».

كلام نصفه، على أقل تقدير، فارغ.

لقد ظللت سنوات طويلة أفكر في هذا الموضوع، وفي كل مرة تزيدني الأيام أدلة وبراهين على صحة محل ابتسامتي من الإعراب، إلى أن قطعت كل الشكوك باليقين عندما قرأت فصلاً لأبي الزبائد تحت عنوان: «إنحصارية الأزياء»، فقد ألهمه الله سبحانه وتعالى الأفكار ذاتها التي ألهمنيها. يقول:

تخيل مسار التاريخ بدون ملابس. المسألة ليست رسمًا كاريكاتيرياً. فمنذ سنوات عديدة وأنا تلازمني فكرة أن التاريخ كله قائم على الملابس. وإلا لكان عالم القيم عدماً أو ضرباً من ضروب العدم. فلا وجود للقيم والمبادىء السامية إلا بالثياب.

ويضيف لافضّ قلمه: الذين خاطوا الملابس الأولى أو صمموها، إنما صمموا وخاطوا الأزياء للقيم على طول التاريخ.

أية مصادفة عجيبة هذه، فأبو الزبائد يرد على لافونتين قائلاً:

ليتخيل لافونتين رجلاً وقوراً، قسيساً من أهل الذخائر والبصائر يتصدر جماعة ويخطب فيهم خطبة عصماء، في مناسبة عظيمة، وهو في بنطلون جينز وقميص قصير من قمصان الغلمان في أيامنا.

ويستدرك المصنف كأنما نسي شيئاً مهما: لا داعي إلى تخيله على صورة أخرى. لا... لا... فذلك كاف. سترى فوراً أن القيم التي ذكرتها قد تناثرت تناثر أوراق التوت. فورقة التوت هي القيمة الأولى. الخلية الأولى التي انبنى عليها صرح القيم. كما جاء في قول الشاعر:

أوراق التوت لها قيمُ
فإذا سقطت سقطت قيمُ
أثمار الدنيا قيمتها
بالقشر وإلا تنعدم

وقال آخر:

ما الراهب إلا أثواب
لولاها فوراً ينـدثرُ
هذا يختال بجلباب
لولاه ما زاغ البصرُ
يتشدق بالكلمات فإن
جردته لم يبق الأثرُ

هذه الأفكار والخواطر يعيدنا بها صاحب الفرائد إلى أمة من الأمم الغابرة، كانت لا تقول بانحصارية الأزياء. يفصل المصنف ذلك قائلاً:

أدرك عقلاء تلك الأمة أن انحصارية الأزياء أصبحت مطلباً عزيزاً، ومراماً ملحاً لدى الكثير من الفئات. فأصدروا قراراً، ذهل له الناس، بالغاء أية إنحصارية في الملابس. وكانت فئة الرهبان والكُهّان أشد الناس استنكاراً وثورة على ذلك القرار. إلا أن أصحاب القرار تلقوا تقارير بأنك أيها السلطان إذا حكمت عليهم بالظهور أمام الناس بثياب عادية فقدوا خمسة أرباع أبهتهم. لأنهم أساساً لا يملكون أفكاراً ونظريات مهمة بناءة ولا يدعون إلى أية قيم حقيقية. وما عليك إلا أن تحضر مجالسهم وترى بنفسك. وإلا ما الذي أنجزوه طوال السنين والعقود والقرون الماضية؟!.

بقي أن نتساءل مثل أبي الزبائد:

ما الذي يبقى من وقار الكاهن أو الراهب إذا هو خرج لاتباعه في سراويل قصيرة وحذاء رياضي؟ والشاعر يقول:

لولا الملابس ما كانت لنا شيم ... ولا تحدث انسي عن القيم

فذاك جلبابه رمز لمعرفة ... وذا وقاره بالطرور لا الحِكَم

تجربة الكآبة

هكذا جاء عنوان هذا الفصل لأبي الزبائد.

يقـــــول:

رأيت أدباء آخر الزمان لا يغريهم شيء كالكآبـة والإكتئـاب. حتى خلتهما حليتين نفيستين على الفضلاء والعقـلاء والحكماء التحلي بهما مـا اختلف الليـل والنهار. فتساءلت في نفسي وقلت:

يا نفس مالك تقعدين عن معالي الإكتئاب وعلياء الكآبة، ولا تقتدين بأبرار الكلمة وأحرار الحرف؟ وارتجلت قائلاً:

يـــا نفـــس جـــودي بـالكـآبـــة علَّنـــا

بــالإكتئـــاب نحـــرر الأوطـــانـــا

وعقدت العزم على الإقتداء بالصالحين في دنيا الكآبة، الزاهـدين في بهجـة الحياة والطموح والتقدم والتطور ورباطة الجأش في مقاومة العقبـات دون الغـد الأفضل. فما الحياة في نظر حكماء الكآبة إلا حزن على أسى، وغصـة على غمـة، وقلق على نقمة، وسخط متخاذل، متوان، متقاعس، جالس على قارعة الحضارة، يتأمل ويلعن ويبكي حظه العاثر. وما دام حكماء الإكتئاب قد رأوا صلاح الأمـة

في ذلك فعلام أسأل عن أشياء إن تُبْدَ لي تسؤني؟ وخشيت حتى الإستخارة في الكآبة والإكتئاب حتى لا يضحك القدر!

قلت: أنا لها. فمن اليوم والساعة لأنهجن النهج، وأسلكن المسلك، وأمخرن عباب سبعة بحار، واعبرن سبعة قفار، لأبلغ جزيرة الشجن والشجى، ذات الألف ليل وألف دجى. ولا أدع خلة من خلال ساكنيها إلا تحليت بها. ولا سلة من سلال قاطنيها إلا كمشت كمشة من ثمارها، وحفنة من غمارها.

تأملت نفسي في المرآة، فإذا أنا حليق الذقن معطره! وكيف يبلغ للاكتئاب أفق، بربطة عنق؟

قلت: من هنا نبدأ!

أطلقت لحيتي ثلاثة أيام بلياليها. حتى عدت كأنني موقوف في مخفر منذ ثلاث ليال بأيامها، أو أحمل الطور وثبير وقاف وسلاسل الأطلس والبرز والهمالايا أحزاناً وأشجاناً على كاهلي. حتى لم أعد أنا. قلت لذلك الشخص الذي في المرآة:

هكذا... هكذا... وإلا فلا لا، من اللحية يبدأ التوفيق الربّاني في الإكتئاب. والآن أنفش شعرك ولا تغسله أياماً معدودات، حتى تمثل الطبقة الكادحة. ها أنذا بيدي زمام الآداب والفنون. كل الشروط التي يجب توفرها في المثقف الحقيقي المبدع: المظهر المزري، الوجه البائس، والإستعداد لصب جام الغضب على أي شيء وأي كان متى كان وحيثما كان... والقدرة، عند الكتابة، على قول أي هراء وأي هذيان... فذلك من أسباب حسن الطالع وعلامات الإقبال. آمين. يا رب الحداثويين.

لكن سرعان ما اكتشفت أن هناك شيئاً ما ناقصاً: أنا لا أدخن! فكيف يمكن أن تتم الصورة؟ وانها للمسة لولاها بطل المشروع وتعطل المخطط من الأساس. فبدون التدخين لا يكون المرء فناناً ولا مثقفاً. وحتى أكون أهلاً للكآبة والإكتئاب. فالتدخين يجعل الزفرات أحر وبه يتجسد التنهد.

فوراً إلى السوق. وما أسهل أن يقتني المرء تبغاً. اللفافة الصغيرة لا تبدو في مستوى الأحداث والحداثة لضآلة حجمها. فليت لمن رام الإبداع لفافة بطول عادم الشاحنة الثقيلة وضخامته وعنفوان نفثاته المازوتية الديزلية، حتى يكون الدخان في مستوى الكآبة والإكتئاب، ويمثل عصر التلوث بحق! والآن: شعر منفوش، لحية طليقة كلحية فاقد أقاربه في زلزال أو قصف قبل ثلاثة أيام أو الخارج من السجن بعد ثلاثة أيام غم وهم لمجرد اشتباه في الإسم. ولفافة تبغ ونظارات تقف على طرف الأنف لتدل على ذهاب البصر فداء للعلم والمعرفة والفن.

إرتديت قميصاً فضفاضاً جداً. وسراويل ضيقة جداً تشلني عن الحركة. لأن عدم القدرة على الحراك من مسببات الإكتئاب. وللتأكيد على التناقضات والإختلافات الطبقية والوجودية بين الضيق والفضفاض لضرورة التحام الشكلوانية بالمضموانية كما يقول حكماء الحداثوانية.

المهم، توكلت على الله لكي يجمع لي جميع عفاريت الحزن وأشباح الأتراح ومردة القتامة وشياطين الحنادس. وقلت:

«هذا أوان الحزن فاشتدي حَـزَنْ».

رفعت ستار الخجل وحدقت في المرآة. مباشرة. كانت نظراتي بثاً مباشراً دون تلعثم أو اهتزاز. وقلت لنفسي بحزم أبطال الكآبة:

ها أنذا الكثيب المكتئب الكؤوب الكائب الكؤبوب الكبة الكباب...

لست أدري، من قليل الأدب الذي انفجر فجأة بالضحك، وأفسد عليَّ تجربة الكآبة!

رغم الإحباط تحاملت على نفسي، وقلت مرتجلاً:

«حاملٌ مشعل الكآبة في الأمة لن أنثني ولن أتوانى».

حدقت في المرآة جيداً، ملياً، بحدة واحتدام.

ركزت على كل حاسة على حدة، لكي تجلب كل حاسة تنينها بقدراتها الخاصة. أريد أن تنطق المرآة بعناكب الكآبة وخفافيش الإكتئاب، ببوم كئيب، بجمجمة مكتئبة. أريد أن تتجسد على ملامحي كل مصائب الأمة لأحمل رسالة الكآبة الخالدة.

إستجابت المرآة. ولبّت سماء الحداثويين دعاء طالب الإكتئاب، المتوسل إلى رحمة الكآبة.

ولكن، ما كدت أطير فرحاً لبوادر الخير، حتى وقعت على الحقيقة المرة. فقد بدأ أنفي يطول حتى صار كأنف بينوكيو. وبدت أذناي أطول بكثير من آذان بني آدم.

ـ كآذان الأرانب؟

ـ كلا، أكثر بكثير!

أما عيناي فقد باتتا كمصابيح سيارات الشرطة والإسعاف. دوّارة... دوّارة. ترافقها في سمعي أصوات تنذر بالويل والثبور. كالنفخ في الصور، وبعثرة ما في القبور.

بيب... بيب... بيب... بيب... وتراكمت البيبات حتى صارت تل بيب.

أصوات تتردد كتلك التي يسمعها المرء في جلسات استحضار الجن والأرواح:

ـ يا كؤبوب... يا كؤبوب...

يا كآب... يا كؤاب... يا كبة يا كباب...

أحسست فجأة بأن الإلهام الإكتئابي الذي سينقذ الأمة، صار قاب حزنين. لكن لم أكد أطير فرحاً لهذا النبأ العظيم حتى انطلقت قهقهة أخرى محت كل الإنجازات التي شيدتها!

يا لسوء الطالع. كيف أستطيع أن أدخل سوق حملة رسالة الكآبة في هذه الأمة بأنف كبينوكيو، وذقن كهيتشكوك، وحاجبين كبريجنيف، وعيني ضفدع، وشعر قنفذ؟!

أي وجه حداثوي هذا!

فشلت تجربة الكآبة، فقد أدركت أن الوقوف أمام المرآة على نحو يليق بالحداثة يحتاج إلى الكثير من قلة الحياء!

واشنطن

يسألونك عن واشنطن. قل انها من يسير الأمور. فطلائع الجحافل التي احتلت تلك الولايات استقرت بمكان فيه خير عميم، وظلت تتحين الفرص للإستيلاء على سائر البقاع. وإذا بأحد الواشين يبلغ زعيم الغزاة بسنوح الفرصة فقال زعيمهم:

و «واشِ طَنَّ» في أذني:

ألا آغنم فرصة الزمن

فَخذ ما شئت من مدن

بلا خوف ولا وهن

فقد عرفت شعوبهمو

بطول النوم والوسن

دعاء

ربّـنــــا...

أزل غشاوة الغموض عن قلوب متشاعرينا

وآشف تشكيليينا من عمى الألوان

ونجّ نقادنا من الهذيان والنفاق

ربّـنــــا...

نسألك ذرّة صوت للمطربين وذرّة ذوق للملحنين

وذرّة ضمير لمراقبي الفنون

وأنت جميل تحب الجمال

فما لعبادك دكوا الفنون؟!

جمهوريّة الغزل

رَبِّ زدني حبّاً

الأزمة الراهنة منذ الأزل

قال أبو الزبائد:

عندما أسمع أو أقرأ ما يقوله الرجال عن النساء، ومـا تـردده السيـدات والآنسات عن السادة، أقطع الشك بألف يقين أن العـلاقـة بين الجنسين أخطـر بكثير من الحرب الباردة، أيام زمان.

تصور حرباً باردة وساخنة، قائمة على قدم وساق منذ آدم وحواء.

شيء لا يُطاق! حتى أن كـل جنس يتبرأ من الآخـر. فنحن أبنـاء آدم. أمـا هُــنَّ فهن بنات حواء.

لا أحد يقول نحن أبناء حواء.

ولا واحدة تقول إنهن بنات آدم.

لو قال أحد نحن أبناء حواء، لقيل له: يا عديم الشرف تنتسب إلى أمك؟ لا أبا لك، ويحك ويح أبيك!

ولو قالت إحداهن إنهن بنـات آدم، لقيـل لها: إسترجلت واخشـوشنت... قبحاً لك ونحن منك براء.

حربٌ طاحنةٌ، جذورها في عمق أعماق التاريخ.

لكننا نستطيع أن نجد علامات مضيئة تهدينا إلى أصل المشكلة التي لا تحل ما اختلف الليل والنهار.

في البدء، كانت التفاحة التي طردت آدم وحواء الجانية من الجنة، وحرمت أجيالاً ممتدة من مئات ألوف السنين إلى العبد الفقير، كاتب هذه السطور، من الأرائك والنمارق والسرر المفروشة، والزرابي المبثوثة، ومن أنهار العسل المصفى، والخمر الحلال التي لا صداع بعدها ولا هم يحزنون. ولا ننس الحور العين في القصور الذهبية، لم يطمثهن إنس قبلهم ولا جان... وكل الرغبات تستجاب في لمح البصر، في أجواء لا لغو فيها ولا هراء. أجواء هي عين الرضى والرضوان.

تفاحة تكلفنا كل هذه المآسي؟

أية تفاحة باهظة الثمن هذه يا أم بنات حواء؟!

اليوم أصبحت لديَّ حساسية من جميع أنواع التفاح. حتى تلك الأنواع التي لم أرها. فهناك عشرة آلاف نوع من التفاح على وجه الأرض. حتى البطاطا تصيبني بالحساسية بما أن الإيرانيين والفرنسيين يسمونها: تفاح الأرض باعتبار التفاح الآخر تفاح السماء. أي التفاح المذنب لا البريء مثل البطاطا.

هل هناك أشياء لم تجدها في الجنة وسمعت أنها موجودة على الأرض فتآمرت علينا وورطتنا هذه الورطة؟

مؤامرة لا قبلها ولا بعدها.

كم كنا في غنى عما لدينا من مشاكل لا أول لها ولا آخر.

لو بقينا في الجنة، هل كنا سندفع إيجار شقة أو فيلا أو غرفة على سطح من الصفيح الساخن؟ والكهرباء والماء والهاتف وكبسولة الغاز وإصلاح الفيديو والمكنسة الكهربائية.

أهل الجنة مرتاحون من هذه المشاكل. لا أحد يعبىء ضرساً عند طبيب الأسنان ولا أحد تطلع روحه يومياً من جراء محنة إبرة الأنسولين اليومية.

دعنا من مشكلة تلوث البيئة، أصلاً لا يحتاج أحد في الجنة إلى محل لتصليح السيارات يمتص دمه ودماء بنيه وبناته. هناك وسائل نقل أكثر تطوراً. ثم ان الوسائل، على ما يبدو، كامنة في الإنسان نفسه. هو الذي يتنقل كيفما يشاء دون إحساس بالمسافة أو الزمن. هكذا يبدو والله أعلم.

أما البيئة، فكم كنا سننعم بمحيط ليس فيه أكياس زبالة ولا صحف لمسح الزجاج. ولا عوادم ولا غلايين أو سجائر أو مداخن مصانع الإسمنت لتلويث الهواء. ولا نفايات كيمياوية لتلويث المياه وتسميمها وقتل الملايين من الطيور والمخلوقات العديدة المائية. ولا مفاعلات نووية تتسرب إشعاعاتها إلى الإنسان في الرحم والحيوان والنبات.

بيئة نظيفة مائة في المائة. تختفي فيها الفضلات والنفايات قبل أن تظهر.

وما هذه الكوارث سوى فيض من غيض، وإن شئت فقل فيض من غيظ حواء على البشرية عبر العصور.

أي حقد أسود هذا الذي قد يتحول في يوم من الأيام إلى فناء الآدميين والحوائيات على وجه الكرة؟!

تفاحة لا تساوي «نكلة» تغرق المليارات من الناس في أزمات ليست أزمة الخليج، الأخيرة في مسلسلاتها.

تصور، تفاحة حواء هي المسؤولة عن الحرب الباردة بين عملاقي عصرنا، هذه الحرب التي أدت إلى حرب النجوم وأغرقت الميزانية الأميركية بالديون. وكاد العجز يصيبها بالكُساح.

حواء، بقضمها تفاحة واحدة، هي المسؤولة مباشرة عن سبعين سنة من المعاناة في الشعوب السوفياتية. منذ الثورة البلشفية. سبعون عاماً ذهبت مع الريح. وملايين القتلى والمعذبين في مخيمات الاعتقال في أرخبيل الجولاج.

هذه المآسي والفواجع لا تستطيع حواء التكفير عنها بإنجاب ميخائيل العزيز الذي شطب تاريخ بلده، وبلده جملة وتفصيلاً.

هل بالإمكان نسيان كل هذه المشاكل؟

الحرب العالمية الأولى، الثانية، والبقية تأتي، والحبل على الجرّار.

وإذا لم ترق هذه الحقائق للسيدة المدعوة حواء بنت لست أدري من، فإن بإمكاني تعرية المزيد من الحقائق التي تكشف مدى تورط المتهمة في كل المآزق والأزمات.

هل نكشف؟

من المسؤول غيرها عن حملات الهكسوس وهجمات المغول؟

من المسؤول عن إحراق روما والحروب الصليبية؟ وإبادة الهنود الحمر؟ واضطهاد الأفارقة من قبل الهولنديين والبرتغاليين والفرنسيين والإنجليز؟

من المسؤول عن حرب البسوس وحرب السويس؟

من المتورط في تفشي الأوبئة من الطاعون والجدري والتيفوس والإيدز؟

الإيدز، أخطر لأنه مشكلة أخلاقية فوق كل شيء. كيف تورط أم أبناءها وبناتها في مشاكل أخلاقية قاتلة في النهاية؟

هذه الكوارث التي لا يحصيها إلا المعبود وأجهزة الكمبيوتر الجبّارة، جاءت كلها نتيجة تصرف مشبوه متمثل في قضم السيدة حواء تفاحة.

المسألة منطقية تماماً. يجب العودة إلى أصل المشكلة وجذرها الأول. تماماً مثلما تفعل منظمة الأمم المتحدة في الأزمات الكبرى. فتتراكم القرارات والملفات وتخلق مشاكل جديدة من جراء المشاكل القديمة فتنسى القديمة كما ستنسى الجديدة. وهكذا... لكن العداوة تبقى نافذة المفعول. وهذا، في نظر العبد الفقير، هو السبب الحقيقي في المعارك الإعلامية والحروب الباردة الساخنة، عبر التاريخ وما قبله، بين بنات حواء وأبناء آدم.

بقي أن الحكمة تقضي بضرورة التعايش السلمي ما دام الإكتفاء الذاتي غير ممكن في الظروف العلمية الراهنة.

المصيبة، هي أنه إذا توصل العلم يوماً ما إلى تحقيق الإكتفاء الذاتي للجنسين، فإن ذلك سيرجعنا إلى ساعة الصفر الأولى. فقد كان آدم وحيداً. ومن ضلعه خرجت حواء وأكلت التفاحة وطُردنا من الجنة، إلخ... إلخ...

دائماً هكذا

حدّث أبو الزبائد قال:

أدرِكُ تماماً، بعد أن عشت في العـالم العـربي معظم سنـوات هـذا العمـر الفاني، أن الحقائق ليست مما يُباع في السوق أو يوجد مطروحاً على الطريق.

تقول الحقيقة في العالم العربي؟ أنت مجنون! كل النـاس يقـولـون: لا... والله لو مرّت الحقيقة أمامنا عارية حتى من ورقة التوت مـا عـرفنـاهـا. ولـو عرفناها لأنكرناها. فما حاجتنا إلى التهم والشبهات؟

وكم كانت دهشتي عظيمة، إلى حـد الـذهـول، عنـدمـا فجـأة صرخت في عروقي مليارات السيدات والآنسات وأنا أنظر إلى نفسي في المرآة؟

أي عالم مليء بالأنانية! هؤلاء اللاتي قيل عنهن إنهن قوارير... أوعية...!

قلت في نفسي: شيئاً من العقل والموضوعيـة. فقـد ظلت المـرأة مضطهـدة طوال التاريخ. وكان إبن آدم هو دائمـاً السفّاح. هل تستطيع أن تعكس صـورة ألف ليلة وليلة؟ أنظر براءة المرأة! هل بإمكانك أن تحول شهريـار إلى سيـدة أو آنسة ترفل في الدمقس والخز والحـريـر وتقتـل كـل ليلـة رجـلاً... وأن تـأتي بشهرزاد مذكر يلعب لعبته فيصرف شهريارة عن عادتها الإجرامية الليلية؟

أحد الأزواج المغلوب على أمرهم أطلق صيحة في وادي ذهني قائلاً:

هن أيضاً مصّاصات دماء. هـل كـانت رقيـة وسكينـة رجلين بشـاربين مفتولين؟ عد إلى رشدك أيها الرجل الساذج، فانه لا يوجد في كل تاريخ البشرية رجل واحد يعرف بآكل الأكباد، ولا إبن آدم واحد إشتهر بأنه الرجل الحديدي!

من الذي غزا فوكلاند؟ الفيلسوف برتراند رسل أم مارجريت تاتشر؟

فاجأتني إحدى بنات حواء صارخة:

لقد جعلت المرأة مسؤولة عن كل ما حدث ويحدث من مشاكل في العـالم. خذ مثلاً أزمة الخليج، هل المتسبب فيها رجل أم إمرأة؟ وهتلر؟ هل كان امـرأة؟ إيفـا بـراون هي السبب؟ أم الفـوهـــرر أدولف؟ تخيّل ستـــالين في بيكيني على شاطىء البحر... هل كان بإمكانه أن يصبح سفاحاً تاريخياً لو كـان سيـدة أو آنسة؟ ونابوليون بونابارت؟ ترى هل جوزيفين، التي رفعت مستوى الـذوق في عصرها، هي التي جعلت جيوشه تتجمد في الثـلاجـة الـروسيـة أو تنـدحـر في واترلو؟ عجباً لكم، يا أبناء آدم، تكتبون التاريخ ولا تقرأونه! هـل بـإمكـانك أن تقول لي ان ماري أنطوانيت لم تكن بريئة من المكائد إلى حـد عـدم التمييـز بين الخبز والكيك؟ وتعال قل لي:

زوجة نيرون، إمبراطـور رومـا، هي التي أحـرقت رومـا أم الإمبراطـور المجنون؟ هل يعرف أحـد زوجـة نيرون؟ نحن، بنـات حـواء، كـذلك، ضحـايـا النزعات العدوانية البني آدمية.

إبنة حواء، هذه كانت تصرخ، لكن صراخها لم يكن إلى الحد الذي يجعلني أتخيل انني أمام زوجتي. ومع ذلك سرحت، رأيت صـوراً عـديـدة تحملني الآن على أن أنصفها كـرمـز لكـل بنـات حـواء. ومـا أعظم أن تنصف مليـارات من الآنسات والسيدات ولا تستطيع الوصول ولو إلى قلب واحدة منهن.

لم يستمر الصوت طويلاً فقد أخرسته ضربة فنية من طرّاحة العجين:

نحن، بنات حواء، ألهمنا الشعراء طوال التاريخ أروع ألوان الغزل. وماذا يلهمنا الرجال؟ الإحساس بالرعب ليل نهار من الغزوات المباغتة فجراً، في الماضي بالسيوف والرماح، واليوم بالحروب الجرثومية والكيميائية والنووية؟

حتى عندما حكمت كليوباترا كانت ضحية للحب. ولم تكن ضحية للحرب. كل ما في التاريخ من روائع وبدائع كان من أجلنا: الشعر، الموسيقى، الرسم، الأوبرا، تصميم الأزياء، فنون الجمال والتجميل، الديكور، تزيين الحدائق، الطبخ، الصناعات التقليدية...

ـ هل يكتب رجل قصيدة غزل في رجل؟

ـ أي جمال لأغنية لا تتغنى بمقلتي إبنة حواء؟

ـ لولا المرأة لم يكن هناك مفهوم لدور الأزياء.

ـ التجميل أصلاً يعني حواء وبناتها.

ـ الديكور؟ تصمم غرفة النوم رومانسية لكي تتمدد فيها وحدك كالخشبة؟ ما الجمال فيها؟

ـ أي طبق تأكله وحدك يتحول إلى وجبة سريعة بلا مذاق.

وهلمّ جرّا.

لولا حواء وبناتها لفسد الذوق وانهارت الآمال في حلاوة الحياة.

عدت إلى نفسي، أتساءل: ما الذي دفعني إذن إلى كتابة كل ما كتبته؟

هذه هي المسألة. هذه هي المعركة الراهنة منذ الأزل ولا أحد يستطيع أن يعالجها. وكأنها مشاكل الأمة العربية!

غزل عصر الذرّة

غزلُ عصر الذرّة. هذا العنوان اختاره أبـو الـزبـائد لهذا الفصـل، إيمانـاً بضرورة التطور والتطوير ومواكبة العصر.

ليس ممكناً البكاء على الأطـلال في عصر نـاطحـات السحـاب والمـركبـات الفضائية. فاليوم لا توجد أطلال أساساً. فالعمارة الواحدة تعمّر أكثر ممـا يعمّر الإنسان. والحبيبة لم تعد ترحل. فهي تنتظرك إلى أبـد الآبـدين. وبـإمكـانك أن تستوردها بمبلغ زهيد وراتب شهري محدود.

اليوم، لا شيء يرحل غير الأوضاع. فهل تبلغ بالمرء الغفلة حد البُكـاء على أطلال وضع مرتحل؟

غزل عصر الكمبيوتر؟

هل يمكن أن نخضع أوزان الخليل بن أحمد للغـات الكمبيـوتـر: البيسك، الكوبول...؟ أم نجعل تكنولوجيا الكمبيوتر تحترم تراثنا فتكون أسماء الأنظمـة فيها: طويل، كامل، بسيط، منسرح، سريع، وافر، مجتث...؟

قبل كل شيء، يجب أن نتطير من هذا الكائن التكنولوجي الذي جاء ليفرق العرب ويحرمهم الإتفاق على إسم واحد. بعضهم يقول: كمبيوتر ومن قائل: الحاسب الآلي. ويرى آخرون تسميته: الحاسوب، مثل قاموس، قادوم، ساطور... ومن مؤثر: الناظم الآلي إستجابة لما اصطُلح عليه في فرنسا. وهناك من يكتفي بالتسمية الأولى: العقل الالكتروني.

لقد استطاع العرب القدامى، أولئك البدو الرُّحّل الذين لم تمزق ثيابهم مسامير المقاعد المدرسية، أن يجعلوا الشعر ديوان حياتهم اليومية. أما نحن، فنحن بعيدون اليوم عن الشعر بُعد الشعر عنا.

يجب ألّا نتراجع عن التطوير والتطور والتقدم مهما كلفنا الأمر. حتى ولو جاءت النتائج على غير ما يُرام.

ويقول أبو الزبائد:

إذا وصف طرفة بن العبد ناقته، فأنا لا ناقة لي فيها ولا جمل. سأصف سيارتي قائلاً:

وإنّي لأمضي الهمّ عند احتضاره
بهيفاء زرقاء بست سلندرِ

لها عاد مان أُحسن الصنعُ فيهما
فلا صوت، لا تلويث غير المقدرِ

فسيارة الألمان أقسمَ ربهُّا
لَتُكْتَنَفَنْ حتى تكون كمرمرِ

إذا دُسْتَ بنزيناً بها خِلت أنها
تطير كصاروخ بتوجيه لَيْزَرِ

ومسّاحـــــة من جبـهــــة الــــرفض مَوْقِفــــاً

فـــلا شـــــيء غـــير الـــلاء بـــالنفي تنبري

لها مخمــــل فـــوق المقـــاعـــد نـــاعمٌ

فتقضـــــي بهـــا الســـاعـــات دون تـــوتُّـرِ

فما صهـــوات الخيـــل والنـــوق يـــا تـــرى

إذا انـــدفعت فـــي الـــدرب مـــلء التكبّـــرِ

كيف يمكن للشاعر أن يحيا في القرن العشرين بعقلية ما قبل خمسة عشر قرناً؟

كيف تستطيع أن تصف مقلة الحبيبة بأنها كنانة، وأنت لا ترى اليوم في كل مدن العالم ولا حتى شخصاً واحداً على ظهره جعبة سهام وبيده قوس؟

ما أتفه السهم اليوم؟ ترى ما الذي يمكن أن يفعله السهم المسكين في هذه الحروب الطاحنة التي تنسف المدن نسفاً وتدكها دكاً دكا؟

عـيـنـــاكِ كَتّيـــوشـــا وجيـــدكِ هـــاونٌ

والخـــدُّ نـــابـــالـــمٌ وثغـــركِ لَـيْـــزَرُ

جـــــودي عـــلَيَّ بغـــارةٍ ليليـــــةٍ

فمـدافعـــي عميـــاءُ ليســـت تُبْصِـــرُ

وقد كان للحروب والدكتاتوريات أثر كبير في تشبيب أبي الزبائد الذي رد على قصيدة لصديقه أبي الخوالد في معارضة لأبي الطيب في قصيدته:

فـديـنـــاك مـــن رَبْـــعٍ وإن زدتنـــا كَـــرْبَا

فـــإنك كنت الشـــرق للشمـــس والغـــربـــا

يقول صاحب الفرائد:

إخالُكِ لا تدرين أَنَّ اللّظى شَبَّا
وأنَّ الهوى قد شَنَّ في خافقي حَرْبَا

تحاصرني النيرانُ من كلّ جانبٍ
وأنّى لملهوع بها أن يرى الدربا؟

تَشُنُّ عليَّ الحربَ حتى كأنّني
غصبتُ تراب الحب في قلبها غصبا

وعَبَّأتُ إعلامَ الجوانحِ هادراً
يصوغ انتصاراً من هزائمهِ كِذْبَا

وأَصْدَرَتِ الأضلاعُ فوراً بيانهَا
منددةً بالغزو تشجُبُهُ شَجْبَا

هجوميةُ الساقين ساديةُ الحشا
عدائيةُ الأكتاف إنْ رقصتْ سَمْبَا

أَدولفيةُ العينين نازيةُ اللَّمى
تتاريةُ الأعطاف تنهبني نهبا

بِنُوشِيَّةُ الخدَّيْنِ فاشيةُ الشذى
سُموزيّةُ الأطراف تصلبني صلبا

إلى أن يقول:

أبـــــدُ حـــزنـــــي بـــالســـــلاف تَيَمُّنـــــاً
كمـــا بَــدَّدَ الاعــــرابُ بـــالقمـــــةِ الكَرْبَـــا

وقد بلغ تأثير العلوم ومعارف العصر في قصائد أبي الزبائد حدّ قولـه في إحداها:

فقلـــــت لـــــه لمـــــا تـــأكســـــد زَنْكُـــهُ
وأردف فـسـفـــــــورا ونـــــــــــاءَ بِنيكَـــلِ
ألا أيهـــــا الفِلْــزُ الـثـقـيــــلُ ألا انْجـــــلِ
بحمـــضٍ ومـــا الأحمــاضُ منــــك بـــأمْثَـــلِ

ولم تبق صغيرة أو كبيرة من جـوانب الحيـاة في هـذا العصر إلا وجـدت سبيلها إلى شعره.

لم يكن ممكناً أن يهمل كرة القدم التي لم تعد تدع متنفساً لعلوم أو فنون أو معارف. يقول:

وحــــارس مـــــرمى القلب غــــوفــــل لحظـــــةً
فمــــزّق هــــدّافُ الغـــــرام لــــــه المـــــرمى
فيـــــا حَكَمـــــــاً في ملعب الحب مُنْصِفـــــــاً:
تَسَلَّـلَ هـــذا الحـــبُّ فـــي أضلعـــي ظُلْمـــا

وما كان الشاعر ليهمل كل هذا الركام من المواد الإستهلاكيـة التي تعـج بها الأسواق فارضة العقم والعطل والكساد على المخ العربي.

قلبي لها مسجلٌ

وحبها كاسيتْ

وشَعْرُها كأنهُ

من أجود الموكيتْ

قد زارني غرامها

زيارةَ ترانزيتْ

قلت له: أَقِمْ هنا

وهاك شفروليتْ

لكنما وفاؤه

كما تفي الرّوليتْ

وصرت مثل كرةٍ

وصار كالراكيتْ

أعطيته كفالتي

روحي فدى جورجيتْ

لكنه غَيَّرَها

وقال لي: تُوليتْ!

وقد تأثر الشاعرُ بعصر الذرّة، فقال:

مُفـــــاعــــــل حبكِ أحـــــرقني

فـــفي كـــل حيـــنٍ لـــدي انشطارْ

يُحـــسِّــن ســـهـدي بهجرانـــه

فأخشـــى عـــلى الـصَّـدْرِ مـنـــه انفجارْ

يُـلَـوِّثُ بـيئـــةَ قـلـبي بـــه

ســـأكتُـبُ فـــوراً إلى دي كـــويـــارْ

غزل السلكي واللاسلكي

يتساءل أبو الزبائد في هذا الفصل عما إذا كان بإمكان الشاعر أن يحيا في عصر التكنولوجيا ويتغزل بحبيبته بلغة الوشم والناقة والأطلال؟ يقول:

لا تتقيدوا بالموروث، اجعلوا اللغة تلهث وراءكم حتى تتجدد في عـروقهـا الدماء فلا يدركها الهرم.

ان الذين يدعون إلى تفجير اللغة إنما يقولون كلامـاً جميـلاً، سـوى أنهم ليسوا أكفاء لهذه الرسالة!

حتى الكلام الصيني نستطيع أن نجعله عربياً يعرببياً إذا كنا عرباً بحق.

أوليست لغتنا اشتقاقية؟

تأمل مثلاً غزل شعراء الإتصالات السلكية واللاسلكية. لقـد واكبـوا ركب المدنية وقالوا أشعارهم محتقرين غطيط المجامع اللغوية في سباتها العميق.

مادة «فكس»، لا وجود لها في الضاد. وكذلك «بلب». لكننا نستخدم اليوم الفاكس إختصاراً للفاكسميلي أو الفكسملي. كما دخل البليب حياتنـا من أوسـع باب. وهو جهاز النداء: PAGER .

ما الذي يمنعنا من إضافة ثلاثي فكس وفي الضاد عندنا فقس وفقص؟

فكس يفكس (بضم الكاف وكسرها كضرب وقتل).

قال أحدهم:

فكسـت إليـك ولـم تفكسنـي
وكـم ذا هتفـت ولـم تنبسـي
لـقـد ضـاق ذرعـاً فـؤادي فـجـودي
بـرقـم بليبـك أو تـلـكـسـي

(تلكس رباعي كدحرج فـالتـاء أصلية فيـه، يتلكسُ تلكسـةً، إتفق عليـه جمهور علماء الصرف).

فكس، يفكس فكساً ومفاكسة وتفكيساً وتفكاسا وفكاسـة. فهـو فـاكس وهي فاكسة والجمـع فكسـة كقتلـة وفكـاس كعمال وفكسـاء كعظماء. يقـول الشاعر:

الفـكـس يـتـرى والهواتـف جمـةٌ
وتـلاكـسٌ تعيـا بهـا الـرقبـاءُ
فـإذا هتفـت فـأنـت خيـر مهـاتـف
وإذا فكسـت فـدونـك الفكسـاءُ

والمهنة فكاسـة. وللمبـالغـة قـالـوا فـلان فكّاس، ومِـفْـكَس ومفكـاس وفِـكِّـيس مثل شـرّير وفكوس كصبـور. ويُقـال هي هتـوف فكـوس كلعـوب وطروب. يقول أحدهم:

فكـــــــوسٌ إذا غبـــــتُ عنهــــــا هتـــــوفْ

وعنـــــد اللقـــــاء تـــــدق الــــدفـــــوفْ

إمكانات الغرام اليـوم شيء لم يكن يحلم بـه النـاس ولا حتى في أسـاطير سيف بن ذي يزن:

ظبـــــــــي الفـــــــلا فـــــديتـــــــه

أنـــيـــســـــــــــــــه مـــشـــغـــــــــولُ

هـــــاتـــــــف ســـــــيـــــــارتـــــه

إغـــــــلاقـــــــــــه يـطـــــــــولُ

تـــلـــكـــســـــــــــه مـــعـــطـــــــــلٌ

وفـــكـــســـــــــــهُ مـــغـــلـــــــولُ

لـــكـــنـــمـــــــــا بـــلـــيـــبـــــــــهُ

لحـــــــاســـــــدي عـــمـــيـــــــــلُ

يـــكـــتـــــــب رقـــمـــــــي خـــطـــــــأ

فـــهـــــــــو إذن مـــســـــــــؤولُ

لله در هذه الظباء المدججة في الفلوات بكل الإتصالات. لكن حكايات الحب هي هي. فالعاشق قديمـاً أو حديثـاً واقعٌ في فخ التمنع والصدود. يقول مضنى الإتصالات:

عنـــــدك الفكـــــس والتلكـــــس وأرقـــــا

م أنيســـــي وهـــــاتفـــــي وبليبـــــي

قـــــد شغـــــلت الخطـــــوط عمـــــداً وإلا
كيـــــف كـــــان انشغـــالهـــا يـــا حبيبـــــي؟

كم يغدو الغـرام معقـداً عنـدمـا يصبـح لظبي الفـلا جيش من وسـائل المشاكسة والمعاكسة؟

هذا أحدهم يقول:

ظبـــــي الـفـــــلا فـــــاكـسـنـــــي
فـــــديتـهـــــا فـــــواكـســـــا

أفـــــدي بـــــروحـــــي ودمـــــي
عيـــــونـــــه الـنـــــواعـســـــا

لـكـنـــــه عـــــذبـنـــــي
فيـــــا لـــــه مشـــــاكـســـــا

ترى ما حجـة العـاشق إذا ادعى أنـه لم يجد سبيـلا إلى وصـل الحبيب وفاجأته بالحقيقة العارية، وهي أن سكرتيرته تعرف كل الأرقام؟:

لا، لـيس عـنـــــدك حـجـــــة مـقـبـــــولـــــةٌ
فـــالسكـــرتيـــرة تعـــرف الأرقـــامـــا

ولـــو آن حبك كـــان يـــومـــاً صـــادقـــاً
لغـــــدوت فـــــي درب الهـوى ضرغـــامـــا

ألا، ليس الحب دائمًا شجوناً وجنوناً وعذاباً ونحيبا. تأمل هذه الرقصة على بحر الرمل من قلب طرب جذلان:

أرقـصـــــي، ميـســــي وميلـــــي

عـمـيــــت عـيـــن الـعـمـيــــلِ

فـــــالهـــوى أجمـــل لحـــــن

فـــي صبـــاحـــي وأصيلــــي

فــــــإذا أرسلــــــتِ وصــــلا

أرســـلـــي بـــالفكـسـميلـــي

والبيت الأخير من عجائب الأمور!

إعلم أن ثلاثي بلب من غير المستعمل في لغة العرب. ولكن شعراء الإتصالات السلكية واللاسلكية لم يجدوا حرجاً في استخدامه. قال أحدهم:

بـــــالبنـــــي حـبـيـبـــــي

فـــديتـــــه بـلـيـبـــــا

وكـنـــــت دومـــــاً مـبرقـــــاً

ولــــم يـكـــن مجيبـــاً

وفي باب فاعل يقول آخر جامعاً البليب على بُلُب:

تـبـــالـب الـقـــوم حـتـى لا اتـفـــاق لهم

إلا عـــلى بُلُـــبٍ والخلــــف فــي البُلُـــبِ

وإني لأخشى على الأمة مصيراً كهذا!

بَلَبَ يَبْلُبُ بالضم مثل يبلُغ بلوبا ومثل ينحب بليبا. وابتلب إذا اتخذ المرء بليباً. قال الشاعر:

ومــــا ابتـــلا بـــــي ســـــوى حبـــــي لـوصلكـــــمُ

لــــــولا الـــــوصــــــال أكـــــان القلب يبتـلـبُ؟

وقال ثقات من العلماء ان البليب يجمـع على بلبـاء مثـل كـرمـاء. وذهب بعضهم إلى أنهم جمعوه أيضاً على أبلباء مثل أقرباء وأدعياء. وبلابي مثل نـديم ندامى. وقول الشاعر واضحٌ:

ومــــــا نيــــــل الفــــــواكس بـــــالتـمـني

ولـكـن تـؤخــــذ الــــدنيــــا بــــــلابى

لكن كل ذلك لا يعدل أنات الشاعر السلكي اللاسلكي المعنّى في معانـاتـه. وقد استحسن أبو الزبائد قوله وعده من عيون شعر الإتصالات. يقول:

يــــا بـلـيبـــــاً صـفـيـــــــره لا يـكـــــــفُّ

وتلكســـــاً شريطـــــــهُ كـــــــم يلـــــــفُّ

وخـطـــــوطـــــاً طـــــول الـنـهـــــار تـــــرنُّ

ويطـــــول الـــــدجـــــى وليســـــت تعـــــفُّ

أنـــــا ألقـــــى عـــــذاب حبـــــه عـــــذبـــــاً

فلمـــــاذا مكـــــدّري ليـــــس يصفـــــو؟!

أعجب لقوم تكون لـهم هذه الإمكـانـات في الإتصـال ويشكـون حـرمـان الوصال!

غزل الأطبـاء

خصّص أبو الزبائد فصولاً لغزل أصحاب المهن والحرف، بـدأهـا بغـزل الأطباء. يقول:

من قال لك إن جالينوس لم يكن من شعراء الحداثة في عصره؟ لقد جـرّب الأطباء الشعر من قبل الشيخ الرئيس أبي علي بن سينا وبعد الدكتـور إبـراهيم ناجي. وفي أيامنا هذه يجرّب الأطباء الشعر كما يجرّبون الأدوية.

يقول أحدهم:

طيـــــف الحبيبـــــة لا يفـــــارق نـــاظـــــري
فكــــأنـــــه بعيـــادتـــــي سمّـاعـــــهْ

وتحدث آخر عن فيروس الفراق، ويجمـع على فيـاريس وفيـارس. لا على فوارس. فهؤلاء لا يبحث عنهم الناس بالمجهر:

مضـــــاداتُ وصْـلِـكِ يـــا حُـلـــوتـــــي
تُبيـــــد فيـــاريــــس طــــول الفـــراقِ

فجـــودي بـــأقـــراص عطفك يـــومـــاً

لتُـنـعـــــش قـلـبـي بـمَـصـــلِ الـعـنــاقِ

وللشوق ضغط لدى الطبيب النطاسي، بل إنه ليوصي الحبيبة بخفض ملح الهجر حتى لا تقتله بهذا الخطأ الفادح في طب الغرام:

ضـغط شـــــوقـي وحـنـيـنـي ارتـفـعـــــا

لـيـــت حبّـــي كـــان يـــومـــاً سَـمِـعـــا

إن مـلـــح الهجـــــر يُـعلــــي ضغط شـــوقي

فـــاخـفـضـيـــــه إن صـبـــــري ودَّعـــا

أما المريض بداء السكريّ في الهوى فله قصة أخرى:

كـــــداء الـســكــــري أدوخ عـشـقـــــاً

وأنـســـولـيــــن وصـلــــك لــــي دواءُ

فيما يبدو آخر ذا مشكلة بسيطة يمكن أن تحلها أية صيدليـة حب أو أي مستوصف غرام:

صـــــداع غـــرامــــك أرهـقـنــــي

أمـــا لـغـــرامـك مـن اسـبـريـــنْ؟

وليس حبّ الأطباء دائمـاً شاكيـاً باكيـاً. فلهؤلاء العشاق لحظات سعيدة رغيدة:

أنعــشَ القلـــبَ أوكسجيـــنُ التـــلاقـــي

وغـــدا مصـــلُ عطـفِـهِ كـــالـســـواقـي

ولكن الأوكسجين منقطع لدى غيره:

يقتلنـــــــــي ببعــــــــــده يخنقنـــــــــي

كـــأنمـــــا يقطـــع عني الأوكسجيــــــنْ

فـــــإنْ أتــــى بقـــربــــه يـُنقــذنـــــي

فـــوصلُـهُ مـــدمِّـــرٌ كـــالكـــورتيـــــزونْ

إن الحبيب ها هنا ينقذ المحبوب بالقرب ولكن لوصله آثاراً سلبية وأعراضاً جانبية سيئة.

هل هناك طب بلا جراحة مطلقاً؟

يقول الشاعر وقد أدمن الحب وعَسُرَ التخدير وتعذرت الجراحة:

لقـــد أدمنتُ حـــبَّـكَ يـــا غـــزالـــــي

وصـــــرتُ كـــأنني فـــي الحـــب صَـنْـجُ

رجـــــوتُ جـراحـــةً تُـنهــــي هيـامـــي

ولا يُـجـــــدي مــــع الإدمـــان بُـنْـجُ

وإذا كان بعض الجرّاحينَ ينسى مبضعه في بطن المريض فإن هذا الجرّاح نسي أن يخيط الجرح:

بمبضـــــع هجــــرِكَ عَـمَّـقْـتَ سُهــــدي

ولـــمَّـــا تَـخِـطـــهُ بخيطِ الـــوصـــال

ترى هل يمكن أن يكون هناك حب بلا حمى ولا أعراض؟ وهل من علاج بلا حقن؟ يقول طبيب واصفاً حاله وعلاجه:

أتـــانــــــي الـفــــــراق عـــــــلى غِــرَّة

فبــــــتُ بحمّــى البعــــــاد ســـــراجـــــــا

فجـــــــودي علـــــيَّ بحقنـــــــة عطـــــــف

فمــــا عـــــدت فــي الحب أرجــو عــلاجــا

لكن كل هذا يهون، فليست هذه العلل مما يعيي الأطباء أمرهـا. ولا هي مما تقام له مراكز الإسعاف الغرامي. فهناك أمراض وأدواء يستعصي عـلاجهـا. تأمل هذه الصرخة المستغيثة من الأعماق:

ســرطـــان الحـــب أودى بخـلايـــا الإصطبـــارِ

فليغثنـــي ليـــزر الوصــــل فقـــد طـــال انتظـــاري

وإذا كان خطر الكولسترول المرتفع دون خطـر السرطـان فـإن الطبيب الشـاعـر ينبهنـا إلى أن الكـولسترول إذا جـاوز المـدى تسبب في الســداد أو الانفركتوس:

كـــولستـــــــرول الضنــــــى غشَّـــى الشرايينــــا

وليــــس غـــــير رضـــــى المحبـــوب يُحيينـــا

أمســـــى سُـــداد النـوى فـــي خـافقـــي شبحـــاً

إذ نـــــاب عن طيب لقيـــانــــا تجـــافينـــا

وهل تظن أن داء الرّثية (الروماتيزم) ليس مزعجاً؟ يقول هـذا الشــاعـر الطبيب شاكياً للحبيب روماتيزم الحب:

وكنـــــت إخــالنـــــي فـــــي الهجـــــر طَـــوْدا

فـــأوهـــــت رثيـــــةُ السهـــــدِ العظـــامـــا

ومن الأعراض المرضيـة في الحب مـا يكـون واضحـاً وضـوح الشمس، كأعراض ازدياد إفرازات الغدة الدرقية الذي يسمى إصطلاحاً فرط التدرق. وقد جمع الطبيب الشاعر جل أعراضه في قصيدة منها:

إذا طـــــــال نـــــــأي الحـبـيـب نـحـلـت

وبـت مـصـــــابـــــاً بـفـــــرط الـتـــــــدرّقْ

تســـاقط شعـــــري وأســـــرع نبضـــــــي

وأمـسـيـت يختـــــل نـــــومـي وأعـــــرق

وصـــــرت أعـــانـــــي التهـــــاب الكلـــــى

وكـــادت خـلايـــــاي تُـشـــــوى وتُـحـــــرق

فـــإن لـــــم يُـعجّـل بيـــود الـــوصـــال

ســـأغـــرقُ أغـــرقُ أغـــرقُ أغـــرقْ

وللمختبرات نصيب في شعـر الأطباء:

يـقـــــول لـــــيَ الأصـــــدقـــــاءُ: تمـهّـلْ

ستَـبـلـــــغُ فـــــي الحـب ذاك «الـقـمـــــرْ»

ولـكـــن هـجـــــــــرك دون عـــــــــلاج

كـــذلـــــك قـــــال لـــــيَ المختبـــــــــر

هناك تخصصات تلقي بظلالها على غزل الأطباء. فطبيب الأسنان يقول:

غـــرامك يـــا معـــــذبتــــــي كضـــــرس

قـــد التهبـــــتْ فـــلا يجـدي اقتــــلاعُ

ومن أشعار أطباء العيون قول أحدهم مضمّناً وصل القرنية:

ويهفو إليها الفؤاد المهيض
وقَرْنِيّتي تشتهي وصلها

لكن الآخر أكثر حداثة:

صفّق القلب ابتهاجاً
حين لاحت بارقهْ
كعيون بهرتها
عدسات لاصقهْ

ترى هل بالإمكان أن يهمل الأطباء الشعراء ظاهرة بالغة الخطورة «كالإيدز» دون أن يلهم قرائحهم قصائد إيدزية؟ يقول الشاعر النطاسي:

تأيدز قلبي بحبك يوماً
وما عاد لي في هواك مناعهْ

وبزه آخر حين قال:

في كل يوم مقلتي منتحبهْ
في كل يوم كبدي ملتهبهْ
إن طال هذا الهجر يا حبيبتي
أفقدني مناعتي المكتسبهْ

يقول أبو الزبائد في نهاية هذا الفصل: علماؤنا عاجزون عن التفكير. وأقلامنا عاجزة عن التعبير. فما ضرّنا أن نصبح لسان الحال. فدوام الحال من المحال.

غـزل الدبلوماسـيين

كيف يخيل إليك أن الدبلوماسيين ليسوا أهل شعر وشاعرية؟

بهذا السؤال المباغت استهل أبو الزبائد هذا الفصل قائلاً: إليك بهذا فإنك ما أن تفرغ منه، بإذنه تعالى، حتى توقن أن هؤلاء الـذين يُـقـال إنهم وإنهم... وإن من مهنتهم كذا وكذا... ليسوا بعيـدين عن الشعـر. فلم يتركـوا صغيرة أو كبيرة إلا وذكروها في أشعارهم رغم التزامهم، كالبوليس، بالسرية المطلقة. ولكن الحب فضّـاح.

وقد تناولوا في أشعارهم الغزليـة مـواضيـع شتى، وانـدست في أبيـاتهم وقصائدهم كل مصطلحاتهم المتعارف عليها في الدبلوماسية.

ولا بُـدَّ، بادىء ذي بدء، من الإشارة إلى أن أبا الزبائد بذل جهوداً مضنية للحصول على نماذج من أشعارهم، مستخدماً مـا تيسر من العـدسـات الخفيـة للتصوير، والميكرو مسجلات في المجالس الخاصة وما إليها...

قال أحدهم:

تجسس قلبي على قلبها
فردت بقطع العلاقة فورا
فهل من وساطة قلب عطوف
لكيما أعيد العلاقات سرا؟

لا حاجة إلى الإشارة إلى أن العلاقات تُقطع أحياناً ظاهرياً لتستمر في هدوء في الخفاء، ذراً للرماد في العيون. لكن الآخر له رغبة صادقة:

إن فؤادي صادق في حبه
يريد أن يستأنف العلاقهْ

وإذا سألت فلا تسل عن مذكرات الإحتجاج. فما أكثر العتاب واللوم والعذل في بلاد الغرام:

مذكرة احتجاجكَ فاجأتني
بأنكَ لستَ تغفر لي ذنوبي
فأرجو أن تكون قد استلمت
مذكرة اعتذاري يا حبيبي

وأين هذا الدبلوماسي من ذلك الذي ضحك له الحظ فرفعه درجات يطويها غيره في عقود لا في سنوات، حتى قال:

كان حبي سكرتيراً ثالثاً
فغدا بالوصل فوراً مستشارا

وزاد عليه آخر فقال:

كـــان قـلـبـي مـلـحـقـــاً فـــي حـبـهـــا
فغـــدا فـــي لحظـــة الـــوصـــل سفيـــرا

ولكن من الدبلوماسيين من يتدرج في سلم الحب تدرجه في سلم المهنة:

ملـحـق عـنـــدك مـن عـشـــر سـنـيـــن
فـــاجعلينـــي سكـــرتيـــراً ثـــالثـــا

رفّـعـــي وصلـــي فقـــد طـــال انتظـــاري
وفـــؤادي ظـــل دومـــاً لاهـثـــا

احتل التمثيل الدبلوماسي جانباً كبيراً من أشعار أهـل هـذه المهنـة. فهـذا الشاعر يقول:

إرفـعـي تمثيـــل حـبـي يـــا حيـــاتي
واجعلـــي وصلـــك فـــي قلبـــي سفيـــرا

ويقول آخر وهو من جيد أشعار الدبلوماسيين:

صـــدفـــة كنـــا التقينـــا حيـــن أهـــديتك زهـــرهْ
فـــرفعنـــا مستـــوى التمثيـــل من أول نظـــرهْ

قال المصنف: نمى إلـيَّ أن بعض الدبلوماسيين يتغنون بهذا الشعر.

في مقابل ذلك، لا تخلو العلاقات الغـراميـة من خفض لمستـوى التمثيـل. فهذا الشاعر يقول في قصيدة من البحر الطويل:

إذا خفضت تمثيـــل وصلـــي فـــإنمـــا
يقـــوم بـــأعمال الـــوصـــال العـــواذلُ

وتتأزم أوضاع الحب إلى أن يصبح استمرار العلاقات أمراً عسيراً. عندئذ تقطع الروابط من طرف واحد أحياناً، فلا يسع الشاعر الدبلوماسي إلا أن يقول بكل حذر وتحفظ:

سأبلغ فوراً حكومة قلبي
بأنكِ قررتِ قطع العلاقهْ

هذه البرودة التي تستلزمها المهنة نجدها تتسرب إلى اللغة الشعرية في شعر الدبلوماسيين الذين يرفعون التقارير إلى حكوماتهم ويذيّلونها دائمًا بهذه العبارة: للعلم والإطلاع. تأمل ماذا يقول هذا الدبلوماسي لحبيبته:

ملأتُ حقيبة حبيَ شوقاً
من القلب للعلم والإطلاع

للدبلوماسيين ختم كُتب عليه «سري للغاية» يضعونه على تقاريرهم حتى حين تكون مجرد نقل لأخبار الجرائد. ولأهمية هذه العبارة وجدت طريقها إلى شعر الشاعر القائل:

يا نظرة سرية للغايهْ
كانت لنا شرارة البدايهْ
سُلِبْتُ فوراً بعدها فؤادي
يا ليتني أدركت ما الحكايه

تلك النظرة الأولى متى ما فعلت فعلها كان من المحال ردها. وحتى في أسوأ الأحوال تبدأ المفاوضات ولا تنتهي، وقلما تؤدي إلى حل نهائي حاسم. وهاك الدليل في قول الشاعر من قصيدة ميمية في بحر البسيط:

مفــــاوضـــــات هـــــوانـــــا كيف تُـخْـتـتــــمُ؟

وكيف جـــرح الضنـــــى فـــي الحب يلتئـــمُ؟

وحين تتأزم الأوضاع وتتوتر العلاقـات تتـدهـور الـروابط ويصبـح من العسير التحلي بالحكمة وضبط النفس. تبدأ الأمور بحركات تبدو لا أهمية لها في بعض الأحيان كمنح اللجوء الغرامي لقلب متمرد:

تمـــرد قـلـبــــــي وألــــــف ضـــــــدي

عصـــابـــة شـــوق بـــدعـــوى الهيـــام

فـــأصــــــدرتُ أمـــــر اعـتـقـــال ولـكـن

منحـــتِ فـــؤادي اللجـــوء الغـــرامـــي

هذا الأمر يؤدي أحيانـاً إلى إيـذاء الـدبلـومـاسيين كـرد فعـل تعبيراً عن الإستياء، فيحتج المتعرض للإساءة قائلاً:

سَـلـبــتِ فـــؤاداً لـــديـــه حصـــانـــهْ

فـأيـــن القـــوانيــــن؟ أيـــن الأمـــانـــهْ؟

ســـأرفـــع فـــوراً مــــذكـــــرة

إلـــى مجلـــس العطف أرجـــو الإدانـــهْ

ومجلس العطف معروف لـدى أي قـارىء عـربي. وهـو أشهـر من واو العطف. ويقول آخر:

هـــل تـطـــردين فـؤاداً يـــا معـــذبتـي

لـــديـــه فـــي الحب ميثـــاق وتحصيـــنُ؟

وهل يجدي فيتو مجلس العطف؟ لا جدوى، إذا كان الصدود قوة عظمى واقفة ضد العاشق الولهان، فلا سبيل له غير الأنين؟

حنـــانيـــــكِ ردي إلـــــيَّ كنـــانـــــي

ففيـتـــــو صـــــدودك هــــد كـيـــانــــــي

اعلم أن لغة الدبلوماسيين لغة عسير فهمها. وأهلها يقرون بـذلك حتى في شعرهم. فشاعرهم يقول:

إن تكـونـــي احتـــرتِ فـــي كنـــه غـرامـــي

وتـكــــــدرتِ لأنــــــا مـبـهـمـــــــون

فـــــاعـلـمــــــي: أول درس عـنـــــدنـــــا

خـــاطبـــوا النـــاس بمـــا لا يفهمـــون!

لكن غموض اللغة يضاف إليه الترميز والتلغيز بالرمـز والشفـرة. يقـول شاعر الدبلوماسيين ورغم ذلك لا تجدي الشفرة شيئاً:

تجـســــــس ألـف رقـيـب عـلـيـنـــــا

فـــأرسلت بـــالـــرمـــز أشـــواقيـــهْ

فـفـكـــوا الـــرمـــوز وزادوا الحـصـــار

فهـــذي دمـــوعـــيَ كـــالســـاقيـــهْ

إلا أن التدخل في شؤون الغير دارج شائع في هذه الميـادين بـدليـل قـول صاحب بائية الدبلوماسيين وهي من أشهر الأشعار لديهم:

قد تدخلتِ في شؤون فؤادي
من خلال ادعاء قصة حبٍّ

بعثة تلك للغرامِ ترى أمْ
غزوات تشن من دون حربِ؟

دبلوماسية الوئام أراها
ألف أدهى من ألف قتل وضرب

قال المصنف: لله دره. فالإعتراف بالحق فضيلة. لكنه يضيف مختتماً هذا الفصل بقوله: من أجمل ما قرأت في هذا المضمار قصيدة لأحدهم وقد عشق أميركية فعارض أبا فراس الحمداني في رائيته الشهيرة «أراك عصي الدمع»... قال:

فقلت كما شاءت وشاء لها الهوى:
عميلكِ، قالت: أيهم؟ فهم كثُرُ!

غـزل التجّار

خصص المصنف فصلاً لغزل التجّـار استهله بهذا الـدعـاء، أجـاب اللـه دعواته:

اللهم اهدنا إلى موارد الصكوك والبنوك، من بعد ما ابتليتنا بمحنـة الأدب في بلاد العرب. ربّـنا إنا نسألك المصارف لا المعارف. والقـروض لا العَـروض، والأملاك لا الملكات. وبيتاً من الصخر لا أبياتاً من الشعر. وقِـنا عذاب الفساد في الإقتصاد والإعتقاد.

يقول أبو الزبائد: إعلم، سدَّد الله أقساطك، ورفع عنك تقتيرك وإقساطك، ان التجار الشعراء، لم يدعوا بـابـاً من أبـواب الإقتصـاد والتجـارة، إلا فتحـوه لقوافيهـم ومكنونـات خزائـن صـدورهم. قـال أحـدهم متأثـراً بـانهـيارات «وول ستريت»:

أسـهـم الـعـطـف نـــازلات وقـــد
يعلـــن قلبـــي الإفـــلاس فـــي أي حيـــنِ

فأخذ آخر ماركة هذا البيت وسجّلها على نحو آخر:

أسهم الحب نازلات وقد
يفلس قلبي إذا استمر الحالُ

رأسمال الغرام عندي حنان
ولقاء فيه المنى والدلالُ

ولا ريب في أن سوء الحال يؤدي إلى الإقتراض:

اقرضيني من مصرف الحب عطفاً
فحساب الوصال دون رصيد

لكن القروض لا تخلو من الأمل أحياناً. فهذا تاجر شاعر يقول:

صندوق نقد الهوى بالعطف يقرضني
يعيد جدولة الأشواق في الهجر

وقد تناول كثيرون إعادة جدولة الديون الغرامية حتى لكأنهم دول العالم الثالث. هذا أحدهم يتحدث أيضاً عن الفوائد المركبة:

ركّبَتْ لي فوائد الوصل حتى
أرهقتني بالعجز في الهيمان

قلت بالله جَدْولي من جديد
فقروض الوصال هدّت كياني

ويعاني آخر تراكم الكمبيالات وتركيب الديون:

كمبيالات الهوى ترهقني
فهي طود من ديون تتركَّبْ

فاكفليني في بنوك الحب عطفاً
وارحمي قلباً معنّى يتعذّبْ

قال المصنف: ما كنت أظن التجار يقولون الشعر في بحر المنسرح حتى وقعت عيني على قول شهبندر التجّار الشعراء:

يا أهل سوق الغرام هل لكُمُ
ان توصلوا عاشقاً إلى أربِ

هيا اكفلوا خافقي بمصرفها
وعلّموه طرائق الهرب!!

ولا أدري ما المقصود بالشطر الأخير!

ومن حديثهم عن الكفالات والضمانات قولهم:

إضمنيني في بنك عطفك يوماً
إن قلبي يروم بعض السيولهْ

وما ذلك إلا لوطأة العجز في الميزان:

وميزان الهيام لديّ أمسى
يسجّل في ليالي الهجر عجزا

وللنفقات حديث ذو شجون إذا هي أمسكت بخناق صاحبها:

نفقات الشوق أضنت مهجتي

وفؤادي بات يشكو العائدات

وكذلك معاناة الأجور إذا بلغت السماكين:

أجور الوصل ترتفعُ

فوجهي منه ممتقعُ

فواتير الضنى كثُرت

ودخل الحب ممتنع

ولا يجدي عندئذ ترشيد الإنفاق ما دامت الألباب بلا رشاد والآراء بلا سداد:

تُخَفِّضُ سعر اشتياقي وترفع سعر الوصال

وحين أرشّد إنفاق حبي فوصلي محالْ

أما غرف التجارة في الحب فقد اختلف التجار الشعراء حولها. فمن قائل انه لا وجود لها:

تجارة الحب بلا غرفة

لمن سأشكو هجرها والسهادْ

ومن قائل: ما أكثر غرف تجارة الهوى:

غرف التجارة في الهوى مليونُ

فلمن سيشكو سهده المجنونُ؟

لقد تكاثرت عليه غرفُ التجارة كما: «تكاثرتِ الظباءُ على خَراشٍ... فما يدري خراشٌ ما يصيدُ».

ترى كيف تكون النجاة من التضخم في دول العشق وبلاد الغرام:

إذا عانيتَ في الحب التضخّمْ

فعوّمْ قلبك الهيمان تَسْلَمْ

لكن لا منجاة على ما يبدو:

تضخم سعر الغرام وأضحى

وصالك في بورصة القلب حلْما

لقد شغلت العملات الشعراء وسلبت ألباب التجار. يقول أحد السماسرة:

حبيبتي تلهمني الأشعارْ

فحلوتي قصيدة السمسارْ

فوجهها مدوّرٌ كدرهم

شفافة كأنها دولارْ

والهوى كالتجارة حظوظ. هذا شاعر ضحك له الحظ:

ضحك الحظ لقلبي

في هواها عرضا

وقعت شيك وصال

تركته أبيضا

في حين يقلب الحظ لغيره ظهر المجن:

ليتها ترحم قلبي في الهوى
بازدهار ورخاء وانتعاشْ
رُمتُ تسديد وصالي بصكوك
فتصدت: إنه أصبح «كاش»

تكون الحبيبة جشعة أحياناً. تقبل منك كنوزاً من الودائع بلا طائل:

قبول ودائع شوقي يزيد
لديها وينخفض الإعتمادْ
فكيف أصعّد انتاج شوقي
وسوق الوصال تعاني الكساد؟

بل ان الحبيبة لتعمد أحياناً إلى تجميد الودائع لتهديد العاشق المفتون المغرور بحبها:

جمّدتْ لي ودائع الشوق حتى
صرتُ، ويلي، أكابد الإفلاسا

أما عن الصادرات فيقول أحدهم:

سفينة ليلي محمّلة
بأطنان شوقي لإشراقها
سترسو بميناء وصل الحبيب
وتفرغ شحنة أشواقها

القصة ليست هكذا، فهذا آخر يكشف ما وراء ستار الصادرات والواردات الغرامية:

أنـــــا لا أنتـــــج وصـــــلا وعنـــــائي
انــنـي مــسـتـهـلـك لـــلـــــــــواردات
فـــإذا مـــا قـطـعـت تـصـديـــرهـــا
دمّـرتـنـي بـــانـخـفـــاض الـعـــــائدات

غزل التجار ينتهي بأهله إلى الحكمة، يقول الشاعر التاجر:

غــــرامي عــــالـــــم ثـــــالـثْ
أنــــــا مـن خـلـفـــــه لاهـثْ
فــــــلا أدري مــن الــــــلاهـي
مـن الخـــــوّان والـعـــــابـث
ويـنـمــــو وصـلـهــــا دومـــــاً
نـمـــــواً عـهـــــده نـــــاكـث
فــــاقـطـــاع الهـوى طـــــاغ
سمـــومــه فـــي الحـشـــا نـــافـث
فـــإن صــــدّقـت تـنـمـيـــة
لحــب هــجـــــرُه عـــــائث
جـنـيـــت تخلّـفَ الحـــــس
تخلّـفَ عــــالـــم ثــــالـــث

ولله درّ شهبندر التجار الحكماء من قائل وقد عشق أميركية، أرسل إليها هذه الأبيات بالفاكس:

ثروتي طائلة لكنني
في الهوى مستهلك يا بنت سامْ

لا يفيد المال شيئاً إن يكن
ميتاً حسّي وعقلي في منام

أنتِ لو أوقفتِ تصدير الوصال
كسدتْ سوق غرامي والسلام

غـــزل البوليـــس

يقول أبو الزبائد في بداية هذا الفصل:

إعلم، وقّـاك الله كل لبس يؤديَ إلى الحبس، ان للنظاميين قلوبـاً خفّاقـة، وأرواحاً رقراقة، تحجبها القبعات والأزياء. وإلا فالصب تفضحه عيـونـه، حتى ولو كان الجنرال ديجول. أو لم تكن دموعه تبلل زيّـه العسكري عنـدمـا كـان يصغي بشغف ولهف إلى أم كلثوم فرنسـا: إديث بيـاف؟! فمن يخيـل إليـه أن هناك أبعاداً وآماداً بين الشرطة والغزل، فلينعم النظر في تراث المخافـر، فليجـدن غزليات تذوب لها قلوب الملفات.

ما من أحد إلا ويتأثر بمحيطه... شرطة المرور كذلك.

يقول أحد شعراء المرور:

ربطتُ حـــــزام الـصبر في درب هـجـــــرهـــــا

وقـلـت لـعـــــل الحـب يـــــرثـي لحـــــالـيـــــا

بـدت لـــي، ويـــا ويـــلاه، تحـــويلـــة الهـوى

وفـــــوجئتُ أن الـــــدرب سُـــدَّ أمـــــامـيـــــا

المرور مليء بالمشاكل خاصة بعد استخدام الرادار. وقد أثر ذلك على طريق الهوى:

يسارع قلبي إلى الوصل يهفو
ورادار عين الرقيب يجول

وهذه الأخطاء الصغيرة تنجم عنها أخطاء قاتلة تؤدي إلى سحب الرخصة. يقول أحدهم:

سَحَبتْ رخصة الوصال وقالت:
قد تجاوزت ضوءنا وهو أحمرْ

ويقول آخر عذّبته الإشارات الحمراء:

إشارات حبكِ حُمْرٌ فجودي
بخضراء تشفي غليل المعنَّى

إن الصعوبات التي تعترض المرء في مرور الحب أخطر من تلك التي على الطرقات العادية. هذا شاعر أوقعته مشكلة مرور في سوء تفاهم سياسي:

قلت هيا افسحي لي
جئت من صوب اليسار
صرخَتْ بي: أمسكوه
هو من أهل اليسار

أما مشكلة مواقف السيارات فإن لها خطا موازياً في عالم القلوب:

لم أجد لي موقفاً في قلبها
فهو دوماً بالهوى مزدحمُ

وعلى غرار ذلك يقول آخر:

قـــالت تـــريـــد تـــوقفـــا فـــي قلبنـــا
إن التـــوقـــف مطلقـــاً ممنـــوعُ

أليس من حق الشرطي الشاعر أن يقول عندئذ:

أخـطط كـــل دروب المــرور
وأعـجـــز عـن أن أسيِّـر قـلبـــي؟!

أمّـا أهل التحقيق في الشرطة فغزلهم عالم آخر بعيد عن غزل أهل المرور.
يقول المحقق المعنّـى:

كـــم أَطَلْــتِ التحقيــق فـــي كنـــه حبـــي
وجـعـلـتِ استـجـــواب قـلـبـي قـــرونـــا
ان يَكُـــنْ مخبـــرٌ وشـــى بـــي فـــاني
لبـــريءٌ فـــلا تسيئـــي الظنـــونـــا

في حين يشكو آخر أن الحبيب اعتقل قلبه ولم يحقق معه:

ألـقـتِ الـقـبض عـلى قـلـبـي وظـلـماً سـجـنـتـــهُ
لم تحقق معـــه يـــومـــاً ودهـــراً حبستـــهُ
ليتهـــا كانـــت بـــلا تعـذيبـــه قـــد قتلتـــه

لكن التهمة أحياناً تكون واضحة. تهمة بيولوجية... أيديولوجية بيولوجية:

سـجـنـــت قـلبـــيَ ظـلـمـــاً
دونـمـــا أي قـــرارِ

قلـــــت: لــــم يــذنــــب فــــؤادي

قـــالـــــتِ: الـقـلـــــب يســـــاري

مثل هذا القلب يظل دائمًا مصدراً للقلق والحرج والفتن، حتى لكأنـه هـو المواطن نفسه:

ويـــــــح قـلـبـي دائمـــــــــــاً مـتـهـمُ

ليـــس يـدري مــا الضنى يـا لـــي ويـا لــهْ

دائمـــــــاً تـسـجـنـــــه فــــي حـبـهــــا

وأنـــــا أُفــــرجُ عنــــــه بكـفـــالـــهْ

حقاً مثل هذا المتيم ليس حالة فريدة في مجتمعـات تغص بـالحب! يقـول الشرطي الشاعر:

عشـــاقـــــكِ كثـــــرٌ سيــــدتــــــي

تـــاهـــوا فــــي الأرض مـــن الهيمـــــانْ

دوريـــــــــة هـجـــــرك تــــــوقـفـهـم

تــــــرمـيـهـم خـلـف الـقـضـبــــــان

وقد يكون الإعتقال فردياً بالكلبشة:

كـبّـلـنـــــــــــــي جمـــــالهـــــا

كـــلْبـشـنـــــــــــي دلالهـــــــا

تـشـنـقـنـــــــــي حـبـــــالهـــــا

مـتـــــــى مـتـــــــى وصـــالهـــا؟

يقول المصنف: إعلم، جنبك الله التحقيق ولو بالتنازل عن الحقوق، ان في غزل البوليس حياة كلها حساب وكتاب. تأمل هذه القصة:

شوهد المدعو قلبي
يقتفي آثارها
والتقارير تقول
برضاها زارها
فإذا ما اتهمتْهُ
وروت أخبارها
وبنوح وعويل
أرسلتْ مدرارها
عندها أُبدي شريطاً
فاضحاً أطوارها

هذه القصة تكشف لنا الشعور بالمسؤولية لدى الشاعر الشرطي، وهي أظهر وأجلى في قول الآخر:

ضبطتُ فؤادي وقيّدتُهُ
وكان بنار الهوى يلعبُ
لكيلا يشب حريق مهول
فيغدو حطاماً واستجوب

شعراء الشرطة يراقبون ملياً قلوبهم:

ضبطــــــتُ فــــؤادي لطيفـــــك يخفـــقْ
ولـــــم أكَ أعلـــــم أنـــــي ســـأعشـــق

وانها لشبهة عجيبة لدى فئة من الناس الشبهة عندها كارثة:

صـــار مشبـــوهـــاً فؤادي فـــــي الـــورى
وبتـهــــريــــــب الهـــوى متـهـمـــــا

ولكن ما العمل إذا كان الدرب غير معبد وكانت المعضلات كالجبال؟:

تـعـقـبـتُ طـيـفَـكِ فـــــــي كـــــل درب
ولـكـــــن وصـلـــــكِ شـــــيء محـــالْ
نيـــابــــــة حبـــــي تعـــذبنــــــي
وتــرفـــض إصـــدار أمـــر اعتقـــال

لا مجال حتى لإعتقال وصال المحبوب، وجلبه إذا كانت نيابة الغرام غير متعاونة. أما أن يكون هناك فارق طبقي أو رتبي بين المحب وصاحب الصدود فتلك من نوائب الأيام.

يقول الشاعر:

ظـلـلـتُ سنيــــنَ ألاقــــــي الهـــوان
هـــــواكِ عـقيـــــد وقـلـبي عـــــريفْ
ولــــو كـنـت حـتـىٰ المــــلازم هـــانـت
فبينـــي وبينـــكِ فـــرق مخيـــف

وأسوأ الحب ما بلغ مستوى اليأس:

أروم الوصال لأقمع شوقي
فيقمعني بالضنى هجرها
وأسهر أرجو اللقاء ولا
يجود بزوّاره فجرها

هذه صرخة من الأعماق تتقطع لها أوصال القلوب من شرطي مضنى:

يا مخضر الوصل هل للصب من أمل
في مخفر الحب أم ذا الحب سجّانُ؟
تلك الأمور كما شاهدتَها عجبٌ
من سرّه مخفر ساءته قضبانُ

ولكن كل ذلك يهون إذا قيس بمصير عاشق لا يجد حتى مفراً من عذاب الهوى:

يعذبني هواكَ بلا ذنوب
وأنت بكل إشفاق ضنينُ
ومهما رمتُ في الدنيا فراراً
فأنتربولُ حبكَ لي كمينُ

قال أبو الزبائد في خاتمة هذا الفصل: تراك بعد هذا إذا دخلت مخفراً سألتهم طول المقام.

غــزل الصحافيين

أي شيء في الصحافة لم يرد في هذا الفصل الـذي تقـرأه فتـدرك أن لأبي الزبائد علاقة خاصة بهذه المهنة. والله أعلم!

يقول المصنف: إعلم، جنبك الله مهنة المتاعب، ورفع عنك محنة الأعـارب، ان الصحـافيين قوم يهوون المشاق. وقد روى بـائع بن مـوزع عن ســاحب عن طابع عن مصور عن منفذ بن مخرجة عن مصحح بن صفيف قال روى لنا أبو رقـابـة عن أبي تـرجمة عن أبي اعـداد التحـريـري عن ابن تحقيق بن حـــوار الإستطلاعي، قال حدثني سكرتير بن مدير قال: لم يغادر شعـراء الصحـافيين من متردم. فكل الأبواب طرقوها. بدءاً بأصــول الخبر الـذي يجب أن يجيب عن أسئلة عديدة معروفة لدى أهل هذه المهنة، أثابهم الله، فـلا أحـد يثيبهم، والكـل يعيبهم، قال الشاعر الصحافـي:

هـــــا أنــــــا أكشف أخبـــــار غـــــرامي
لــــــم أَدَع ظـــــرف زمــــانٍ أو مكـــــانْ
بُـحــــتُ بـــالأســـــرار يـــا قلبي جميعـــاً
مـن؟ متـى؟ كـيف؟ لمـــــاذا؟ أيـن كــــانْ؟

وهي قصيدة طويلة يشرح فيها حاله. وله أيضاً:

مراسل قلبي تقاريره

أفادت بأنك زدت الصدودا

كيف كنت تعرف، لولا الصحافي الشاعر، أن للعطف مندوبا؟

أتى مندوب عطفك يا حبيبي

ليجريَ في السهاد معي حواراً

فأدلى خافقي لو تعلمين

بتصريح يحيل الثلج نارا

ومن قصائد شعراء صاحبة الجلالة ما يزخر بمصطلحات المهنة. جاء في لامية الصحافيين:

صحيفة حبك تسبي فؤادي

فقلبي من الشوق دوماً عليلْ

فعيناك عندي افتتاحية

وفي الخصلات مقال جميلْ

وتحقيق قلبي أقصى مناه

مع شفتيك حوارٌ طويلْ

وقدُّكِ مثل عمود رشيق

تخطه كف أديب جليلْ

ألا لـقـطــــة الـيــــوم عـنـــــدي دلال

إذا قـلـتِ: هـيّـا فـهـــــذا الأصيـــــلْ

ومن أطرف ما جاء على ألسنة شعراء الصحافة أن أحدهم قال مخاطباً حبيبه:

هــــــذه الــــدنـيــــــا مقـالٌ

أنـــــت فـيـــــه الخـــــبرُ

فاحتج عليه قسم التصوير قائلاً:

هــــــذه الــــدنـيــــــا مـقـــــال

أنـــــت فـيـــــه الـصـــــورُ

وقد تأثر أهل الترجمة والتحرير بميدانهم فاجزلوا فيه القول مما يضيق به المجال غير هذا المثال:

تـــرجمي أخبـــار سهـــدي فـــي الهـوى

حـــرري قلبـــيَ مـــن أســـر فـــؤادكْ

آه كـم عـــانيـت أرشيـف اشـتيـــاقي

فـــدعـي روحـي بـــأحـضــــان ودادكْ

هناك دور نشر لا تحظى بلافتات في الشوارع ولا بإدراج أسمائها في دليل الهاتف. هذه إحداها يكشف عنها الشاعر الصحافي مفيداً بأنها تصدر ملاحق:

مـلـحـق الهجـــــر أتـــاني فـجـــأة

بئـــس مـــا قـــد نشـــرت دار الصـــدود

لقد تحدث بعضهم عن الأقسام الداخلية في الصحيفة. قال في بحر البسيط، مطلعها:

منوعات غرامي الشوق والأملُ
والصد والهجر والحرمان والعذلُ

لقد بلغت الإعلانات عند أهل زماننا مرتبة لم يعد فيها مجال لضمير. وبئس المصير. ولذلك ترى شعراء الصحافة متأثرين منجرفين. يقول أحدهم:

اعلان حبي أنا في الصفحة الأولى
ألوانه زاهيات كالأزاهير
ويعلن الغير أشواقاً مبوّبة
مخافةَ السعر في بخل وتقتيرِ

وليس كل المعلنين من أهل المنطق. فهذه تطلب مواصفات ومشخصات نادرة الوجود:

مطلوب فوراً معشوقُ
ما مثله فيها مخلوقُ

ولها أيضاً:

أريد فوراً حبيباً جرّب الأرقا
ويعرف السهد والأوجاع والحُرقا
ذا خبرة حدها الأدنى ثمانية
والأولوية للمفتون إن صدقا

وهذه شاعرة إعلانات أخرى متيمة تقول:

أطلتَ الصدود فجن فؤادي
وصرتُ بضيعته عاجزهْ

فأعلنتُ فقدان قلبي المعنّى
ومن يَلْقَ قلبي له جائزهْ

هناك أولويات أخرى في الصحافة. وهي رعاية تحظى بها المادة المهمة. كأن يستخدم البنط العريض، وفي هذا قول بعضهم:

نشرتُ هواك بِبُنْطٍ عريض
على صفحة القلب فوق شبَكْ

إذا ما رآه الزميل العذول
تحير في أمره وارتبك

والشبك هو تلك الخلفيات الرمادية التي يضعونها لبعض العناوين والمواد لتمييزها أو لتخفيف حدة افتقاد الصور.

وشتان ما بين خبر ينشر في الصفحة الأولى وآخر يهمل في التتمات:

نشرت حبك أعلى الصفحة الأولى
وتنشرين اشتياقي في التتماتِ

لكن ما هو هذا الخبر أساساً؟ تأمل شدة تأثر الشاعر الصحافي بلغة المهنة:

غادر قلبي أضلعي متجهاً
إلى مدائن الجمال والغرامْ

حيــــث سيعقــــد اجتمـــاع طـــارىء

لبحث أزمــــة الـسـهــــاد والهيـــام

يـــــــــرافـق الـفـؤاد في رحـلـتـــــه

وفـــــد وزارة الــــــوداد والــــوئام

قال أبو الزبائد: هذه الأبيات هي المرجع الوحيد الذي أشار إلى وجود وزارة كهذه!

قال: إعلم أن كثرة الأخطاء ليست في مطابع الصحافة وحدها. فهذا متفق عليه. يقول الشاعر:

كـثُـرتْ أخـطـــاء حـبي يــــا حيــاتي

بيــــن هـجـــر وصـــدود وسـهـــاد

صـحّحـيـهـــا مـــــرة واحــــدة

بـلـقــــاء فـيــــه عـطـف ووداد

عندئذ، وحسب التسلسل، يأتي دور المخرج الذي يخاطبه الشاعر بقوله متوسلاً:

يـــا مخرج الحب أخــرجـــه رئيسيـــاً

واجعـــل فؤادي مصفـــوفـــاً علــــى شبكِ

بَـنَّـطــــهُ أكبــــر تبنيـــط لتبــــرزه

فـــإنّ قـلـبي مـن الأشـــواق فـــي شركِ

ويقول المصنف: لم أعثر على شعر اختصر مراحل تطور الطباعة من الجمع اليدوي إلى الكمبيوتر، مروراً باللاينوتيب كقول الشاعر:

جمعـــتُ حـــروف هـــواكِ بقلبي
وســـرعـــان مـــا أصبحت لاينْـــوتيـبْ
وصـــــار بـــأوفسيتـــــه زاهيــــاً
وفـــي كـــل يـــوم جـــديـــد عجيب
هـــو اليـــوم يـــزهـــو بحـــاســـوبـــه
فمـــاذا تخبـــىء بعـــدُ الغيـــوب؟

فإذا طبعت الصحيفة أتت مشاكل التوزيع والإشتراكات. هـاك مـا تجيش به صدور الصحافيين العشاق، يقول أحدهم:

هـــا أنـــا أوقـف اشتـــراك فـؤادي
فـــي هـــواهـــا لســوء تـــوزيـــع وصلـــيَ

وهو كقول الآخر:

أوقـفَ الـقـلـبُ اشـتراكـي فـــي الهوى
فـــوصـــالـــي سيـــىء تـــوزيعـــهُ

دعك من كـل ذلك، فما هـو إلا هـراء وهبـاء. فليس ثمـة شيء يـريـد الصحافـي الشاعر قوله غير هذه الأبيات:

سُلِبْتُ بهجـــرِكِ حـــريـتـي
ففي كـــل خَطْوٍ علـــيَّ رقيـبُ
ودعـــواه أنّـه شـخص أمـيـــن
يـــدافـــع عَنْكِ فماذا أجيـبُ؟

دخيـــلٌ علـــى الحب هـــذا الـــرقيب

وقلبك أدرى بـــأنـــي الحبيبُ؟

ويورد المصنّف الأبيات التالية على أنها أروع ما خطه صحافـي شاعر:

كـيـف أقـــول إنــني مـتـيّـمٌ

إن تخنقي حـريـة الـتعبيـرِ؟

هـل يبـدع الـسجين فـي قيـوده؟

هـل يُطلـب الإبـداع مـن أسيـرِ؟

ولْتسـألـي الـفؤاد بـعـد قتلـهِ:

كـيف يكـون الحب فـي الـقُبـورِ؟!

غـــزل القصابيـن

قال المصنف:

الحمد لله الذي جعل من القصّابين شعراء، ولم يصطف منهم نقاداً. وإلا لرأيت بعض الشعراء معلقين في المعاليق. ولرأيت، لا قدّر الله، القصّاب ضاغطـاً بركبته على صدر الشاعر يريد به ما يُراد بالأغنام يوم الأضحى. لكن، لا تكونن ظالماً ولا جائراً، فإن هؤلاء الدمويين بالفطرة يحملون بين جنوبهم قلـوبـاً أشـد خفقاناً من الحمام الذبيح... «كالديك يرقص، مذبوحاً، من الألم».

اللهم الحمد لك والشكر لك والثناء كله لك على أن جعلت قلّة من القصّابين تصل إلى القمة؛ هولاكو، ستالين، هتلر... وإلا لم تجد على ظهرها مخلـوقـاً غير الأشجار والأحجار تسبح باسمك.

يقول قصّاب متغزّلا بجيد الحبيبة:

وجسست جيـــــدك، كم سعــــــدت بلـحـمــــــه

اللـــــه مــــــا أطـــــرى العظـــــام وأنعمــــــا!

مساكين. أفقهم على قدر الدكان. ولكن الخيال لا يحتاج إلى مساحة. وحتى في الزنزانات يستطيع المبدع أن يخلق عالماً بأسره، حتى حين يقول كهذا الشاعر القصّاب الذي لزم ما لا يلزم في القافية:

صرت أمشي هائماً
ففؤادي قد أخذْ
أي شاة أي عنز
عندها تلك الفخذ؟

في هذا العالم المجزري تحتفظ الأدوات بمكانتها في الشعر، ولكن مشاكل العاشق تظل هي هي، قصّاباً كان أم غير جزّار:

بسكين الدلال ذبحت صبري
بساطور الصدود كسرت عظمهْ

يقول صاحب «الفرائد»: ان هذا الفصل لدليل قاطع وبرهان ساطع على أن القصّابين ملمون ببحور الشعر إلماماً لم يحلم به الشعراء المحدثون. وحتى نضرب لك مثلاً لا يُردُّ أوردنا لهم أمثلة في الكامل، الرمل، الوافر، الهزج، البسيط، الطويل، الرجز، الخفيف، المجتث. فما عساك تقول؟ بل انك لتندهش وتذهل وأنت ترى القصّاب يهتدي إلى ما اهتدى إليه سيد شعراء العصور أبو الطيب المتنبي حين قال: «فما لجرح إذا أرضاكمُ ألم». يقول فحل القصّابين، وما أعذبه من هزج:

خذي السكين يا أملي
فها قلبي على الوضم
فما للذبح في نظري
إذا أرضاك من ألم

هناك مفارقات غريبة تحدث للشعراء، حتى ولو كانوا قصّابين. بل إن الجزّار لتعرض له مشكلات لم يعرفها الأوائل. هل سمعت بقوم يفرمون لحم القلب؟ أو لحم الكبد؟ خذ مثلاً قول القائل:

فَرَمْتَ قلبيَ بالهجران واعجبي
لم يشهدِ الناسُ قلباً بات مفروما

وقول الآخر:

كبدي قد فُرِمَتْ في هجرها
هل تُرى تُفرمُ حتى الكبد؟!

لكن القصّاب الشاعر العاشق ليس دائمًا ذا قدم عاثرة في الحب. فهناك المحظوظ الذي ينعم بالوصال وحرارة العطف والحنان حتى لتبدو له حرارة أحضان الحبيبة كدفء لحم الشاة التي ذُبحت لتوها:

دفء أحضانك يا ذابحتي
لحم شاة ذُبحت قبل قليل

إعلم أن معظم الشعراء القصّابين أو القصّابين الشعراء ينتمون إلى المدرستين الواقعية والطبيعية. وهذا خير مثال:

نقانق أشواقي أتتك سلاسلا
دلالك يشويها بنار من الهجر

ولقد أبدع الشاعر في تعبيره عن طول سلاسل مقانق الشوق باستخدام البحر الطويل

وقد انتحل هذه القصيدة عدد من شعرء الطباخين. فالمجال مفتوح لأهل الدراسات والبحوث والتحقيقات.

إن المرء ليرثي لحال الشاعر القصّاب الذي يقضي ليله متسهداً متأرقاً في ذكرى الحبيب ولا من مجيب:

صار كالنار في السهاد فِراشي
إذ تخيلت كرشها وهي تمشي

في حين يعاني الآخر حالة عجيبة من التعليق إذ يقول:

معلق في حبها
كأنني «معلاق»
لكنما صدودها
مفرمة الأشواق

(وفي رواية أخرى: فرّامة الأشواق).

هناك أبيات أصبحت مثاراً للجدل لإختلاف الروايات. من ذلك قول أحدهم:

لم أنم طول ليلتي يا حبيبي
ففؤادي ثغاؤه لا يكف

وإذا بالبيت يصبح محل مزايدة بقول الآخر:

ففؤادي خواره لا يكف

وزاد الآخر فقال وقد تجاوز الثور إلى الجمل:

ففؤادي رغاؤه لا يكف

ولم يجد أحد أصحاب الحداثة شيئاً فوق الجمل فاعتبر قلبه تيساً قائلاً:

ففؤادي نبيبه لا يكف.

هناك بائية من مجزوء الرجز لعبت دوراً كبيراً في تاريخ أدب القصّابين منها:

غرامها قصّابْ
غرامه الرقابْ
أحبابها أعداؤها
فهل لها أحبابْ
تُعمل فيهم جفنها
فيسلب الألبابْ
مجزرة عجيبة
ضاقت بها الرحاب
يا ويلهم من طمعوا
في ريقها الرضاب

هناك القصّاب الحكيم الذي يدرك أن كل سكاكينه وسواطيره وأدواته الدامية لا تجدي شيئاً إذا جد الجد، ووقف الحبيب وقفة صارمة رافضاً التعامل بالقوة والمساومات. فيعود القصّاب إلى رشده ويقول:

ليس تحميني سكاكيني ولا حتى سواطيري إذا هجرك جدًّا
قد سللت الصد سيفاً قاطعاً
فاجعلي وصلك للهجران غمدا

لكن القصّاب الشاعر ليس دائمًا متوسلاً فقد يغدو متوعداً مهدداً. استمع لهذا المعنَّى كيف يتمزق ويتمنى أن يمزق:

ليت هـــذا الهجـــر يـــا قـلـبي خـــروف

فـــأريـــه كـيـف تـســـودّ الـظـــروف

اجعـــل الـــدنـيـــا لـــديـــه سقـــرا

وهـي صـيـف وعـلى ظـهــــره صـــوف

ويقول آخر مقترحـاً على نعجـة النـوى عـدم المكـابـرة لأن ذلك أجـدى، فالمعارضة لا تثمر إذا كانت إزاء قصّـاب:

يـــا نعجـــة البعـــد يـــوم الـــوصـــل لقيـــانـــا

أريك مـــا لم يـــلاق الكبش مـــذ كـــانـــا

تـعـــارضـين سـكـــاكـين الهوى عـبـثـــاً

وأنـت أجـبـن خـلـق الـلـــه خـــرفـــانـــا

فـــلا تـثـــوري ولا تمسي مـعـــارضـــة

أجـــدى لمثـلـك أن تـسـتـسـلـمي الآنـــا

المشكلة الأساسية ليست مشكلة القصّـابين. وإنما مشكلة الخراف التي لا تفهم. وما دامت الأغنام لا تدرك شيئاً. لإرتفـاع نسبـة الأميـة بين صفـوفهـا، بشهادة منظمة اليونسكو، فإن من حق القصّاب أن يقول:

حـــبـــيـــبـــتـــي لا تـــقـــلـــقـــي

لـــن يـــبـــعـــــــــدوك عـــنـــي

أذبـــح شـعـبـــاً كـــامـــلاً

إن يـــأخـــــــذوك مـنـــــــى

إمتلاك القطعان والرقاب يؤدي إلى هذا الحد؟!

عدالة الحب

قال المصنف:

من قال إن شعراء أصحاب المهن لم يطوّروا الشعر ولم يخرجوا عن الكلاسيكي الموروث، فقد افترى على خلق الله. فالتطوير والتجديد والتحديث والتعصير جرّبها حتى الحمّالون، والزبّالون والإسكافيون والحانوتيون، أطال الله أعمار القراء، وبائعو الخضار والفلاّحون والعرّابون وأصحاب تصليح السيارات... وما نورده شاهداً شهيداً ليس سوى حبة من طامور، وحرف في ديوان طاغور.

لا وجود لطبقية في الحب. فالفقراء والأغنياء يفتحون أعينهم على شمس واحدة. ويغمضونها على قمر واحد. وعندما تخفق قلوبهم فإنها تتفق جميعاً على المحدث، على الخبب. كلها تقول: فعلن فعلن فعلن فعل...

فما أشد ما نظلم عباد الله، أصحاب المهن الدنيا، عندما نرفع عنهم كلفة الكَلَف، ومشقة الشغف، وحلاوة نوائب الحب، يا رب!

هل هناك قلب لا يحب؟ لا قلب!

لك أن تذهل إذا أنت سكبت في روحك هذا المقطع من قصيدة لأحد الحمّالين، فقد أتى بصورة لا تستطيع إلا الكاميرا تصويرها.

تخيل الحمّال وهو يتمنى أن تصبح الحبيبة عربة. فيمسكها من رجليها وتظل تمشي على يديها. لكنه أخذ إحتياطاته جيداً فلن يدمي يديها بالأشواك والحصى والحفر:

دقات قلبي في النوى مضطربه

ليتك يا حبيبتي

رجلاك في يديّ مثل العربهْ

وأجعل النعلين في يديكْ

مخافة عليكْ

فدر بنا أشواك

وفيه ألف عقبهْ

أي شعر تفعيلة هذا! أية جزالة وأصالة! ان هذا المقطع لجدير بأن يلهث خلفه نقاد آخر الزمان بعشرات الصفحات. ولهذا الحمّال أيضاً:

كسر الحِمل عمودي الفقري

فتنهدتُ

تخيلتكِ أنتِ

فوق ظهري

صار كيس الأرز ريشاً وبلمح البصر

يا قدري

صار فولاذاً عمودي الفقري

لكم ألّـف الناس قصصاً وحكايات حول الإسكافيين. ولكن أحداً لم يهتم بأشعارهم وكأنهم ليسوا من عبيد الخالق. تخيل الإسكافـــي العـاشق، ان كـل شكة إبرة إنما هي سـهم كيوبيـد في فؤاده، وكـل مسمار إنما هــو في أضــالعـه وحناياه:

رقعي نعل غرامي

بمسامير اللقاء

فلقد طال الشقاء

لك أن تسـأل نفسك، قبل الآخرين: كيف لا يكـون من حق الحــانـوتي ان يعشق؟ كيف نحرم الغسال الكفان من حق الحب؟

أسئلة وجودية يضعها أبو الزبائد أمام القـارىء النبيـه، بجـرأة مـا لها شبيه، يقول: تأمل هذه المشاهد الدراكـوليـة في الهوى. ثم تفكـر مليـاً في نـدرة الشعراء الحانوتيين، شعراء الأكفان والنعوش. هذا أحدهم يقول، لا فض قبره:

غسلي قلبي بوصل كفنيه

بالحنــــانْ

بين أحضانك في الدفء ادفنيه

واكتبي فوق الضريح :

. . . وأخيراً، مات كي يلقى الأمانْ.

أية وجودية في الحب! تا الله انها أبعد مدى من حديث سارتر عن «موتى بلا قبور»!

ولعل الحديث عن الغسل والغسيل ينقلنا إلى غسيل من نوع آخر يفتح لنا الآفاق على الشعر في عالم غسيل السيـارات وتشحيمهـا، على محطـات تصليـح

المركبات... فأنعم النظر في قول القائل:

حبيبتي تشحن قلبي بالألـمْ

لكنني أقول دائماً: نعم... نعمْ...

لكنما فؤادها، يقول في هياج

كأنه مسّـاحة الزجاج:

كلا ولا... كلا ولا... كلا ولا...

ليت حبيبي يغسل الفؤاد

يشحم الضلوع في السهاد

يقول لي في مرة واحدة: نعم!

إنه لتجديد حقاً، يُضـاف إلى مفـاخـر تطـويـر الأدب العـربي على أيـدي الفحول والعباقرة في هذا العصر الحديث، عصر الحداثة.

إعلم، زرع الله في صدرك الإبداع، اننا الساعة في عصر لا يفلح فيه إلا من كان واقعياً. تأمل هذا الفلاح كيف يحب بكامل أدواته:

حرث القلبَ هواكِ بمحاريث النوى

قلّـب الصدر بمسحاة الجوى

بذر الشوق، سقاه سهرا

فإذا الشوك حقول

وإذا اللوعة أضحت بيدرا

هذه الواقعية تبلغ أوجهاً مع العرّاب الذي حقق ألمع الإبداعات في اختياره الخبب، وهو المتعامل مع البغال والخيول ليل نهار. لقد ركز على «الموسيقى الداخلية» أيما تركيز.

يقول، لا قطع لجامه:

تـعِـبٌ تَـعِـبُ

صدري خببُ

قلبي كالبغل يجرّ هواكِ صباح مساءٍ ينتحبُ

قلبي خببُ

قلبي تعبُ

تأمل كيف ظل يؤكد على الوحدة الموسيقية في الإيقاع الداخلي، وكذلك على الوحدة الإيقاعية في الموسيقى الداخلية. كما ركز على الإيقاع الموسيقي في الوحدة الداخلية وعلى الداخلية الموسيقية في الإيقاع الوحدوي... مما يضيق بشرحه المجال هنا...

ان الأريحية التي عُرف بها قارئنا الكريم تجعله بمنأى عن أن يزدري الزبّال إذا هو تغزّل أو تشبّب أو أرسل نسيباً ووجيباً ونحيبا.

فهذا البائس المحكوم عليه في جميع مجتمعات الدنيا ينتفض مدافعاً عن شرف إحساسه، وعن أنه ليس دون بني جلدته رهافة وشفافية حتى أنه يطالب الحبيبة بأن تحذف زاي الزبالة وتستبدل بها ذالا. لأنه يرى نفسه ذبالة تحترق لتضيء للناس. قال في قصيدة طويلة:

أبدلي بالزاي ذالا

وارحمينـــــي

خالني الناس زبالهْ

وأنا فيهم ذبالهْ

وله أيضاً، وقد أثار قضية روائح أكياس المهملات. قال لافض أنفه:

لولا شذى حبيبتي

يظل في شمي على طول المدى

تقتلني روائح الأكياسِ

يا للمصير القاسي.

ترى أين يستطيع هؤلاء البؤساء أن يطرحوا أدبهم؟ وأية عدالة أدبية هذه التي تحول دون حرية تعبيرهم عن ظروف هي أصيلة فيهم؟ أليسـوا جـزءاً لا يتجزأ من الطبقات التي يسمونها مسحوقة؟!

هذا بائع خضـار، أحب، دون ذنب منه، إحداهن. ويبدو أنها حسنـاء بنت حسب ونسب. وإذا بها تطالبه بأن يكـون ذا بطـولات ومـلاحم، ولكن ذلك لم يكن في مقدوره...

فأطلق صرخته العارمة:

تلومني حبيبتي

تريد أن أفتح دكان ملاحمْ

حبيبتي: تجارتي الطماطمْ

وليس من شأني تجارة الملاحمْ

إن الصغير مثلي

لا يستطيع الإتجار بالعظائم

تجارة التاريخ والأمجاد والفخارْ

لا يستطيعها الصغارُ

كالحداد والنجارْ

وبائع الخُضارْ

قصّتهما

لا معنى لتحرير المرأة إذا لم يتحرر الرجل. ولا حرية لرجل إذا لم تتحرر حواء. لكن المشاكل المعلقة منذ ما قبل التاريخ أكثر من أن تُـحصى أو تُـحصر. وهي مشاكل زئبقيـة من الصعب التصـويب إليهـا، حتى على أمهـر قنـاصـة المعضلات المتحررين فكرياً. أشياء كثيرة نرهبها، نهرب منهـا بـدل مجابهتهـا، رغم أنها تشدنا إلى الخلف، إلى التخلف، وتعرقل مسيرتنا وتضبب رؤيتنا. لندع الجنسين يصفيان هذه الحسابات القديمة. ولنأخذ الأمور ببساطة.

منذ فجر وجـود الجنسين، والـرجـال يـركضـون وراء النسـاء. وهؤلاء «يتمنّعن... وهن الراغبات» كما تفضل أمير المؤمنين علـي (كرّم الله وجهه). وقد اختطف أبو الزبائد هذه الحكمة الذهبية الخالدة، ومضى يقول:

يـتـمـنّـعـن وهـن الـــراغـبـــات
هـن يـصـــددن وهـن الـظــامئـــات
نـسـمـــة الحــب إذا مـــا داعـبـت
أضلــع الأبطـــال أمســوا كــالـرفـــات

نبغت حواء في كتمانه

وأجادت فن قتل الكلمات

هذه الأبيات على قلتها أثارت ثائرة بنات حواء. فردت إحداهن على الشاعر ساخطة، وقالت مخاطبة كل الرجال:

أدعياءَ الحب لا تلغوا جزافا

قد مللنا ما نسجتم من صفات

حبكم واه كبيت العنكبوت

وهو في أضلعنا كالراسيات

أنتمُ تفضحكم أعينكم

والتماسيح لديها عبرات

كيف لا نكتم حباً شأنه

قصةٌ فيها حياةٌ أو ممات؟

الشطر الأخير يبعث على الإستغراب والإستنكار، ويصيب الرأس بالدوار. فما قصة الحياة والموت هذه؟ وهل المسائل خطرة إلى هذا الحد؟

هذه التساؤلات يبدو أنها لاحت لأبي الزبائد، ولذلك قال:

لماذا ترى كتمت حبها؟

أتكتم أحلى هبات الوجودْ؟

فلولا الهوى لم يكن خافقٌ

يتوق لضحكة فجر جديد

بـــــه الـطـير غـنـى عـــــلى أيـكــــــه

وتـســــــرق مـنــــه شــــذاهـــــا الــــــورود

فـكـيـف نُكـتِّـم حـبـــــــاً لـــــــــه

عـــــلى كــــل شبـــــر ألـــــوف الشهـــــود؟

تطورت الأمور بشكل لم يكن متوقعاً. فهذا المنعطف الرومانسي الـرقـراق دفع شاعرتنا إلى أن تضع يدها على حيث الداء، من وجهة نظرها طبعاً. والعهدة عليها فيما تذهب إليه. تقول:

نـحـب ولـكـنـنــــــــا لا نـقـــــــــولْ

وشــــــرح الحـكــــايــــة كـم ذا يـطـــــول!

فـمـن عـهــــد نـــــوح لـنــــا قـصـــــة

فـمــــــاذا لـــــديـك إذن مـن حـلــــــول؟

عــــرفـنـــا الهوى والـنــــوى والجـــــوى

وخـفـق الـفـؤاد عـلـيـهـــــا دلـيـــــــل

ونـسـمــــــــع مـلـيــــــون أغـنـيــــــة

فـهـــــذا بـكـــــاء وهــــذا عـــويــــــل

وذا شــــــاعــــر جُـنَّ فــــــي حبـــــه

وهــــــذا معـنّـى وهـــــــذا قـتـيــــــل

يـــرددهـــا الـنـــاس فـــــي كـــل شبـــــر

بهـــذا الــــوجــود العـــريض الطـــويــــل

ولكن حواءنا لا تقول

تقول: عشقتُ؟ فهذا مستحيل!

متى تتحرر هذي القلوب؟

فهذي التقاليد قيد ثقيل

هكذا انفعلت الشاعرة وأبدت سخطها وغضبها على رواسب الماضي. رغم أن الذين تعنيهم لم يعودوا الأغلبية. فقد انتشر التعليم وتفتحت الأذهان بلقاء الحضارات والثقافات وزوال الحدود بفضل وسائل الإعلام... صدق أو لا تصدق!

لذلك، رد عليها شاعرنا يستوضح بعض الخفايا. ففي ظنه أن رجل عصر الذرة والتكنولوجيا الحيوية لم يعد يصر على وضع حواء في أسفل سلم الكائنات. يقول:

عهدي بأن جميع الناس قد دخلوا

عصر الفضاء جماعات ووحدانا

وفارقوا جاهليات طغت زمناً

وأصبحت طُرفاً تروى وألوانا

شَغَفْتِني بحديث صائب خلدي

فهام قلبي بحلو الشعر نشوانا

لا درَّ درُّ زمان ما به أفقٌ

لعاشق بات في نجواه هيمانا

فأخبريني عن الوجهين كيفهما

وعن تناقضنا دوماً وآبانا؟

أن يعشق الرجل الجبّار مفخرةٌ

وحب حواء جُرْمٌ كيفما كانا؟!

لم تكد هذه الأبيات تقع في يد شاعرتنا حتى برقت في ذهنها بارقة أمل في أن لم تعد وحيدة في تفكيرها. وتساءلت في صمت: «وأين ذهبت نداءات قاسم أمين؟ والطاهر الحداد؟ ولماذا وئدت كل تلك العلامات المضيئة في ليالي حواء...؟».

وأطلقت الشاعرة العنان لقريحتها التي فاضت بهذه الأبيات:

يا من على الوتر الحساس يسمعني

ما يسكر الروح أنغاماً وألحانا

زدني بربك شجواً فهو يؤنسني

فقد أثرت من الأعماق أشجانا

تقدمت مدن الإنسان وازدهرت

والفكر يزحف، يحبو مثلما كانا

حضارة الرجل الجبّار ماضية

فمن يؤيد في التحرير مسعانا؟

إذا أحب سمير فالهوى مَلَكٌ

وعند ليلى يصير الحب شيطانا

لولا الغرام لظل الغاب مرتعنا

إن الغرام يحيل الوحش إنسانا

هنا، كانت الطامة الكبرى. فقد رد أبو الزبائد على شاعرتنا بأبيات أطارت عقلها واعتبرتها إتهاماً صريحاً. قال:

لـــولا خـطـيـئــــة أمّـكـن لـمــــــا جـــرى
هــــذا الـــذي منـــذ الخليقـــة قـــد جـــرى
تـفــاحــــة نـــــزلت بـنــــا مـن جـنــــة؟
أو ليس هـــــذا فـــــي الحقيقـــة منكـــــرا؟
فهنـــــاك فــــــي الفــــردوس أروع عـيـشــــة
لـكـن نـقـص الـعـقـــــل كـــــان مـقــــدرا

عامل المفاجأة جعل الموقف يتفجر بين «هما». فلم تكن الشاعرة لتسكت عما بدر من الشاعر. فالإتهام الذي وجهه إليها جذري وموثق. فكيف كان ردها؟

منـــذ النـــزول وحكمنــا فــي كـفـكـم
فتعـــال قـــل لـــي مـــا فعلتم، يـــا كـــذا؟
قيـــدتمونـــا فــــي البيـــوت وقلتمـــو
لا يسلـم الشـــــرف الـــرفيـــع من الأذى
تـتـــزوجـــون، تـطـلـقـــون، كـــأننـــا
ثـــوب يجدد حين يـــبلـــى أو حـــذا
أولست تـــدري بـــالأمـــور تـغـيـــرت؟
مـن لم يـغـير لـيـس يـلـقـى مـنـفـــذا

حـــــــواءّ ظلت لـلـــرجـــال أسيـــــرة

مثــــل البـهـيمـــة لـلفــــراش ولـلغـــذا

هذا الرد الصاعق براجمات الصواريخ جعل الشاعر يُصاب بثقب في أوزون تفكيره، وباحتباس حراري في شعوره، لذلك عانى الكثير قبل أن يحاول بلورة خواطره. ها هو يلقي المسؤولية على عاتق حواء وبناتها. ولا يجد غضاضة في الإعراب عن شك الرجل في قدرة المرأة على الوقوف على قدميها في زحام الحياة جنباً إلى جنب الرجل، وكأنه يتهمها بسهولة الإنقياد والانجذاب والوقوع في حبائل الصيادين:

إنـمــــا حـــــواء أصــــل المشـكـلـــــهْ

فهي مـنـــذ البـــدء كـــانت معـضلـــهْ

نـحـن نـخـشــــى الإنـحـــرافـــات الـتـي

إن تـكـن، أرحـم مـنـهــــا المقـصـلــــهْ

مـــن تُـــرى يلُـجـمـهـــــا إن تُـركـت

دون قـيـــــد؟ فـهـنـــــاك المســـألـــهْ

كيف أرضــــى الغيــــر يـــدنـــو من حبيبي؟

ســــــوف أُدنـــــــــي، دون ريـب، أجَـلَـهْ

فجأة، سرت قشعريرة ساحرة في جسد الشاعرة، عندما سمعت البيت الأخير. فقد بدا لها أن الشاعر لم يقله عبثاً. وغرقت في موجة من المشاعر الرومانسية الرقيقة. ظلت فترة حالمة ترنو إلى الأفق يتحول فجأة إلى لوحة وردية مشرقة عابقة:

غيـــــرتـــــــي تـقـتـلـنـي إن رمـقـت

مقـلـــــةٌ فـــــي خـلـســـــة وجـــــه حـبـيـبـي

تُـظـلـم الـــــدنـيـــــا إذا مـــــا غـــــاب عـنـي

فـــــإذا أقـبـــــل أهـــــلاً بـــــالـطـيـــــوب

كـــل شـــــيء عـنـــدهـــا يـشـــدو ابـتـهـــاجـــا

من فـــــراش الـــــروض لـلـنـهـــــر الـلـعـــــوب

تبددت الغيوم التي كادت تعكر صفو «هما»... وشعر الشاعر بأنامل كلماتها تعزف أحلى الألحان على أوتار فؤاده. فقال لها:

أنـت يـــــا مـؤنـســـــة الـــــرّوح أجـيـبـي

أنـت كـــــون ســـــاحـــــر جـــــدّ عـجـيـبِ

نحن قـيـــــدنـــــاك ظـلـمـــــاً من قـــــرون

فـظـلـلـنـــــا فـــــي دجى لـيـــــل رهـيـبِ

إنهضـــــي يـــــا حلـــــوتي فـــــالفجـــــر آت

وتـعـــــالـــــي نـتـصـــــدّى لـلـخـطـــــوبِ

مصائر الذقون

إستهل أبو الزبائد هذا الفصل بالقول:

لحكمة ما اصطفت العناية الذقون وخصتها بالضحك عليها،(*) دون سائر الأعضاء، ما ظهر منها وما خفي أو استتر. فأنت لا تجد عاقلاً واحداً من بني آدم يقول لك: فلان ضحك على أذني، أو: هذا ضحك على البطون. ماذا عساك تقول لمن يقول لك: أتراك تضحك على يدي؟ فليس هناك ضحك على الأكباد أو القلوب أو الأيدي أو الخصور أو الأكتاف ولا... ولا...

هذه الأعضاء لا يضحك عليها أحد، فهي على ما يبدو جادة لا تحب المزاح والهزل والتهريج. ولعلها ذكية إلى حد بعيد فلا يقوى أحد على الضحك عليها.

قل إن شئت: هذا هو قدر الذقن وهكذا هي مصائر الذقون. منذ فجر التاريخ والناس يتغزلون بالعيون. من كشكشة هوازن (إبدال الكاف شيناً):

وعيناش عيناها وجيدش جيدها
سوى أن عظم الساق منش رقيق

* لا يقال ضحك عليه. الصواب: ضحك به ومنه. ولكن المصنّف استخدم العبارة الشائعة عمداً.

إلى قول آراجون في رفيقة دربه وقلبه السا:

عيـــــناك كشــــعب يثــــور

أما الذقون فقد خُلقت ليضحك عليها الناس، ذقون الرجال والنساء... الكبار والصغار... فالناس سواسية أمام الضحك على الذقون.

اعلم، لا أضحك الله أحداً على ذقنك، ان الضحك على الذقون فنون، لها أصول وقواعد وعلوم طويلة عريضة، أطول وأعرض من كل الذقون التي خلقها الباري عز وجل.

الضحك على الذقون له معان عدة تدور كلها في فلك واحد: الإستهبال، الإستحماق، الإستحمار، الإستبغال، الإستسذاج، الإستبلاه...

لذلك، لا يجوز أن نقول: فلان ابتسم على ذقن فلان، أو تبسم عليه. ولا تقل أيضاً عن الحسناء: لقد افتر ثغرها على ذقن فلان!

لكن يجوز لك أن تقول عن شعب كامل، عن شعوب، عن أمم: إنهم ضحكوا على ذقونها!

يردد الحكماء الفضلاء دائمًا أن العام والعامين والأعوام العشرة وحتى الخمسين غير مهمة في عمر الشعوب، فهذه لا تنطبق عليها، كالأفراد، القولة المرعبة: عشرة السبعين دقّاقة الأعناق، ولا الأمم تسأم تكاليف الحياة إذا هي بلغت الثمانين كزهير بن أبي سلمى.

وبناءً على ما يتفضل به السادة الحكماء الفضلاء، فإن طي صفحات لينين وستالين وخروتشوف وبريجنيف وأندروبوف من كتاب حياة الشعوب السوفياتية أمر غير ذي بال، أو ليس المثل يقول: الوصول متأخراً خير من عدم الوصول أصلاً؟!

ماذا يهم أن تذهب السنين من ١٩١٧ فصاعداً فداءً للبريسترويكا التي فشلت بدورها؟

السادة الحكماء الفضلاء يقولون: ما أروع الشبع بعد الجوع. ما أحلى الوصال بعد الهجران والصدود.

المهم التصحيح. والتصحيح يستلزم الوقوع في الأخطاء، كما يتطلب إيجاد أية حركة إصلاحية وجود فساد كالجراد المنتشر، كالوباء. والا فماذا عساك تصلح؟

هل تريد إصلاح شيء صالح؟ وما دام الأمر كذلك فان علينا أن نفسد في الأرض لكي يتسنى للحركات الإصلاحية أن تصلح. هل يجوز أن نتركها عاطلة باطلة، تملأ الدنيا كلاماً ونصائح ومواعظ ولا تفعل شيئاً أبداً؟

ثلاثة وسبعون عاماً! ها هي الإيديولوجية التي كانت ستبتلع العالم قد انهارت!

فماذا تهم إذن ثلاثة عقود إذا هي محيت من عمر شعب؟

بعد ثلاثين سنة يُقال بإيجاز: نمحو ما مضى ونعيد. مثلما يقال للطفل عندما يقع على الأرض: تكبر وتنسى.

السادة الحكماء الأفاضل يتفضلون بالقول، (وبالمثال يتضح الحال):

ما الذي يضير الجبل أن تأخذ منه حصاة؟

ما الذي يضير البحر أن تسرق منه قطرة؟

إقطع شجرة من غابة... خذ حفنة من رمال الصحراء... أقطف نجمة من السماء... لن تغير شيئاً...

هكذا هي بلاغة الأفاضل الحكماء: خذ خمسين سنة من عمر شعب حضارته تعود إلى آلاف السنين، ستراك تعبث، تنفخ بكل ما أوتيت من قوة وطول نفس لكي تطفىء الشمس! أما أنت الذي خلا صدرك من الحكمة فتتساءل: بأي حق تؤخذ السنين والعقود من أعمار الشعوب والأمم؟

والجواب: لأن للشعوب ذقوناً، والذقون خلقت ليضحك عليها. أما الميادين فحدث ولا حرج...

طوال السنين الماضية كانت الكتلة الشرقية تعيش عهد القديسين، ثم فجأة، شهد شاهد من أهلها على أن الماضي كان كابوساً مرعباً يجب التخلص منه، وفي لمح البصر أصبح تشاوشيسكو لصاً وجيفكوف سارقاً... وطويت الصفحات.

وستكبر تلك الشعوب وتنسى!

في الثقافة أيضاً ضحك على الذقون بشكل مذهل.

خذ الأدب. أصبح لنا في العالم العربي من الأدباء ما يفوق عدد القراء.

لا تعجب! تأمل نسبة الأمية. وستعلم ان عدد القراء ليس أكثر من عدد الأدباء.

خذ الشعر. لم يبق أحد لم يركل هذه الدابة ويضربها ضرب غرائب الإبل.

وهكذا صار الأذلاّء ثلاثة: عير الحي والوتد والأدب.

خذ القصة، خذ المقالة، خذ ما شئت... فالضحك على الذقون واحد.

ضاعت المقاييس... قيل للسذج: لا يحتاج الفن إلى أية بضاعة. تخلصوا من الأوزان والإيقاعات وافعلوا ما شئتم باسم حرية التعبير، باسم التطوير والتحديث والتعصير، ولتخسأ كل المقاييس.

في الموسيقى، القصة نفسها. أصبحت تبحث عن الحق بالمصباح في ظلام النهار.

وعندما تهدم أركان الذوق والمنطق ويسود الهرج والمرج وتستشري الفوضى تصبح كل الميادين لبكّانات وسودانات وهلم جرّا...

عندما تطول ذقون الشعوب فإن من حق الحماقات ان تمتطي ظهورها

وتضحك عليها. يلقم حجراً من يقول:

ان أخطر ما تُصاب به الشعوب والأمم تسطيح الفكر فيها وكسر الأقلام وشل الفرش وتحفية الأزاميل واخراس الأفواه وتبحيح الحناجر.

ان نشر الضحالة أخطر من القذائف، فيلم هابط، أغنية عجفاء، شعر كسيح، أخطر على مصير الأمة من الغزو العسكري. فهذه الأدوات التخريبية الفتاكة تجعل الناس يسيرون عكس اتجاه الزمن. وعندئذ يكبرون وينسون الذات وينسون الهوية.

لم لا يتساءل الناس: كيف تكون النجاة من الضحك على الذقون؟

يقول أبو الزبائد: أخشى أن أقول لك كيف فتعتبرني أضحك على ذقنك!

البتان

كلمة بتان التي تُعرف بها تلك القبائل الباكستانية أصلها من قول الشاعر الذي رأى فيهم الشدّة والحدّة:

قوم شداد في الوغى
كأنهم طوفانْ
كأس الدماء عندهم
أشهى من الدنان
للناس بتٌّ واحد
وهم لهم بتّان

تنزيلات

عنوان هذا الفصل لأبي الزبائد: تنزيلات. هكذا. لكنه يتحدث، في الحقيقة، عن الرخاء الذي يمكن أن تنعم به أية أرض تريد أن تكون جمهورية فاضلة جداً جداً جداً. رغم أن صفة «الفاضلة» تعيد إلى ذهنه، رغم أنفه، عنوان كتاب لسارتر.

هذه الجمهورية الفاضلة جداً جداً جداً... كلها سخاء وكرم. الناس فيها كلهم عطاء، يعطون كل شيء، ولا يدعون شيئاً إلا أعطوه، العطاء للعطاء. فحتى حين يستخدمون فعل «أخذ» يستعملونه كفعل مساعد قائلين: أخذت أعطي، أخذت تعطين، أخذا يعطيان، أخذتم تعطون، أخذتن تعطين، أخذن يعطين...

أسماء الناس: عطاء، معطاء، عطّاء، عبدالمعطي، المعطي بالله، العاطي بالله، العطاء لله، عطيات، عطايا، عطاءات، إعطاءات، عطوان... وهلم دفعاً...

كل شيء زهيد في هذه الجمهورية. كل شيء يُباع بثمن بخس. حتى الأشياء الثمينة. فان لم توجد استوردوها بأبخس الأثمان. جمهورية متصوفة. زاهدة. عارفة بالله كأكبر العرفاء. تجريدية التفكير، تجريبية التعبير.

جمهورية صدرها رحب لأنها فاضلة، تتسـع لكـل شيء ولا تعـارض أي عرض!

الشعر فيها يكتبه كل من هب ودب باسم العدالة والحرية والديمقراطيـة. القلم يحمله الزبّـال والعتّـال والحمّـال والجمّـال وسائر العمال... ليس من حق أي كان أن يمنع أياً كان من أن يقول ما يشاء بدعوى أنه شعر ضعيف أو أنـه ليس شعراً على الإطلاق. فلا أبولو، إله الشعر، أبـوه، ولا فينـوس، إلهة الجمال، والدة سعادته.

ومن يفعل مثقال ذرة غير هذا كان عدواً لمحو الأمية.

إذا كسر أحد أوزان الشعر واعترض عليه أحد النقاد، جرجـرنـا الشعـراء القدامى إلى محاكم التفتيش. من امرىء القيس فصاعداً، وأحمد شوقي فنـازلاً، واحداً ثم واحداً... وألقمناهم حجراً: من أين لكم هـذه القيـود التي تثقلـون بهـا كاهل الطبقة الأدبية الكادحة، والبروليتاريا الشعرية؟ كيف تمنعون هؤلاء الذين لا يملكون أية بضاعة من أن يصبحوا من كبار الملاكين الأدبيين؟! من قـال لكم قولوا كلاماً سليمًا وحولوه إلى قوانين وقواعد؟ نحن نطالب بإزالة كل القـواعـد. نريد أرضاً حرة بلا قواعد.

في الموسيقى، تتمتع هذه الجمهورية بذوق عجيب. فالأمـر بكـل بسـاطـة ووضـوح: إذا كان من حق جميع الناس أن يسمعـوا، فـإن من حقهم أيضـاً أن يعزفوا ويلحنوا ويغنوا، ويطبلوا ويزمروا... وينتجوا بأبخس الأثمان.

البرهان القاطع في ذلك أن صدر الطبيعة يتسع لكل الأصوات دون تمييز. ديمقراطية الطبيعة: هناك الرعد وحفيف الشجر، فحيح الأفاعي وأغاريد البلابل. ليس هناك أي تعارض. كما أنه لا وجود لأي تضاد بين السبانخ والموز. الثـوم والتفاح. الكرّاث والفراولة... ليس هناك تشـابـه أو تماثـل. وليس هنـاك أيضـاً تصارع أو تقاتل.

المهم في موسيقى هذه الجمهورية هو أن تصدر عن الناس أصوات. كيفما اتفق. المهم الأصوات. لا الناس ولا الفن. فالعلامة الوحيدة على وجـود القطيـع، عندما يغفو الراعي، هي الثغاء. وما دام الثغاء مستمرا فان الدنيا بخير. والدنيـا بخير ما دامت التيوس والمعيز في مكانها... حيث هي!

هناك مشاكل ومسائل لا تستطيع الجمهورية الفاضلة جداً جـداً جـداً أن تحلها بوسائلها وامكاناتها الخاصة. فهي تلجأ إذن إلى الإستيراد. فالمشكلة التي لا حل لها لم تلدها أمها بعد.

القاعدة الذهبية الجارية على كل لسان، السارية في كل شريان هي: لا شيء لا يشترى. لديك مال؟ أنت إذن سيد الأعمال، وقبلة الآمال. أنت الفاعل الفعـال. أنت شاغل البال وأنت الذي بيدك... استغفر الله!

ـ هل يمكن أن يستورد الحب مثلاً؟ ما كل شيء يستورد.

لكن، لم لا؟

في الجمهورية الفاضلة يستورد الحب، الحب لكل قلب. كما الخبز لكل فم. مادة إضافية في قائمة الواردات: الحب.

الديمقراطية تقضي بتوفير الإمكانات المناسبة لكل واحد. أنت تشتري بدلـة بمائة درهم وأنا أقتني ربطة عنق بألف دينار. هناك حب بمائة وآخر بألف.

يجب الإستفادة من الطاقات الإنتاجية للشعـوب ذات الأجسـام العـاملـة الزهيدة الثمن. فنحن نسير نحو العالم الواحد.

لم لا يكـون في إمكـان النـاس جميعـاً أن يحبـوا؟ لمـاذا يحب القـادرون وأصحاب الطاقات ولا يكون من حق هذا المسكين أو ذاك البائس أن يتأبط ذراع حبيبته ويتجولا معاً في الحدائق والأسواق ويفعما الدنيا ذكريات عذابا؟

هذا لا يكون إلا بحبيبة تشترى مثل قارورة المشروبات الغازية. حبيبة لها مرتب شهري.

- والرومانسية.

- لتذهب إلى الجحيم. من قال ان الحب الرومانسي هو الأفضل، هو الأجمل، هو الأعدل؟! هذه مقاييس متخلفة جداً جداً جداً.

من قال إن مجنون ليلى هو الصورة المثالية للحب؟

شخص مُزْرٍ. عليه أسمال بالية. وجه شاحب. جسم يعاني سوء التغذية: عود وجلود. شعر كث أغبر، لم يعرف قط شامبو مزيلاً للقشرة، مغذى بالبروتين، مقاوماً للتقصف، مضاداً للصلع المبكر... بشرة وجهه لم تنعشها يوماً الكريمات المغذية وأقنعة الفواكه وعطور ما بعد الحلاقة... لم يلبس ليلة السموكينج، ولا ذاق طعم سمك السلمون بصلصة الكافيار. ولا داعبت أنامله كؤوس الكريستال. لم يدخل ديسكو. ولا ولم... ولا ولم...

- وروميو الغبي؟

- ينتحر بدعوى الحب؟ أنا؟ لا يمكن أن أرتكب هذه الحماقة حتى لو انتحرت الدنيا بأسرها!

في الجمهورية الفاضلة هناك حب يحيي ولا يميت. الحب فيها قوت. حب بمرتب. متى مللته طردته، سفرته وأتيت بسواه، مثلما تمل قميصاً استهلكته أو حذاء أهلكته.

مللت الطبق؟ كل غيره. لا عتاب ولا شجن!

من روميو؟

ذلك الإيطالي الذي تقلص طموحه حتى الإنتحار، مثلما تقلص طموح امبراطوريته فأصبحت كل الطرق لا تؤدي إلى روما؟!

لك أن تقول إن شكسبير نفسه لا يعرف ولا حتى مقدار رأس نملة من هذه الفنون. وكانت معلوماته في الجغرافيا صفراً رغم أنه من بلد الـ بي. بي. سي، ولم يمتع نظره، ولا حتى طرفة عين «بالمتحف اللا بريطاني للمنهوبات العالمية»!

لا علينا!

كيف يمكن أن تبني حضارة إذا كان رائدك في الحب شخصاً مجنوناً تائها في الصحراء، هائماً على وجهه، يأكل الأعشاب البرية كالدواب السائمة؟!

أيجوز للمرء في نهاية هذا القرن، أن تضيء النار بين جوانحه، إذا هي أذكتها الصبابة والفكر؟

أيجوز للإنسان أن يكون كالعيس في البيداء يقتله الظمأ، وانهار الشرق الأقصى تجري من تحته؟!

أما السر في نجاح أمور هذه الجمهورية الفاضلة جداً جداً جداً... فيعود إلى أنها تسير بهدى من الحكشعبية. وهي التعريب الذي رآه أبو الزبائد لكلمة ديمقراطية.

ـ الحُكشعبية؟

ـ أليست حكم الشعب بالشعب؟! حكم الشعب للشعب...؟

رأس الحكمة

حكمة اليوم أننا دون حكمهْ
في نظام خاطوهُ من ألف نقمهْ

أمةٌ نصفها اللطيف أسيرٌ
ولها آخر من الجهل أكمهْ

إن تبعنا النظام صرنا عبيداً
أو رفضنا لم تبق للناس حُرمهْ

ملتقى الأدباء في الموانئ

لست أدري لماذا اختارت نخبة من كبار الأدباء الموانىء ملتقى لها؟!

أهل الأدب أدرى بأن المشاعر في المرافـىء والمطارات ومحطات القطار هي غيرها في أي مكان آخر. فثم حرارة الوصال والوصول. ومرارة الفراق والرحيـل. هناك، يلوح الأفق ذا وجهين متباينين. إذا كنت مودعاً عـزيـزاً فـالأفق صحـراء الموت وسديم العدم. أما إذا كنت تنتظـر الحبيب فـالأفق يـد الـربيـع السخيـة وشمس الأمل.

ترى، لهذا اختارت نخبة من كبار الشعراء والأدباء الموانىء للقاء؟

لعلهم لم يجدوا في المدن النادي الأدبي الـذي يشبـع نهمهم إلى الملتقيـات الجميلة. لم يعثـروا بعـد على الجـدران الأربعـة التي تكـون تهوئتهـا متطـورة كصاحبة عمر بن أبي ربيعة الدافئة شتاء، الباردة صيفاً:

طـفـلـــــــة بـــــــاردة الـقـيـــــــــظ إذا
مـعـمـعـــــــان الـصـيـف أضـحـى يـتـقـــــــد

سخنــــــة المشتـــــــى لحـــــاف للفتـــــــى
تحـــت ليـــل حيـــن يغشـــاه الســـرد

عجباً! لماذا فضلوا الموانىء؟ لا لفح الهجير يُهجِّرهم، ولا روائح الميناء تُنفِّرهم. فقد اعتاد الأدباء طبع العالم برؤاهم. هم يشيدون لأنفسهم العالم الذي شاءوا، أينما أرادوا ومتى طاب لهم. للناس عالم. وهم لهم عالمهم، دنياهم لا وجود لها حتى في الخيال. هذه حبيبة الشاعر: عيناها كشعب يثور. وخصلاتها حقل سنابل عند الأصيل. والفراشات ملت الزهر لما حدثتها الأنسام عن شفتيها. واثقة الخطو تمشي ملكاً. وقد قتلت حبيبها وأخفت دماءه في وجنتيها! نبراتها معزف، وان كان صِمتها أبلغ من كلامها ككل النساء!

خطر لي أن طول مقام الأدباء في الموانىء، رغم القيظ والرطوبة والعجاج، ربما كان وراء اختلاط الأمور عليهم إلى حد الهذر والهذيان!

تأملت إحدى السفن. ترى ما العلاقة بين الشحوم التي طليت بها وبين كتاب «أدب الكاتب» لإبن قتيبة؟ ظللت استعيد صفحات هذا الكتاب المنهجي الجميل، فيما عيناي تسايران منهجية نسق إصطفاف المسامير التي دقت على ألواح السفينة.

هناك أسلوب واضح في صناعة كل سفينة. وتركيب بديع وانسيابية...

حملت إلى الأنسام فجأة عبقاً أندلسياً. هو ذا إبن شهيد الأندلسي أمامي. أشعاره تتهادى في خاطري كالسفينة الحالمة على مياه الخليج. وفي لمح الحلم تحملني، ترسو بي على شاطىء من شواطىء الأندلس الخِضراء. وإذ يغمرني أريج مروجها أشيد قصوراً في اسبانيا، كما يقول المثل الفرنسي عن الحالم الواهم.

لكن الموانىء تطبع هي الأخرى الأدباء بما فيها.

رأيت ابن قتيبةلا يتأبط «أدب الكاتب» ولا «المثل السائر»... ولم أر ابن شهيد يحمل ديوانه وينثر غزلياته وحكمه...

كان كلاهما يحمل على ظهره مطاطاً ونفطاً وفولاذاً وأسمدة وأسماكاً

جافة ومواد كيمياوية لها روائح يفر منها الجماد!

كدت أصرخ: كيف يصل أدباؤنا إلى هذه الحال؟!

لكنني صحوت على قائمة السفن الراسية والمنتظرة في موانىء الإمـارات... ومن بين أسماء السفن: إبن قتيبة... إبن شهيد... إبن الرومي... إبن المعتز...

أذربيجان

لأذربيجان قصة لا يعرفها إلا الراسخون في أصل الكلام. فعندما استعمرت أوائل القبائل تلك الأرض، لم يكن يُعرف لها إسم. وكان رئيس تلك القبائل يروي الويلات عمّا تفعله الجنّ به من أذى. ومع ذلك كان الناس يحسدونه على ما هو عليه. فقال:

أضَرَّ بي جانُ هذي الأرض في جسدي
كأنّ حبلاً على جيدي من المسدِ
هم يحسدوني على جاني فوا عجبي
حتى على الجان لا أخلو من الحسدِ

والقافية كما ترى من لزوم ما لا يلزم. فسميت تلك الأصقاع «أضر بي جان» إلا أنّ الضاد لا يحسن نطقها إلاّ أهلها. فخففوها ووصلوها فصارت أذربيجان.

أمانة

أمـــة تخشى سفـــور العقـــل أهـــل للفنـــاءْ

فــزكـاة العقـل أن تغــرق فـــي بحـــر عنـاءْ

عـــدّك اللـــه أمينـــاً فـــي عـــداد الأمنـــاءْ

قيمـــة العمـــر رســـالات وكـــدّ وبنـــاءْ

أنت فكـــر، أنت جسم، أنت روح ذو سنـــاءْ

فـاجعـل النصف عنـاءً، واجعـل النصف غنـاءْ

ليت الكلام يختفي

ما من أمة إلا وعرفت، في تاريخها، أفراداً سعوا إلى توحيد العالم. بعضهم كان على حق كالأنبياء والمرسلين وكبار المصلحين. وبعضهم الآخر كان على باطل وضلال: من رؤوس روما إلى برابرة المغول إلى طغاة البلشفية والنازية... مروراً بأعداد لا تُحصى من أقزام الجبارة والدكتاتوريين...

لكن ذلك أصبح مألوفاً معهوداً لدى الناس. ولم يعد يلفت الإنتباه. فليس ثمة ما هو أغرب مما رواه أبو الزبائد، يقول:

من غرائب القيم في غوابر الأمم ما يحملك على الجزم بأن إنسان الحقب السحيقة أوسع خيالاً من معاصرينا.

كانت قبائل غرائب القيم وشعوبها مصرة على بلوغ الوحدة. كانت تؤمن بأن التشتت خطيئة ما لمرتكبها مفر، وجريمة لا تُغتفر.

كانوا يرون أن توحيد القبائل لا يكفي. واتحاد الشعوب لا يشفي الغليل ولا يبل الصدى. كانت لهم نظرة، كما نقول اليوم: أممية، عالمية، كونية، كاملة، شاملة.

لم يكن الحكماء والمصلحون والمنظرون ليخفى عليهم السؤال: ما هي العقبات والعراقيل أمام الوحدة؟

وكان الجواب فوراً: الكلام يأتي في صدارة المعضلات... اللغة... البيان باللسان.

قيل: نحل المشكلة بالتي هي أحسن.

واهتدوا إلى حل اهتدى إليه الناس بعد عشرات القرون، في القرن العشرين: تكون لنا لغة لا علاقة لها بأية لغة وتفرض على الناس جميعاً. قل إن شئت إنها مثل الاسبرانتو.

لكنهم، وما أعمق استشفافهم للمستقبل، لحسن النوايا ونقاء الطوايا، أدركوا أن الأمر ليس بالهين وما هو بالهزل.

قال حكماؤهم: ليس ثمة شيء يقف في وجه توحيد القبائل والشعوب كالنظرة الإقليمية الضيقة للأمور. فتلك الفئات الصغيرة ترى بعضها وهي وحيدة خيراً من قوتها وهي متحدة! ويا لغرائب القيم في غوابر الأمم!

قالوا: نصب كل الهموم في هم واحد. لولا اللغة ما شعر إنسان بأدنى اختلاف عن أي آدمي آخر. فباللغة يدرك المرء الفوارق العرقية والطائفية والتراثية والثقافية...

تكون هادئاً، مطمئناً، مرتاح البال، فإذا بلسان يتذبذب، كلسان الحية ذات الأجراس، في فم آدمي جالس إلى جوارك، وإذا بتلك الإرتعاشات تحدث أصواتاً تخترق جمجمتك الساكنة، كالبحيرة في ليلة صيف مقمرة، فتتحول الأصوات فجأة إلى قنبلة تفرقع هدأتك، وتطير نشوتك. فيخرج عفريت الجدل من قمقم الصمت، فإذا كباش الجدل وثيرانه ووعوله تتناطح...

كل ذلك من وساوس اللسان.

كانت تلك القبائل والشعوب تتصور أن اللسان هو السلك الذي انتظمت فيه حباتها، وانه واسطة العقد ويتيمة الدهر اللتان تتزين بهما وتتحلى. وإذا بها تدرك أنه العفريت النفريت والشيطان الميطان الذي ضيّق عليها الخناق باحتدام الجدل. وأضاع عليها فرصاً ذهبية لو استغلتها أحسن استغلال لغدت قوة ضاربة في الأرض، يرهبها الأشداء، ويحتمي بها الضعفاء.

قال الحكماء: كل الآفة في اللسان. ولو اختفت اللغة لاتّحد الناس ولم يجدوا شيئاً يُفرق بينهم أو يشتت شملهم.

لقد لاقى هذا الإقتراح قبولاً حسناً لدى سكان الأعالي وعامة المنتشرين في السفوح، رغم بُعد المسافات بينهم.

قال سكان الأعالي: هذا هو الرأي السديد. فباختفاء اللغة لن نسمع بعد لغواً، لا مطالب، لا وجع رأس، لا وسائل إعلام، لا مقترحات، لا مشاريع، لا مدارس تفتح الأذهان، لا معارف تخرج الناس من كهوف الرغيف، لا فنون تشحذ الذوق وتذكي الشوق، لا مؤسسات تجعل الفرد يشعر بأنه أكثر من كتلة لحم وشحم وعظم...

نقف نحن في الأعالي قبيل الغروب، نلقي من فوق ما شئنا من الطعام، فيلتقط كل واحد قطعة ويطير بها خلف صخرة يلتهمها، فإذا اقترب منه أحد كشّر عن أنيابه وفح وزمجر وهدر في وجه... يأكلون ويتناحرون وينامون!

أما سكان السفوح، فقد طاروا فرحاً أيضاً لهذا الإقتراح. قالوا:

ليس لنا أمل أكبر من أن تختفي اللغة. فسكان الأعالي يقولون كلاماً كثير الدوي، شديد القصف والقرع والهدير، عجيب الأصداء، ولكن لا يفهمه أحد.

وهكذا نحن منذ سنين بعيدة. لا أحد ينام أو يستريح من طول ما يقولون ويلوكون ويرددون ويجترون...

ولو اختفى الكلام لشرح الله لنا الصدر، ورفع عنا وزر الخطب والتقارير والتوجيهات واللوائح والتهديدات الفارغة والمذكرات والتحاليل والمؤتمرات والمناقشات والإجتماعات والمحاضرات والمناورات والمناظرات والمقررات والتوصيات وهلّم دفعاً...

ولو اختفى الكلام لتساقطت أوراق توت الوعود الكاذبة، والمشاريع الواعدة، وظهرت كل الأشياء كما يجب أن تظهر.

يقولون:

لكن الأمور في غوابر الأمم كانت تجري بما لا تشتهي القيم. فقد أصبح سكان الأعالي يزدادون صعوداً وبُعداً حتى أن الرؤية تنعدم بيننا، فيتصورون سكان السفوح خرافاً. ويصبح أهل السفوح يرتعدون إذا سمعوا أصوات الأعالي، لأنهم يعرفون جيداً أية كائنات تعيش في الأعالي وتهيم بالخراف.

هم يبدأون حياتهم في السفوح، كباراً في أعين الناس، وكلما صعدوا وبعدت المسافة صغروا. فتأمل النزول إلى فوق!

يقولون: لقد أصبحت اللغة بيننا أداة التفرقة الأولى. لانها هي مصدر سوء التفاهم ومظهره. هي التي تفجره.

أهل الأعالي يقولون كلاماً مهمهمًا مغمغمًا، فتجعل له الأعالي ألف صدى، فإذا الآذان تُسيء التلقي لأن الأذهان لم تفهم منه شيئاً، فيتفشى في الناس وباء التأويل، وتسري عدوى الجدال فيما لا طائل من ورائه. فيمسي بنو آدم اشتاتاً، متصارعين، متناحرين متداحرين، غير قادرين على النهوض بأي عبء ولو كان

مثقال ذرة. ممالك النمل أكثر منهم نشاطاً. وخلايا النحل أسخى منهم وأحلى عطاءً. وكل صغار الأقاصي يكبرون ويتعملقون، بينما يظلون هم هم حتى الإندثار في إنحسار وخسار، بعد كل تلك الأحلام الأممية العالمية الكونية الوحدوية التوحيدية...

قال المصنّف:

لقد أصبح حكماء غرائب القيم على يقين من أن عوامل الوحدة هي التي استغلت للتشتيت. فكيف وصلت غرائب القيم هذه إلى الحمقى الداعين إلى العودة إلى الفرعونية في مصر والفينيقية في لبنان والبربرية في تونس؟!

دعنا من الأسماء، فقد ضربت عليهم ذلة الشتات وصعدوا إلى الهاوية!

وسط

سـألنـــا ربّنــــا عـــونـــاً

فـــــذي الأوراق مخلـــوطــــــهْ

وقلنـــــا: ربَّنـــــا إنّـــا

نــــرى الأعــــداء «مبســوطـــــهْ»

فهــــذي أمــــةٌ «وســـطٌ»

ولكــــن غيـــر «مـزبــوطـــهْ»

في تهريب النمل

لم ينفك النملُ يلفت الإنتباه ويثير الضجة حوله منذ عهد سليمان.

قبل كل شيء، لا أحد يستطيع التشكيك في عراقته، فهو أقدم من جميع الثدييات، لا من الإنسان فحسب. ويتمتع بدقة وانضباط عجيبين، ملتزماً بخطة عمل واحدة منذ أكثر من مائة مليون عام! فيما تعجز حكومات في أيّامنا هذه عن الإلتزام بخطة خمسية!

السبب واضح: رسالة النمل واضحة منذ مائة مليون عام. وقد استطاعت النملة الصغيرة الإطاحة بمملكة الدناصير، وظلت هي. والآن نرى الدناصير في المتاحف أو المطمورات أو أفلام الكرتون، أما النمل، فهو في كل مكان وزمان، له نظرة أممية كونية عجيبة!

النمل أستاذ التحدي، فقد استطاع طوال تاريخه النضالي المجيد أن يؤسس، بأتفه الإمكانات وأخسها، مملكة لا تغيب عنها الشمس، فكل الطرق تؤدي إلى مملكة النمل.

النمل أستاذ إرادة الحياة!

النمل مثل اليابان التي استطاعت أن تصنع الكمبيوتر من الرمل، وفي الرمل أقام النمل مملكة: بفتات خبز، بقطعة من جندب ميت، بساق جرادة، بساق نبتة تكاد لا تُرى...

لكننا في العالم العربي، نملك كل ما تحتاجه الصناعات من الأخف إلى الأثقل، وكل المواد الأولية التي خلقها الله، ولكننا لم نمتلك القوى والملكات والحوافز الأساسية للتصنيع.

كم نخطيء في فهم الإنضباط، فالنمل له انضباط وليس في ممالكه قمع!

كان دائمًا أستاذاً في العلوم السياسية والإقتصادية والإدارية وفنون الحرب والهندسة المعمارية، لا تغريه فترات الرخاء بالإنحلال، ولا شظف العيش يلقي به إلى اليأس والتخلي عن رسالته.

لكنه دخل في أيامنا هذه مرحلة جديدة في تاريخه، لقد أصبح مادة مخدرة!

فلا تعجب إذا كنت في عصبة من الأشرار، من أن يقدم إليك أحدهم نملة لتدخينها. سترفض قطعاً، وسترى آخر يفتح علبة أخرى ليقدم إليك نملة «كينج سايز» هذه التي يسمونها في الإمارات «سمسوم». هذا النمل يحدث تخديراً لدى مستنشقه عند تدخينه محترقاً، وبالتالي، فان السمسوم الـمُـدخن ليس كسمك السلمون الـمُـدخن.

قمة السادية! التعذيب في سبيل اللذة! لكن هذه السادية مازوخية مائة في المائة، لأن النملة التي تعذبها بإحراقها طلباً للإنتشاء تدمر مخك بإتلاف خلاياه، فأنت إذن تستلذ بهلاكك!

مرة أخرى، تثبت النملة قدرتها على الإطاحة بعمالقة الكائنات الحية. هذه المرة هدفها سيد المخلوقات: الإنسان!

أي ديناصور كان يستطيع أن يدمر الأرض كلها في لمح البصر بقنابل الهيدروجين؟ اليوم، تستطيع النملة التي قضت على الدناصير أن تتلف مخ هذا النابغة الآدمي في لمح البصر!

تخيل: كيف لا تجد التحريات الجنائية حرجاً في إضافة مادة جديدة إلى قائمة المخدرات اسمها: النمل؟! الهيروين، الكوكايين، المورفين، الأفيون، الحشيش، الكراك وسائر حبوب الهلوسة... وفي النهاية بعد الغراء النمل!

مكافحة النمل مهمة أخطر من مهمة سيزيف، الذي حكمت عليه الآلهة بدفع صخرة إلى قمة الجبل حتى إذا بلغها تدحرجت وهكذا...

ثم إن النمل، بصرف النظر عن دوره الكبير في الحفاظ على التوازن الطبيعي، ليس هو المجرم، فهو الضحية... والقضاء عليه بمثابة القضاء على كل الكبريت الموجود بدعوى أنه أداة لإفتعال الحرائق.

هل يكون على الشرطة إستخدام حيوان آكل النمل في عمليات التفتيش حيث يتجمع متعاطو النمل، مثلما تستخدم الكلاب البوليسية في الكشف عن المخدرات؟ مثل هذا التصرف يمكن أن يخلق عصابات لتهريب النمل، وأخرى لإنتقاء الأصناف الأجود والأكثر مفعولاً، وتقديمها في أشكال معينة، فتكون هناك أنواع خفيفة «لايت نمل» وأخرى للمدمنين «سترونج نمل»!، وأخرى V.I.P للمتسمسمين المهمين!

وإذا ألقى المسؤولون والمربون وأولياء الأمور الحبل على غارب النمل في هذه المسألة، فلا عجب عندئذ إذا أصبح هناك تهريبٌ نمليٌ دولي فترى سيجاراً سمسومياً ضخمًا مثل السيجار الهافاني وسجائر سمسومية بفلتر وأخرى بدون، وقضايا ضبط واعتقال ومرافعات في المحاكم، كلها من أجل نملة!

على المحامي آنذاك أن يكون سليمان الحكيم! فلا بد أن يُطالب النمل بحقه في هذه المهزلة!


Twitter: @abdulllah1994



كذب الرياضيات

ما من ظاهرة غريبة، إلا ولها مفارقات كبيرة مثيرة.

الإيدز ظاهرة من هذا القبيل.

ومن أشد المفارقات إثارة، أن بإمكان هذا الفيروس أن يكذب الرياضيات والمنطق.

وللمنطق غرائبه دائمًا. فقد عرف المناطقة كذب القياس منذ القديم. بحيث إذا سلمت بإحدى قضايا القياس وجب التسليم بالباقي.

لكن هذا ليس بالشيء المثير إذا قيس بما فعل فيروس الإيدز ويفعل.

تقول الإحصائيات الآن، إن عدد المصابين يتضاعف كل عام.

كلام مثل هذا قد لا يثير القارىء الذي يمر مرور الكرام ولا يبحث عن التفاصيل والجزئيات.

فهذا التقرير أو الجزم، يذكرني بحكاية مخترع الشطرنج حين طلب أن تكون مكافأته حبات قمح يُضرب عددها في عدد مربعات رقعة الشطرنج. فإذا

حنطة العالم كله لا تكفي لمكافأة الرجل!

فلنفرض أن في العالم اليوم عشرين ألف شخص متأيدزين.

طبقاً للإحصائية الحاسمة يكونون بعد عشر سنوات عشرين مليون نسمة.

بعد عقد آخر سيصبحون مائتي مليون متأيدز.

بعد ثلاثين سنة سيكونون مليارين وبعد أربعين سنة فقط سيصبح عدد المصابين بالإيدز عشرين ملياراً.

فمن أين نأتي بالبقية؟

على جميع الناس أن يضاعفوا الإنتاج البشري بسرعة الضوء حتى لا نتورط في تكذيب الرياضيات.

ستصبح الأرض مطالبة بانتاج حوالي أربعة عشر مليار نسمة لسداد الدين!

أما المفارقة الأخرى، فهي أن على الذين يكذبون هذه الدعوى أن يسلموا دون قيد أو شرط بأن نهاية العالم البشري ستكون دون قنبلة نووية أو هيدروجينية وانها آتية لا ريب فيها بعد ثلاثين سنة. أي أن القرن الحادي والعشرين سيطل على الكرة الأرضية، ولن يكون فيها سوى عدد ضئيل جداً لم يتأيدز بعد!

وهكذا ببساطة، نعلم علم اليقين إلى أي حد هو رهيب هذا الايدز.

على أحباء السلام ودعاته أن يغيروا الإتجاه. فالقنبلة النووية، أو النيوترونية لم تعد أمراً ذا بال.

القنبلة النووية الآن أشبه شيء بعود ثقاب لا خطر من ورائه، أمام القنبلة الإيدزية. وعليهم أن يدعوا إلى نزع الإيدز لا إلى نزع السلاح. فـالعـالم، على مـا يبدو، في النزع الأخير!

الخلود مجّاناً

حدّث أبو الزبائد قال:

طوال هذا الليل كنت عملاقاً، من أولئك العظماء الـذين لم يبق منهم أحـد على وجه الأرض. أولئك الذين يحملون جواز خلود غير مزور. خلود أصيل.

أنا، هذا الجالس، المتكوّم في هذه الزاوية، كنت خالـداً طـوال الليـل. لك ألا تصدق. فأنا أعلم علم اليقين سلفاً ألا نبي في قومه. لـذلك قلت هـذا الليـل، ولم أقل طوال ليالٍ أخرى.

أنا هكذا دائمًا: واضح الرؤية، أحيـا الحلم بـالليـل. وأنجـزه، أحـولـه إلى حقيقة بالنهار. حقيقة، ككل حقيقة، لا يراها أحد سواي. للأسف!

هل تتـوهم أن الخلـود سهـل؟! أن تمد يـدك، هكـذا، بهـذا اليسر، بهـذه المرونة، فإذا فرخة الأبدية في راحتك؟

سهـــل؟!

أنت تعجز أحياناً عن مد يدك إلى جورب في دكان بائس. فما بالك بأن تمد يدك طالباً يد الأبدية! هذه الفاتنة التي لا يعرف أحد مهرها. أعيا الناس مهرها! تقول لخاطبها:

ـ قبلت، لكن، بعد رحيلك!

لم يتحقق لي ذلك بسهولة. فقد قضيت معظم الوقت متردداً: أي شاعر عظيم يليق بي؟ أي مؤلف موسيقي يرقى إلى أن أكونه؟ أي عالم له أن يحظى بهذا الشرف؟ أي فنان تشكيلي أدخله في جبتي، أضعه في ديكوري؟

قائمة متعبة: رائد الفضاء؟ الصوفي الطاهر النقي؟ عالم المحيطات؟ فحل فحول الشعراء؟ فالق الذرة؟؟

الذي تهيم بشدوه العذارى؟ أم ذلك الذي لا ترقى إلى فيزيائه النووية سوى نخبة تعد على أصابع اليد الواحدة؟

ذلك الفنان الذي تعرفه المشارقُ والمغاربُ كالشمس؟ أم فدائي الحضارة الإنسانية في المختبرات؟

أنا صعب الإختيار، فأنا بصدد قضية تتعلق بمصير الأمة، أنا وجهاً لوجه مع التاريخ.

ماذا سيقول عني التاريخ لو أسأت الإختيار؟:

ـ خنت الأمة؟ يا للخيانة العظمى!

ـ تلاعبت بمقدرات الشعب؟ يا للامبالاة!

ـ صعدت إلى القمة ولم أفعل شيئاً؟ هزُلت!

ماذا سيقول التاريخ؟ لا شك في أنه سيحـرمني الإقـامـة في ديـاره ويمنٌ علـيٍّ بتأشيرة عبور!

لذلك أنا صعب الإختيار في المسائل الحساسة. أنـا صعب الإختيـار. حتى حين أدخل مطعمًا أخرج بدون أكل. لأنني لا أجد الشيء المناسب حقاً. وعنـدمـا أدخل محلاً أقضي ساعات بحثـاً عن القميص المثـالي، الـذي يكـون في مستـوى الأحداث.

هل من السهل أن تختار قميصاً يكون لائقاً حقاً بفخامة الرئيس؟ بجلالة الإمبراطور؟ ربطة عنق يكون فيها من علائم الخلود ما يجعلها أهلاً لأن يتفضل عملاق الفنون التشكيلية بإرتدائها مفتوحـة، حتى أنهـا تصبـح فتحـة العنق لا ربطة العنق؟!

المسائل التاريخية تاريخية. دون جدل.

وبالتالي فإن ربطة العنق التاريخية يكون قـد خطط لها سلفـاً. فهي إذن حتمية تاريخية!

هي بالذات. لا سـواهـا. فكيف إذن لا يطـول بحثي عنهـا؟ كيف لا أدقق النظر ملياً حتى لا آخذ واحدة خلودها زائف؟!

ما أقل الأحذية الخالدة؟ ما كل حذاء يستطيع أن يجتـاز صراط التـاريـخ ويقف وجهاً لوجه مع الخلود!

قل إن شئت إن الناس لهم المصائر ذاتها ما كلهم بخالدين.

تأمل غريب الصدف. فالتاريخ مثلي بالضبط ذوقـه كـذوقي. هـو الآخـر صعب الإختيار. تمر به عشرات الملايين، بالمئات، ولا تقع عينـه إلا على واحـد... إثنين... كل كم سنة... والباقي كله في سلّـة المهملات. مع الإعتذار للجميع!

التاريخ زبون في مركز تجاري كبير... سوق رهيبة مترامية الأطراف. يدخل، مثلي بالضبط يده اليسرى في جيبه، الأيسر طبعاً، والأخرى يشنق بها سترته على كتفه. يمشي مشية اللام ألف. يصفر. يدير رأسه يمنة ويسرة كما يفعل الطائر. مهتماً في غير اهتمام. منشغلاً في لا مبالاة. والأشياء تمر. الكل يريد الخلود. الناس من خلال الأشياء. والأشياء بواسطة الناس. المتنبي من خلال شعره. وذوالفقار بواسطة علي بن أبي طالب.

زبون عجيب يختزن كل شيء في ذاكرته، ويبدو مهملاً تماماً لأية حركة وأي سكون. ويعرف تماماً كيف يميت البعض بالصمت الرهيب، ويقتل البعض الآخر بالضجة الكبرى. يحيل القديس إلى إبليس. ويحول الشيطان المارد إلى زاهد. ليذكر الناس دائما بأن واجهات الدكاكين خدّاعة.

زبون صبور. لا يحب الإرتجال. وهل ينبغي للتاريخ أن يكون عجولاً إرتجالي المواقف؟

أنا كذلك عندما أدخل السوق. ما كل تفاحة جديرة بالقضمة التاريخية. ما كل رغيف خليق بالثريد التاريخي. ما كل فرشاة حرية بتنظيف أسنان التاريخ.

تذكرة عبور صعبة. ضريبة كبرى.

التاريخ؟ أقل الكائنات إستهلاكاً. لكن له منطقاً عجيباً غريباً. فالقيم عنده ليست السلم الوحيد إلى الخلود.

صاحب مزاج! ماذا تقول؟

الأنبياء والرسل... وكذلك أبو لهب ونيرون وهولاكو ومسيلمة الكذاب ورؤوس الإلحاد...

محيي الدين بن عربي وجلال الدين الرومي... وكذلك طويس ورامبو وسائر كبار المخنثين... وهنا المطب الكبير الذي تقع فيه حشود لا أول لها ولا آخر من الكبار والصغار، الذين يتوهمون ان القيم المضادة هي أقرب المسالك إلى ممالك التاريخ.

لكن التاريخ، مع ذلك، فصل الإبداع عن الأخلاق. والإختراع عن المبادىء. والإبتكار عن التعاليم السامية.

وهنا المطب الأكبر. أصبح الناس في هذه الأمة يطلبون أيدي بنات الخلود، حتى وهم لا يملكون مثقال ذرة، ولا ما دونها، من المهر. حتى وهم بلا بضاعة. بل حتى وهم أشباه رجال أحياناً. وأحياناً أخرى أشباح رجال.

ترى الشخص لا يبلغ من الطول بوصة وأعماله طوال عقود خزي لشعبه وعار لأمته، وليس له من غرام سوى مناطحة العمالقة. وافتعال الضجات الكبريات. حتى إذا حصحص الحق وألقى به التاريخ في سلة مهملاته، لم تجد أحداً يأسف أو يتحسر. وهيهات. فمن أنكر الشعوب بالت عليه الثعالب.

وكم ترى من الطامعين في الخلود بغير حق. أشباه كتاب ما عرفوا حرفاً من الكتابة. وشعراء لهم دون الشعر بيد دونها بيد. قلوب جلاميد. ونفوس رعاديد. وأخيلة خاويات سود. وكلمات لها أذناب قرود. ولكنهم طامعون في الخلود. قتل أصحاب الأخلود!

موسيقيون؟ هؤلاء؟ فنانون؟ هؤلاء؟ أساتذة؟ هؤلاء؟ تعليم؟ هذا؟ مناهج؟ هذه؟ خريجون؟ هؤلاء؟ صناعات؟ هذه؟ زراعة؟ هذه؟ تقدم؟ هذا؟ مواقف شهمة؟ هذه؟ رجولة سياسية إقتصادية إجتماعية ثقافية؟ هذه؟ هوية؟ هذه؟ أمام العالم هذا؟

كل شيء باطل في باطل!

أصبح العقلاء مجانين يهذون ويهذرون في الزوايا.

خير أمة أخرجت للناس؟ تريد الخلود بالمجان؟

لعلنا استوردنا الخلود معلباً والعبد الفقير لا يدري؟!

أنا أيضاً واحد من أبنائها. في الليل أرسم درب الخلود، حتى إذا طلع النهار بدت لي سوأة الواقع!

تشاد

الأصل في «تشاد» كالنهار لا يحتاج إلى دليل. وهو من قول شاعر ضاق ذرعاً بأرض لا تعمر ولا تعرف إلى الإزدهار سبيلاً:

هـذي البـلاد تُشـادُ
أم أنهـا لا تـشـادُ؟
فجـوعهـا أي جـوع
وكـم تـطيـق الـعبـادُ
أرض يبـاب خـرابٌ
فكيـف قيـل بـلادُ؟

موسوعة الدواهي

قال المصنّف: ذهلت وخررت صعقاً وأنا أقرأ فصلاً من كتاب «فقه اللغة» لأبي منصور الثعالبي عن الدواهي.

وخليق بمثلي أن يكون هذا زاده في مثل هذه الأيام. إقرأ معي. هكذا نصاً:

«قد جمع حمزة من أسمائها ما يزيد على أربعمائة. وذكر أن تكاثر أسماء الدواهي من إحدى الدواهي. ومن العجائب أن أمّة واحدة وَسَمَتْ معنى واحداً بمئين من الألفاظ!!».

منها ما جاء على وزن فاعلة. كفاشية وداهية... وواقعة وقارعة.

ومنها ما جاء على التصغير كالدويهيّة. والخونجيّة (وليطمئن أهل الخوانيج فما لهذا علاقة بهم)، وهلم جرا...

أبو منصور الثعالبي عاش قبل ألف عام ونيف. ويقول مثل هذا الكلام.

لا فض فوه! فماذا نقول نحن اليوم؟ ولو ظلت العرب على ما كانت عليه من غزارة وخصوبة في انتاج الكلام، لكان لنا اليوم موسوعة خاصة بالدواهي تحمل مجلداتها على ألف بعير! فاللغة لها ثراء. وأما أهلها فلهم الثرى!

العالم أم جلدي؟

ما أسهل أن يشعر الإنسان بأنه عالمي. هذا هو الحلم الذي أسبح فيه، بعد أن انضو عني ملابس الواقع الدولي المر، وأبقى في مايوه الأمل. وفي لحظات أجدني إبن العالم بأسره.

اسمي يدل على أنني كنت قبل قرون يمنياً، ومن مدينة زبيد.

لكنني تونسي، أي أن لي رابطة بالبربر. فأنا بربري أيضاً. وبما أن الفينيقيين حطّوا رحالهم عندنا وبنوا قرطاج. فلا أشك في أن لي عرقاً مشتركاً مع أحد أحفادهم. ولهذا ظللت أهاجر في أرض الله. أو في نفسي. أنا إبن الفينيقيين أيضاً، الذين كانوا أكثر فناً وذوقاً في الهجرة من البرتغاليين.

وبما أن الرومان غزوا تونس فأنا إذن هندو/أوروبي أيضاً. والهندو أوروبيون أكثر من مليارين. لكن على جسدي جراحات كثيرة منهم. من الرومان. من قبائل الفاندال المتوحشة. التي تركت السهول الألمانية، ولم تكن حضارتها سوى حفنة خيول، وانقضت على بلدي الذي ليس له جبال على سواحله لكي تحميه: الجبال أنياب الأرض! والإسبان ربطوا خيولهم في جامع الزيتونة. وما تزال الحوافر محفورة في دماغي. والغريب أنهم عندما تركونا أصبحوا يرقصون الفلامينكو. وكلما وجدت اسبانياً طرحت عليه السؤال: لماذا

لم ترقصوا الفلامينكو في تونس، وتربطوا جيادكم في كنيسة نوتردام دي باري مثلاً؟

أنا عربي أنتمي إلى مائتي مليون عربي، فأنا سامي: كذا كذا مليون. ثم أنا مسلم: مليار نسمة وقد التقيت بمسلمين من الفلبين وأندونيسيا وماليزيا فلم أشعر بأن الجنس المغولي بعيد عني. لكن علاقتي بالجنس المغولي أقوى مما أتصور. فقد أقام العثمانيون في تونس قروناً وصرنا صدرين في قميص. فمن ينفي أن لي إتصالاً عرقياً بهم؟

والعثمانيون أتراك. والأتراك تتر. والتتر مغول. والجنس المغولي هو الصين، كوريا، فيتنام، اليابان، سنغافورة، ماليزيا، أندونيسيا، وهلم جرّا. ولا تنس منغولياً.

لكن الجنس المغولي عجيب. فقد دخل هولاكو بغداد، ولم يدخر وحشية لم يرتكبها إبن الـ... فقد أغرقوا مليوني كتاب، وأقاموا هرماً برؤوس الرجال. وأعطونا مقابل ذلك رسوماً مغولية لا تعرف حتى البعد الثالث.

كدت أنسى أنني إفريقي أنتمي إلى أربعمائة مليون نسمة. فهل نسيت أحداً في العالم لم أضعه تحت جبتي؟ يقيناً إن القائمة تجاوزت عدد سكان الأرض! نزلت علينا البركة!

خرجت من ماء الخيال. وجف مايوه الأمل. فارتديت ثوب الواقع. رأيتني فجأة أتبرأ من الجنس المغولي. إذ لا أطيق الإنتماء إلى ذلك الفساد الآسيوي. ولا إلى الغرب الإستعماري. ولا إلى أوروبا الشرقية المتحللة ولا... ولا... أي رومان؟ وأي فاندال؟ وأية شعوب وقبائل «مهببة»؟ أي ساميين؟ ها هم يمزقون جلودنا. والعرب؟ ها هم لا يتفق فيهم إثنان.

بصراحة: المكان الوحيد الذي بقي لي في هذا العالم بأسره: جلدي فقط! وحتى جلدي مسألة فيها نظر!

سيرة القس ميخا براقشوف

تكون أنت معتداً بنفسك ونفيسك قياساً إلى شخص ما، كيان ما، فإذا ما اختفى لم تجد أنت نفسك. وضاع منك توازنك.

كل مقاييسك قامت بالقياس إليه.

كل غلوائك في محيطك قائمة على الحذر منه، والإنتباه إليه، والإدعاء عليه. فإذا نضا عنه ثوب العداء، وانهار أمامك وذاب كما يذوب جبل من ثلج، عراك ورأيتك كل أحابيلك وأباطيلك مكشوفة.

هذا ما حدث عندما هدم القس المصلح ميخا براقشوف أركان الكفر والإلحاد. وترك الدنيا في حيص بيص. فبضدها تتميز الأشياء.

يحدثك أبو الزبائد عن القس المصلح ميخا براقشوف الذي عاش قبل كم كم في بلاد كأنها قارات متلاحمة. وكانت تسودها عقائد ترى الشر، في الدنيا كلها، في المال والنساء. وتقول بأن تكون النساء والأموال ملكاً مشاعاً بين الناس.

لم يكن أحد طوال عشرات السنين يستطيع أن يفتح فمه أو يغلقه.

كل الناس يتوجعون. حولهم ألف حد. أرحمها حد السيف. ولا أحد يشفع لهم.

كل أيامهم نحس في نحس. إذا مر كائن فقطة سوداء. أو طار طائر فغراب أو بوم. وربك القيوم.

بلاد كانت إمبراطورية لها في كل شبر عيون وآذان. وسرعان ما أصبحت قدوة للأنظمة في سلوكياتها.

إذا فركت جبينك فأنت تفكر في مؤامرة. وإذا تنحنحت فأنت حاقد ضاق صدرك بضغائنك. وإذا سهوت إرتكبت جريمة الشرود، فأنت في لا وعيك هارب من النظام.

فأين تهربون؟!

إلى أن جاء القس المصلح ميخا براقشوف، ورأى أنه لا إصلاح إلا بالخراب الشامل. قس متصوف، جاءت على يده كرامة نسف الإلحاد. فأحال إلى شظايا البلاد التي ورد اسمها في الأساطير القديمة «أرض السافيات». وهي من قولك رياح سافيات عاصفات ناسفات...

ولقد تضاربت آراء المؤرخين والشعراء في النظر إلى سيرة هذا القسيس. فمنهم من يراه في أعلى مراتب القديسين والرهبان الملهمين. ومنهم من رآه غرا قلب عاليها سافلها، قال الشاعر:

ليت شعري سيرة القسيس ميخا
أحدثت في الكون صدعاً وشروخا
رام إصلاح فساد لا يضاهى
فغدا الإصلاح هزلاً ومسوخا

نهاية الضمير المستتر

أنا واقع في مشكلة جبّارة مع ضميري.

دائمًا هو الذي يوبخني، يقرعني، يلومني، يعاتبني، يعذلني، يسبني، يشتمني، يلعنني... وأنا دائما أجيبه بمنتهى الأدب والإحترام:

ـ إن شاء الله... سيكون ذلك.

علاقتي به كعلاقة المرء بأخيه الأكبر. يسمع كلامه وينفذ ما تيسر.

لكنني ضقت ذرعاً بهذا الأسلوب. وأكاد أنفجر. فهذه المسألة معلقة لدينا نحن بني آدم منذ آدم وحواء.

ما هذا الفضول العجيب لديه؟ أريد أن أقول له:

ـ ما لك يا أخي؟ ضمير الأمة على قدره وشأنه نائم. مطمئن. في بطنه بطيخة صيفية وبجانبه ماء بارد. وقد سد جميع الأبواب التي تأتي منها الرياح. وغط في النوم واستراح. فنم أنت أيضاً واسترح وأرحنا.

هل أنت أحرص على الخرفان من الرعاة؟

الله سبحانه وتعالى، هو الذي سيُحاسب الناس يوم القيامة. فما لك تستعجل الأمور؟ إقتد بالفضلاء الذين يدعون بكرة وعشياً إلى الصبر وتحمل الأذى والإمتحان والإبتلاء.

هل أنت أحرص على إصلاح هذه الأمة من صاحب الفضيلة ذاك الذي يريد أن تتشرف الأمة بأسرها بلقاء ربها دفعة واحدة وفي أقرب وقت؟!

هل أنت أحرص على أمور الناس من الناس أنفسهم؟ ما هذا الفضول والغرور والصلف؟

ألا ترى المثقفين في واد سحيق زاهدين في الدنيا الفانية؟ فالدنيا سلة مهملات. أما الخلود والذكر الحسن فلقصائد الحداثة.

سنبني مستقبل الأمة على قصاصات أشعار الحداثة. وندخل القرن الحادي والعشرين علينا ورقة توت كتبت عليها قصيدة سريالية... أو سروالية!

لكن تعال قل لي أيها الضمير:

توبيخك لي يسمى توبيخ الضمير. فماذا أسمي توبيخي أنا لك؟ سأسميه التوبيخ المضاد. مثل القصيدة المضادة. ومن باب المساواة يكون بيننا توبيخ متبادل.

المسألة ليست هينة. فأنت متسلط عليَّ طوال التاريخ وما قبل التاريخ، أنت أساساً إبن الخطيئة. ولولا الخطيئة التي إرتكبها آدم وحواء ما كان لوجودك لزوم. فأنت أصلاً إبن غير شرعي. ومع ذلك إستطعت أن تستغلني منذ نزولنا إلى هذه الكرة. مثلما فعل الرجل بالمرأة طوال هذه العصور. دائما هو المتسلط. ولا أحد يدري لماذا؟

وصايتك مملة مهينة.

أيّنا يؤوي الآخر يا تُرى؟ فأنا الذي منحتك غرفة في الطابق العلوي

تسكنها. فإذا أنت ضيف ثقيل الظل.

ملأت حياتي بالمحظورات: لا تفعل، لا تلمس، لا تقرأ، لا تكتب، لا تتناول...

أنا بدماثة خلقي أبتلع دائما السكين بدمها، وأقول لك صاغراً:

- إن شاء الله... سيكون ذلك... سمعاً وطاعة!

لا تستطيع أن تقول: إن الضمير هو الذي يؤوي الإنسان؟

فالدليل قاطع ساطع: أنت لا ترى أبداً ضميراً يمشي بمفرده في الشارع، ولكنك تستطيع رؤية الآلاف يمشون في الشوارع بلا ضمائر! أقزاماً وعمالقة!

ثم إنك كومة تناقضات. فأنت تأمر وتنهى. ومع ذلك أراك جباناً غير قادر على الجهر بأية حقيقة.

موضتك انتهت. بدليل أن إسمك: ضمير، ويجب أن يتحرر الإنسان من الضمير المستتر.

سأدعو وزارات التربية والتعليم العربية إلى إلغاء اسمك من الصرف. سأطلب بصرفك عن الصرف، ومحوك من النحو. وهكذا بدل أن نقول: الضمائر، نقول: المكشوفات.

وبدل أن نعلم الطفل منذ نعومة أظفاره: الضمير المستتر، سنلقنه: المكشوف الواضح. وهكذا نكون جميعاً مكشوفين. فإذا سألت طفلاً عن المكشوفات. قال فوراً:

أنا، أنتَ، أنتِ، هو، هي، أنتما...

وبالتالي، لا يبقى لدينا شيء مستتر. تصبح كل الأمور مكشوفة. كأية أمة راقية تحب النور وتكره الظلمات.

لسنا مافيا حتى نستتر. ولا سلوكنا مشيناً حتى نتستر عليه.

أيها الضمير:

علاقتي بك قائمة على خوف وهمي. ولذلك أنت لا تثق بي. وأنا أشك فيك. وإلا فالله رب المخلوقات جميعاً.

هل لك وجود بدوني؟ ولكن بي أنا تستطيع أن تمارس توبيخك لي. فماذا فعلت أنا بنفسي؟

أنت لا تدري من أنا. تتوهم أنني مجرد كيلو جرام من المخ في حين ينطوي في طياتي وثناياي العالم الأكبر.

أنت ذرة في عوالم إدراكاتي.

أنت ذرة في مجرّة معارفي.

كم أهزأ بك حين يخيّل إليك أنني مجرّد حيوان متخم بالغرائز. وأن بإمكانك أن تستمتع بركوب هذه الدابة إلى الأبد!

أنت كائن متعالم لا عالم. علمك أمور نسبية إلى أبعد الحدود. يكون صالحاً في مجتمع. وفي آخر يُعاقب عليه بالإعدام. مقاييسك تحترم في مكان وفي آخر يرونها جرائم وجنايات.

لك حكم ونصائح وأقوال جميلة، يصغي إليها الناس عادة حين يهن العظم ويشتعل الرأس شيباً.

لكننا لم نسمع بضمير اخترع أو أبدع شيئاً.

أنت أصلاً كائن خالٍ من الخلق والإبداع. تعرف كيف تتكلم فقط ودائماً في اتجاه واحد. قربة جوفاء تنفخها المجتمعات على مزاجها.

أما أنا، فأنا الفيزياء، الكيمياء، الرياضيات، الطب...

أنا الموسيقى، الشعر، الأوبرا والمسرح...

أنا الغوّاصات والسفن الفضائية... أنا قطع مليارات الكيلومترات... وأنا الجزء من المائة مليون جزء من الملليمتر...

أنا المفاعلات النووية وأنا التجليات العرفانية الصوفية. أنا التحليق في ملكوت الله والمردد بكرةً وأصيلا: ﴿**ربّنا ما خلقت هذا باطلاً سبحانك**﴾.

قال أبو الزبائد: فلما احتدم الصراع بينهما خشيت على نفسي. وآثرت السلامة وأسلمت رأسي إلى الوسادة.

خزانة ملابس التاريخ

أكاد لا أشك في أن وجه التاريخ وشكله يتغيران كلياً إذا ما جـردنـاه من خزانة ملابسه، حتى أن «جارد روب» التاريخ أهم من التاريخ نفسه.

لكل واحد في هذا العالم صورة خاصة في ذهنه عن التاريخ، فالعربي مثلاً يتخيله شيخاً بـزيّه العـربي الشهير يجلس بعيـداً عن النـاس، يضرب الأرض بعصاه، ويراقب كل صغيرة وكبيرة، ولكنه سرعـان مـا ينسى. كما أن المحيطين به والذين يزودونه بالمعلومات أفراد كذابـون مغـرضـون ومنـافقـون في أغلب الأحيان، لذلك نرى نحن الأشياء مزيفة.

أما الصيني فيتخيل التاريخ مجعد الوجه، أمرد، وبشارب متدل إلى الذقن وعلى رأسه قبعة بحجم الظلة وهو جالس على ضفـة النهـر، يعـد آلاف السنين وكأنه يعد الثواني والدقائق، مندهشاً لخلق الله الصينيين كيف تمر القرون فـلا تغير منهم شيئاً، وكأنهم هم الذين يقودون الزمان، كما يقودون عربـاتهم التي تجرها ثيران لا تقل عنهم صبراً على الأيام.

وأما الفرنسي، فيتخيل التاريخ شيخاً شبيهاً ببابا نويـل، واقفـاً على قمـة برج إيفل يقهقه مثل فرنانديل «إسماعيل يـاسين فـرنسـا» لأن مسيـو ميتران

إستطاع في النهاية أن يحقق حلمه ويدخل الإليزيه، ويكشف للناس وجهاً يمينياً لليسار.

ملابس التاريخ أهم من التاريخ نفسه. لنتخيل المتنبي لابساً بنطلون جينز! سنرى كل شيء قد تغير وتغير معه حتى بلاط سيف الدولة.

الإسكندر المقدوني على مرسيدس أو كاديلاك مصفحة مثل التي دخل بها نيكسون القاهرة؟!

لباس التاريخ له الأهمية القصوى. ومن يهتم بآلهة الأولمب لو كانت مرتدية بدلاً من تصميم بيير كاردان أو إيف سان لوران؟!

تخيلوا كليوباترا بملابس كارولين أميرة موناكو! تصبح مهزلة، ولا أحد يلتفت إليها إلا شرذمة المصورين.

كم يفقد إبن خلدون من وقاره لو كان يحمل «كتاب العبر» في حقيبة سامسونايت!

خزانة ملابس التاريخ هي التي جعلته هكذا، موقراً معظما جليلاً في أنظارنا. ولولا هذه الملابس لألقينا بجل الشخصيات التاريخية من النافذة.

لو دخل مخترع الطباعة جوتنبرغ مطابع اليوم لداخ ووقع على الأرض يابساً مستقيما كالعصا. ولو كان أرسطو بيننا اليوم لقلنا له: «رح يا شيخ... فأنت لا تعرف حتى أن الأرض كروية الشكل، وتدافع دفاعاً مستميتاً عن فكرة خاطئة، يعرف خطأها أطفال الروضة عندنا.» ولو جاءنا ابن سينا لقلنا له: تدّعي الطب ولا تعرف حتى أن للجسم دورة دموية؟ ولو رأينا القلقشندي، وقدم إلينا كتابه «صبح الأعشى» لقلنا له: ما هذا الخلط والخبط؟: ألف شيء وشيء في كتاب واحد؟ أين الموضوعية والمنهجية في التأليف؟!

وهلم جرّا... أما إذا فتحنا خزانة ملابس التاريخ وأعدنا إلى كل هؤلاء ملابسهم التاريخية كبروا في أعيننا فجأة. وأسرعنا فوراً إلى القول:

ولّت عصور العظماء، ولم يعد في الدنيا غير الأقزام.

يا دنيا!!

مالباري

لا شك في أن مالباريي الهند لا يعرفون أصل كلمة مالباري. ولهذه التسمية حكاية طريفة. وهي أن المسؤول عن بيت مال المسلمين في تلك البقاع كان رجلاً بخيلاً. وكان يردّ كل سائل يأتي من الأصقاع البعيدة، قائلاً لرجاله:

ليس مالي بل مال باري الوجودِ
فاطردوهم إلى وراء الحدودِ

فصاروا يقولون لأي واحد من تلك المنطقة مالباري.

موائد أبي الزبائد

حدّث أبو الزبائد قال:

من نعم الله على العبد الفقير أن تعرفت على فنـون المطـابـخ في المشـارق والمغارب. وإنه لركن ركين من أركان العروبـة أن يتشرف المـرء بـالتعـرف على أكلات العرب، في عصر عزّ فيه التعرف على غيرها من مآثرهم.

إعلم، لا أنزل الله لك قِدراً ولا قَدراً، ان لأهل الإمارات أكلات لـو عـرفتهـا العرب في جاهليتها لكانت أقـرب إلى قلب طـرفـة بن العبـد البكـري من وصف الناقة.ولكان الاعراب الذين عبدوا رباً من التمر فضلوا عليه أربابـاً من القـوزي والمكبوس والهريس.

ومع ذلك، هل غـادر الشعـراء من متردم في فنـون الـوجبـات الخليجيـة الإماراتية؟ ما من صنف إلا وخصّوه بأبيات أو قصائد يعذرنا القارىء العـزيـز إذا لم نوردها كاملة. فطبق هذا الفصل يضيق برحابة تلك الموائد.

المرق يقال له في الإمارات «صالونة» وليست هذه المفردة مؤنث صالـون، جزم بذلك ثقات علماء اللغة. قال أحدهم:

وصـالـونـة يسبـــي الأنـــوف عبيرهـــا

وقـــد أجلســوهـــا فـــوق عـــرش من «العيش»

مـــرصعـــة بــــاللحم والخضـــــر الجنـى

متـى ذاقـهــــا حي تـشبـث بــــالـعـيش

والعيش الأرز. وتقول العرب من باب التهكم: صالونة أفرغ من بالـونـة. وذهب آخر إلى أن صالونة السمك ترجع الشيخ إلى صباه قائلاً:

وصــــالـــونـــة الأسماك قـتّـالـــة الهوى

إذا نـفـحـت شـيـخــاً روائحـهـــا شـبـــا

أما عن المكبوس فحدث ولا حرج. فقد أسهبوا وأطنبوا في وصفه ومدحـه. فهو تارة مكبوس وتارة أخرى كبسة. ويفصلون فيه الأوصاف فإذا هو «تحته» و«فوقه» حسب موضع اللحم من الأرز.

وينصح أبو الزبائد المستزيد من علوم المكبوس بالرجوع إلى كتاب «جنون المحبوس بفنون المكبوس». وفيه تقرأ روائع من الشعر منها:

مـــالـــي أكتم حبـــاً قـــد بـــرى جســـدي

وتـــذعـي حب أكـــل الـكـبـســـة الأمـم؟

وادعى بعضهم ان هذا البيت إنما قيل في القوزي وانه ... هذا النحو:

مـــالي أكتم حبـــاً قـــد بـــرى جســـدي

وتـــدعي حب قـــوزي الـــدولـــة الأمـم؟

وقيل في الكبسة

ان يـــذقـنـي الـــدهــــر كـبســـه

فـخــــلاصـــــي مـنــــه «كـبســـه»

وأما عن الهريس فالأشعار جمة. قال أحدهم وقد استفاضوا في الحـديث عن الهريس حتى خاله العريس:

فـــــي حـفـلــــــة عـظـيـمــــةِ

فـــــي لـيـلـــــة الخـمـيـــــسْ

تحـــــــدثــــــوا وأطـنـبـــــوا

ولـــــــم أر الـعــــريــــــس

فـقـلـت: قـــــدمــــوه لـــــــي

قـيـــــل اسـمـــــه هـــــريس!

ويندد أبو الزبائد هنا بالإنجليز الذين ادعوا بـاطـلاً وبهتـانـاً وزوراً أن «هريس» إنما هي الاسم الانجليزي HARRIS وان الثلاثي هرس أصله كذلك، وان هارسون أصلها HARRISON مثلما إدعى البعض أن شكسبير أصلـه الشيخ زبير!

ثم من أين للإنجليز هذه الأكذوبة ووجبة الأسرة البريطانيـة بـأسرهـا لا تتجاوز عشرين سعرة حرارية، في حين أن في كل لقمـة هـريس عشرين مليـون سعرة حرارية؟

المفترون! يحتجون بأن «هريس» اسم علم، اسم رجل، بدليل قول الشاعر العربي نفسه:

إذا كـنـت فـــــي حــــاجـــة مـرســــلاً

فـــأرســـل هـــريـســـاً ولا تـــوصـــه

وقالوا: جاء تنوين الهريس كضرورة شعرية.

لك أن تتساءل عن السبب الذي يدعو العرب إلى التعلق بالضرب. فبصرف النظر عن الأمثال التي ظلّت طوال التاريخ العربي تضرب، هناك «مضروبة» أخرى. إنها أكلة في الإمارات. ولمن شاء، الرجوع إلى قول الشاعر:

وفية سخية
من قدرها ما هربت
«مضروبة» ما سئلت:
بأي ذنب ضربت؟

يسلّط أبو الزبائد الضوء على قضية، لها وزنها على مستوى الأصالة التي نبحث عنها كثيراً، نحن العرب. فها هو ذا يشمر عن ساعديه ليبرهن على الأصالة العربية للبرياني: انه مشتق من فعل برى. ويستدل على ذلك بقول الشاعر:

سكّنوا راءك ظلماً
أنت عندي بَرَياني
خانني اللحم وخان الأ
رز عهدي هجراني
بَرَيا لي جسدي يا
لوعتي قد بَرَياني

لكنك لن تجد أشعاراً قيلت في مأكولات الإمارات تفوق ما قيل في الثريد والقوزي. وقد ذهب بعضهم إلى أن من أعد ثريداً لضيوفه ضاعف الله له

الحسنات خير مضاعفة. يقول:

يضاعف ربي لك الحسنات
فكل ثريد بألفي ثريد

صفقة رابحة مليوناً في المائة!

تأمل هذا البيان الساحر في قول أحد فطاحل الأكالين يمدح ثارداً عبقرياً:

تربت يداك فأنت نعم الثاردُ
كالبرق تثرد أنت حقاً مارد
فإذا التهمت فلمسة سحرية
وإذا الموائد كل شيء نافد

ترى، هل تستطيع أن تقول ما هي اللعنة التي يمكن أن تنزل من السماء؟ انها بإيجاز مائدة تنزل وليس فيها ثريد. ذلك الثريد الذي يرصعونه في الإمارات برأس وأكباد. وهو الكامل ويقال: «كمل الجمال من الثريد الكامل». أما البسيط فيقال فيه: «ان البسيط لديه يبسط الأمل» فهو المقتصر على اللحم والخضر دون الرأس والكبد. وأما المجتث فهو ما خلا من اللحم جميعاً واكتفي فيه بالخضر. يقول الشاعر:

لحا الله دهراً نرى فيه نكراً:
موائد ليس بها من ثريد
عليه من الرأس تاج بديع
وواسطة العقد فيه الكبود

فماذا أبقى هؤلاء للقوزي الذي قيل فيه:

ملك الموائد في الحياة القوزي
بلغ المدى في آية التعجيز

قد زينته مكسرات جمّة
متربعاً في أرزه الابريز

فإذا حظيت بلمسة كن شاكراً
وإذا حرمت الوصل تيكت إيزي

ولكن الشاعر الآخر يعيد إلى الأذهان أن هذه الأكلة تركية، بدليل أن «قوزي» تعني الجدي بلغة الأتراك.

يقول الشاعر:

أفديه بأمي من قوزي
تركي حن لتبريز

لا البيت الأبيض يعرفه
لا من في ضنك الكولخوز

لا من في لندن مرتعه
لا من في عالم باريز

جدي لكنه في نظري
أغلى من كل الابريز

ويعرّج أبو الزبائد على حلويات الإمارات فهذه العصائد التي تلعب على حبلي المالح والحلو يقول فيها الشاعر:

أكلنا على ذكر الحبيب عصيدة
شبعنا بها من قبل أن يُخلق القمح

ويقول آخر:

لك يا عصائد في القلوب قصائد
أقفرت أنت وهن منك شواهد

ما رأيك في اللقيمات؟ وفي الخنفروش وهو شبيه بها:

تأمل قول الشاعر متغزلاً بهما:

اللقيمات ما اللقيمات شمس
بزغت والرضاب منها ينير
فإذا ما توارت الشمس حيناً
فلدينا في الخنفروش بدور

وقال شاعر أهدوا إليه «الساقو» وهو من حلويات الإمارات:

ساقوك يا «ساقو» إليَّ هدية
أحلى وأشهى من رضاب الفاتنات

ولك أن تعجب لأمر ذلك الذي أقبل على «الخبيص» يلتهمه إلى حد التخمة، حتى أنه لم يعد يرى شيئاً، ولله دره من لُقَطَةٍ لُهَمَة:

سمعت بأن لديك خبيصا
وأنك تدعو إليك الخصوصا
فطار الفؤاد إليه اشتياقا
وجئت أحث إليك القلوصا
فجدت وأغرقتني بالخبيص
فلم أك أبصر حتى بصيصا

ومن طرائف أشعار الحلويات الإماراتية ما قيل في البلاليط، وهي شعرية بالبيض والزعفران والسكر تقدم في فطور الصباح وعند السحور في رمضان الكريم. قال أحدهم:

إن البلاليط وبُلُّغْتُها
قد أحوجت بطني إلى ترجمان

وليس هذا بمنساب رقراق كتغني إحداهن بوصال حبيبها، وقد أعدت له مائدة فيها بلاليط:

حتى بلاليطي التي أهملتها
فرحت به رقصت على شفتيه

رمضانيّة

شهر له كل الأنام تطلعوا
فالقلب يُشرقُ والبصيرةُ تسطعُ
والجسمُ يصحو فالصيام مصَحَّةٌ
ذاتيَّةٌ فيها الدواءُ الأنجعُ
والعالم العربيُّ يشمخُ رأسهُ
فعلى مدى شهرٍ لديه مدفعُ

حلم كافياري

سال شاه إيران الأخير، ذات مرة، رئيس وزرائه الظريف ساعدي:

ـ ما هو السبب في أن كافيارنا أفضل من كافيار الروس؟

ـ يا صاحب الجلالة، ان الكافيار لا يحب الشيوعيين!

صدق ساعدي، فمن أين للشيوعي المبهذل المهنتل أن يوفر الكافيار، وما يتطلبه من بيض وبقدونس وبصل وزبدة وتوست... وما هذه سوى لمسة في ديكور فخم لما هو أدهى وأحلى.

كيف تجمع بين طبقة كادحة وكافيار؟

الآن، آن الأوان ليقدم سمك الأسترجون إستقالته من بحر قزوين، فكلتا الضفتين لم تعد جواً مناسباً لحضور الكافيار.

الكافيار هو الآخر عزيز قوم ذل في العالم النظامي الجديد. فقد إستشرت الفوضى بعد تشرذم الإتحاد السوفياتي سابقاً وتفتته، وغدا الكافيار بضاعة غير ذات بال أمام المصائب التي يعيشها أهل الجمهوريات الجنوبية، وبات أي صياد سمك عديم الخبرة قادراً على اصطياد أسماك الأسترجون التي كانت أيام

العز يأخذون منها البيض بعمليات جراحية منظمة دقيقة، ثم يعيدونها إلى مياهها من غير سوء.

وهكذا أصبحت هذه الثروة النادرة الفاخرة على كف عفريت! فمن يستطيع في مناطق بلا قانون تهددها المذابح، أن يسهر على سلامة ترف كالكافيار؟

التعلق بالمياه كالتعلق بالأرض. داء قديم في الحيوان والإنسان. وإلا فما الذي كان يمنع أسماك الكافيار من الرحيل منذ الصيحة البلشفية الأولى إلى بلاد البلاطات العريقة والأرستقراطيات الأنيقة والبورجوازيات الرشيقة...؟

أما اليوم، فالذي لا يعرف الصقر يشويه. وقد يفاجأ عشاق الكافيار في المنطقة العربية أيضاً ذات يوم بأن الكافيار أصبح خبراً بعد عين!

ورغم أن البَرَكة في غذاء ملكة النحل، والعودة إلى الطبيعة بالجرجير والحِلبة والكرفس والمكسرات في أسوأ الظروف، فإن لدي إقتراحاً يستحق الدرس، والوضع في علب لا الوضع على الرفوف.

ما رأي رجال الأعمال، في الخليج، في إنقاذ أسماك الأسترجون من المحنة التي تعيشها والتي تهدد هذه الثروة الطبيعية العالمية بالإندثار؟ وذلك بشرائها ونقل كفالتها من بحر قزوين بضفتيه إلى المياه الدافئة وتربيتها أحسن تربية؟

فالكافيار، خاصة في الظروف الصعبة يحب العملة الصعبة. ثم من أدرانا بأنه لا يحمل تلك الجرثومة القيصرية: حلم الوصول إلى المياه الدافئة؟

هل حاولتم وردت عليكم أسماك الكافيار بأنها تفضل الموت على مغادرة الأرض؟!

كوريا

مّما يُستدل به على أن الشرق الأقصى لم يكن خلواً من الإبل، الأصل في كلمة كوريا.

فقد حطّ رئيس قبيلة الرحال في تلك الأرض، وأقام سوراً صغيراً حوله. فهوجم. وسبيت جواريه. ونهب متاعه ولم يدخروا له حتى كور ناقته. فأنشد متفجعاً، وهو من طيّب النواح:

قد هدمتم سوريا
وسبيتم حوريا
ونهبتم كل شيء
راح حتى كوريا

فبذلك سُميّت.

جونكور الطباخين

ليهنأ بال باعة الشاورما فسيكون لهم شأن عظيم في عالم الجوائز الأدبية!

لقد ثارت ثائرة مثقفي المعارضة المغربية حين منحت فرنسا جائزة «جونكور» الأدبية للشاعر المغربي الطاهر بن جلون، الذي يكتب بالفرنسية. ودعواها في ذلك أن منحه هذه الجائزة القيّمة أتى ضمن سياسة الرئيس فرانسوا ميتران الرامية إلى إعادة الأمجاد الضائعة إلى الفرنسية في البلدان الناطقة بها، من إفريقيا إلى الكيبك في كندا.

لكن، ليطب هؤلاء المثقفون خاطراً. فهذه الجائزة الأدبية العملاقة ستُمنح أيضاً لأفضل كتاب في الطبخ!

الأمر جد، وما هو بالهزل!

المسألة التي تبادرت إلى ذهني، هي أنه متى مُنحت هذه الجائزة لأفضل كتاب في الطبخ، فإن طهاة العالم العربي لن يقفوا مكتوفي الشوكات والسكاكين، وسيخوضون هذه التجربة الرائدة، إلى أن يأتي يوم لا تجد فيه أحداً في إتحادات الكتّاب العربية إلا وعلى صدره منديل مشدود إلى عنقه،

وأمامه فرّامة وخرّامة وثرّامة، وفرن ومقلاة وقدور وملاعق وأطباق وزيت وملح وفلفل وتوابل...

لك أن تتداعى إلى ذهنك مئات المفارقات الطريفة... لكنك ستتساءل في النهاية.

لماذا نستهين بالمطبخ إلى هذا الحد؟

أو لم يقل العلماء: الإنسان هو ما يأكل؟ أو لم يقولوا: «المطبخ كيمياء»؟ أي تفاعل عناصر وجزيئات ومواد؟

ترى من نحن من خلال تغذيتنا؟

إذا عدنا إلى كتاب «فقه اللغة» لأبي منصور الثعالبي، وتأملنا ماذا كانت العرب تأكل، وجدنا المواد الأساسية التي تشكل أركان المطبخ العربي القديم، تبعث على الرثاء: الشحم، الطحين، اللبن ومشتقاته، واللحم أحياناً. فهل قدم لنا أحد دراسة عن هذا الغياب الكامل للفيتامينات؟ لا خُضر، لا فواكه...

وفي عالمنا العربي اليوم؟

ترى ما أثر المبالغة الفادحة في استخدام الدهون في المطبخ التونسي؛ والإفراط في تناول الفلفل الناري المطحون؟

ما أثر اللحوم النيئة على اللبنانيين؟

ما هي آثار الفول المدمس اليومي على المصريين؟

ما تأثير الكافات الثلاث (الكوارع والكرشة والكبة) على العراقيين؟

وليقس ما لم يقل...

هل خطر ببالك مرة أن تتعقب الأخطاء التي ترتكبها المطابخ العربية؟

تصور مثلاً غباء أن نؤثر حيواناتنا الأليفة على أنفسنا فنقدم النخالة إليها علفاً وفيها من الفوائد ما يفوق فوائد الحنطة التي نتناولها.

ونحن نقدم الفصة أو البرسيم للأغنام وفيه من الحديد والفيتامينات ما يتعذر وجوده في غيره. حتى أن الدكتور صبري القباني صاحب كتاب «الغذاء لا الدواء»، يطالبنا بعقد مقارنة بين صحة أبداننا وصحة أجسام ثيراننا وكباشنا وتيوسنا وحميرنا أيضاً!

يقينا إن الإفراط في تناول النشويات لدينا دليل تخلف عن ركب الشعوب الغنية، فالكُسْكُسي والكُشري والمنسف والمكبوس كلها أغذية حجمية تنتمي إلى العالم الثالث.

لكن المشكلة أعمق مما نتصور. فها هي الأسرة الخليجية غارقة في الإمكانات المادية؛ ولكن التغذية السليمة القائمة على التوازن لم تتحقق بعد.

الخليجي الآن يتناول كميات هائلة هي أضعاف أضعاف ما يحتاج إليه جسمه من السعرات الحرارية. لذلك سرعان ما تظهر لدى الكثيرين الأعراض التي تبني بينهم وبين الأطباء والمستشفيات جسوراً متينة: إرتفاع ضغط الدم... أمراض القلب والشرايين...

الإمكانات شيء، والتصرف السليم شيء آخر تماماً.

فهل تتصور أن من السهل تغيير هذه العادات السيئة على طول العالم العربي وعرضه؟ وهل من اليسير أن يتعلم العربي ما يحتاج إليه من الغذاء كما وكيفاً؟

من الذي يستطيع أن يهدي الناس إلى سواء السبيل في التغذية، ويجعل العقل السليم في المعدة السليمة؟

أليس المتخصص بنشر الكتب عن التغذية المتوازنة في الدهون والنشويات، في البروتينات والفيتامينات؟

ألا يستحق من يحمل هذه الرسالة التغذوية جائزة «جونكور» عربية، وأن يكون له مقعد بين مقاعد إتحادات الكتّاب، حتى ولو فاحت منه رائحة الشاورما؟

بقي أن تتخذ الإحتياطات اللازمة إذا ما عقدت العزم على أن تدعو أصدقاءك إلى مأدبة برسيم ونخالة بدعوى الحرص على سلامة تغذيتهم!

سيماؤهم في أسمائهم

قال أبو الزبائد في هذا الفصل: خلافاً لكل الرؤوس الكبيرة في التحليل السياسي لا أحتاج في رؤيتي ورؤياي إلا إلى أدوات بسيطة، ساذجة، قديمة قدم الإنسان. لكنها أدوات لا تخيّب ظني أبداً، ولا تخطىء الهدف. سهام صائبة تقودها قوى لا تُدركها عين باصرة ولا مهجة قاصرة.

خذ: عندما يصعد شخص فيصبح شخصية، يتسلق واحدة واحدة، أو يقفز قفزة البراق، ترى عجباً!

ترى وكالات الأنباء، الإذاعات والتلفزيونات والصحف، أعني المبدعة لا تلك التي تعيش على فتات الموائد، مراكز البحوث، وزارات الخارجية، المحللين، التابعين منهم والمستقلين، جميعاً عاكفين، منكبين على الملفات، قديمها والجديد، يتسقطون آخر الأخبار وأحدث الآراء والأقوال، باحثين عن القبس وأخي القبس علّهم يهتدون إلى معرفة حقيقة ذلك الشخص الذي أصبح تلك الشخصية.

أما أنا، والحديث لصاحب الفرائد، فلا أنا مركز ولا وزارة... لا أنا شاشة ولا... ولا أية وسيلة إعلام غشّاشة. هذا العبد الفقير كعرّافة البلدة، أكتفي

بالإسم لأعرف فوراً ما وراءه من معـالم وعـوالم... من مؤامـرات ومنـاورات... ببساطة: قل ما اسمك أقل لك من أنت!

من تريد؟ تشاوشسكو مثلاً؟

حقاً! منذ أن جاء هذا الرجل إلى السلطة، وعلامات الإنصراف منقوشة على لوحه المحفوظ. لا أحد من العقلاء، النبهاء، يشك في ذلك. حتى أن الشاعـر قـال فيه، وهو من لزوم ما لا يلزم:

تـشـــــاوشـسـكــــو تـشــــــاوشـسـكـــــو
كـــــــــلُّ تـــــــارِيخِـــكَ رِسْـــــكُ
كُنْـــتَ قـــــدّيـســـــــاً لــــديـهـــــــمْ
وعـلـــــــــــــىٰ وجـهِـكَ نـســــــــــكُ
ثــم شـيــــــــدت عــجــــــابـــــاً
بــلـــــــداً كـلـــــه ديـســكـــــو
صـــــــــرت سـفّاحـــــاً عـتـيــــاً
إذْ تخلت عـنـك مـــــوسـكـــــو
هــبّت الأريـــــــــاح تـــــــذرو
فـخـتـــــــام الأمــــــــرِ مِسْــكُ!

هل رأيت، أيّدك الله، كم يبدو الثبات والإستقرار هزيلين هشّين، أشد هشاشة من عظام نظام فاسد؟!

منذ أن ولد هذا الرجل وكلمة الوداع «تشاو» تلاحقه... منذرةً بنهاية غير عادية! حتى في إيطاليا كانوا يعرفون ذلك وكل الإيطاليين يعلمون ذلك علم اليقين! أليس كذلك: تشاو!

ولله در القائل:

أنت ما أَسْموكَ تشاوشسكو جزافاً

فعلى إسمك منقوش: وداعا!

لا تحسبن ما ذهبت إليه محض صدفة أو خيالاً وأحلاماً وأوهاما. فلديّ من الأمثلة والإستشهادات ما يعيي النويقد النقديد، والمعيريض الرعديد. هناك مثل أبلغ: الزعيم السوفياتي سابقاً.

واهمون هم أولئك الذين ينظرون إلى ظواهر الأمور. أو يركضون وراء التحاليل السياسية المطوّلة المتعمقة، تلك التحاليل التي تعكف عليها الرؤوس الضخمة لرسم الدروب للصغار.

ما شأن التحاليل إذا كانت الأمور واضحة، فلقب الزعيم ميخائيل يكشف لنا كل الأسرار الكامنة وراء البريسترويكا:

إذا شئت أن تسميه غرباتشوف، بدت لك المقادير وهي تقول له منذ نعومة أظفاره: يا ميخائيل سيأتي يوم و«غَرْباً تشوف» أي سترى الغرب، ستنضم إليه وتنشق عن طوابير الماضي.

قال الشاعر وقد رأى في الأفق بوادر إجتماع الشرق والغرب على العرب:

غرباً تشوفُ إذا أَعْدَدْتَ معجزة الْـ

بريسْتُرُيكا فيغدو الشَرْقُ في الغَرْبِ

هَجِّرْ يهودَكَ وَآفتح كلَّ نافذةٍ

فَعِنْدَهَا يحسنُ الإعدادُ للعُرْبِ

أما إذا أردت أن تنطق إسم الزعيم السوفياتي على النحو التالي فإنك ستصل إلى النتيجة نفسها: قربى تشوف، بمعنى سترى القربى!

هل كان أحد قبل خليج الخنازير وبعده يتصور حتى في المنام أن أحفاد ستالين وخروتشوف وبريجنيف سيتناولون الهمبرجر في الساحة الحمراء؟

وهناك من ذهب إلى أن ميخائيل منذ أن كان صغيراً كان مغرماً بالرأسمالية، متحرقاً، فهدأت عرّافة من روعه ذات مرة قائلة: «جَوٌّ رِبا تشوف» فقيل له بعد ذلك «جورباتشوف». أي سترى جو الربا أي الحياة الغربية! وفي رواية أن الصبي ميخائيل بكى ذاتَ ليلة فهدهدته أمه، وكانت عرّافة ماهرة، قائلة:

تنقلب الصروف
جوّ رِباً تشوفُ
تغدو لنا متاجر
وكلّها صنوفُ
همبرجرٌ مضاعف
خنزيرُهُ والبيف
وليس من بضاعةٍ
إلا لها رديفُ

ما أظن أهل الفضل والعلم يصدون عن ذكر الحقيقة، أو يتنكرون للحق فيلوون رؤوسهم لهذه البراهين، أو يدلعون ألسنتهم لهذه الحجج.

خذ واحدة أخرى، فإنها حجة لا ترد: المرأة الحديدية سيماؤها في اسمها. كان الأمر لدي من المسلمات. سيأتي اليوم الذي تتنمر فيه هـذه اللبؤة للعـرب. ضاربة عرض الحائط بكل ما لدى بلدها من مصالح في أرضهم الواسعة.

قل إن شئت إن العرب يعرفون جيداً أن النساء ناقصات عقل ودين، فلماذا يؤاخذون المسز على كلام قالته. على كلام جرائد. كلام وسائل إعلام. وهل يمكن أن نجازي الشعب البريطاني على فعلة إقترفتها سيدة؟!

سيماؤها في إسمها؟ لقد كان معروفاً منذ البداية أنها تاتشر... أنها تـات شر... تأتي شراً. وقد قال الشاعرُ:

قــلـــتُ إذْ قـــــالـــــــوا جُزافــــــــاً
تـــــــــــــــــــاتْشَرُ خَـيـر الــــبَـشَرْ

ويـــــــحَ قـــــــومـي إقــطــعــــــوا رأْ
ســـــــي إذا لـــــــــم تَـــأتِ شَـــرْ

مسألة عجيبة هـذه السيماء التي في الأسماء. تصور مثلاً الشخصية الهندية المعروفة راجيف غاندي، لقد كان دائما في نظر المراقبين شخصية غير قادرة على سد الفراغ الذي تركته والدته. ولذلك كانت وسائل الإعلام تداعبه باستخدام اسمه دائمًا في موضع الإستفهام: أراجيف؟ أراجيف هو الذي غادر بلاده متوجهاً إلى كذا وكذا...؟

والديجوليون في فرنسا؟ هـل تـدري كيف ينظرون إلى رئيسهم الذي إنتخب مرتين رغم أنف ديجول، ورغم عظمة أنف ديجول؟

عندما كان الجنرال حيّاً كان ميتران شخصاً ميتاً في نظر الديجوليين. أمّا وقد رحل الجنرال فإن فرانسوا «مَـيْـتٌ ران» على قلوبهم.

سيماؤهم في أسمائهم؟ هاك مثالاً آخر: جاك شيراك. منذ سنوات بعيدة والعرب يتمنون أن يتولى هذا الرجل الديجولي السلطة في فرنسا. وعندما أصبح رئيساً لوزراء بلده، قال الفرنسي للعربي: «جاءك الحزب بشراك»!

أما الفرنسي العنصري «لي بان» فقد «بانَ لي».

الآن، وقد أصبحت روسيا «غرباً تشوف» وغدت مع أميركا «خوش بوش» وتوحدت أوروبا، فإن علينا، نحن العرب، أن نضاعف جرعة المنومات. لأن سيول التغيير ستجرفنا تجرفنا، فلتجرفنا ونحن نيام وأرجلنا في الماء. ولا يستمع أحد قول ذلك الشاعر المخرف:

إتحــــــــــدت أوروبــــــــــا
واكْتَمَـــــلَ الـــنــــصـــــــابُ
مـــن شرقــهـــم لـــغـــــــربهم
فـــما هُمُ أغـــــــــــرابُ
تجــمّعـــــــوا واتّـحـــــــدوا
وَصُفّـــيَ الحِســــــــابُ
ونـحـنُ فـــــي غـيـبـــوبـــةٍ
هــــل يـنـهضُ الأعـــــرابُ؟

ليما

عاصمة بيرو أصلها عربي واضح. ولكن أكثر الناس لا يعلمون. والقصة في ذلك هي أنّ رجلاً وامرأة من النبلاء ألصقت بهما تهمة باطلة وذاقا هواناً كبيراً. فقيل فيهما:

عُـزِّر اثنـان دون ذنـب وليمـا
فتـرى الكـل سـائلاً: لِـمَ ليمـا؟
أمـن الحـقّ أن تلـوم بـريئـاً؟
أم مـن العـدل أن تكـون ظلـومـا؟

فعندما إتسعت القرية وأصبحت مدينة كبيرة، سُميّت: ليما.

مؤامرة على في

هل يُعقل أن يتآمر الناسُ على حرف جر مثل «فـي» المسكينـة؟ سيرد القارىء المتسرع بالقولة الشهيرة: «حدّث العاقل بما لا يليق، فإن صدّق فهو غير عاقل»! لكن المؤامرة قائمة. والمتآمرون هم أهل السلطة الرابعة. فهناك مئات من الصحافيين على طول هذا العالم العربي وعرضه أباحوا سفك دم «فـي». وبايعوا صراحةً وعلناً حرف الجر «ب».

وها نحن اليوم نرى الباء قد إنتصرت بدهاء عجيب على «فـي». مثلما خرج عمرو بن العاص منتصراً على أبي موسى الأشعري بحركة، بل بحيلة ماكرة في لعبة مصيرية بالغة الخطورة. فهذان الرجلان كانا مجرد نائبين عن علـي ومعاوية!

لعبة «فـي» و«ب» ليست تنافساً فنياً حاداً محتدماً إنتهى بشكل أو بآخر ببقاء طرف وتواري الطرف الآخر، مثلما حدث بين اسمهان وأم كلثوم.

كما أن هذه اللعبة بعيدة عن أن تكون صراعاً بين حي وميت مثل صراع الشريف الرضيّ مع أبي الطيب.

يمكن أن نتصور في هذا العصر المشكلة على أنها مشكلة أمانـة. وأن البـاء إرتكبت خيانة! فقد قيل إن حروف الجر تنوب عن بعضها. كأن تقـول: «فـلان مقيم بهذا البلد أو في هذا البلد» لا فرق.

لكن الباء استغلت هذا القـانـون «النيـابي» وشكلت لـوبي، وأصبحت لا تترك لأختها «فـي» جملة أو ما دونها إلا ونابت عنها وسـدّت عليهـا الطـريق. تمامـاً مثلما يحدث في السيـاسـة حين يطـرح الـواحـد الآخـر، بلعبـة «أدخلني أُخرجك». على غرار ما فعله السادات بعبدالناصر. وكم لنـا من أمثلـة في العـالم العربي؟! دعنا من هذا فنحن في حديث غير سياسي!

يقولون مثلاً: «فلان يتدخل بالسياسة». ولا يدرون أن ميدان اللغـة مليء بالمخاطر. لأن الأرجح هو أن حروف الجر لا تنوب عن بعضها، بـدليـل أنـه لا تزر وازرة وزر أخرى. فلو قلنا «تدخل بالسياسـة»، لأصبح المعنى مرادفاً لقولنا «تدخل بواسطة السياسة»، أي أصبح الحديث مطابقـاً لمـا يجري على السـاحـة السياسيّة للتدخل في شؤون الغير شعباً كان أم شعوباً. وعنـدئذ يصبـح الأمـر فُرُطاً وشططا. إذ يستحلي ذلك الفرد اللعبة ويتجاوز حـدّه. تمامـاً مثلما تفعـل الباء بأختها «فـي». مثل ذلك قولهم «شامير الأوفر حظاً بتشكيل إئتلاف». فهل هو أوفر حظاً بالتشكيل أم في التشكيل؟ هنا نرى حقاً أن الباء وضعت قدمها في حذاء فـي! وذلك مثل قولهم: «يفكر بالإستعمار»، فهل هو يفكر به؟ أم فيه؟

المؤامرة على «فـي» واضحة الآثار والنتائج. ولكن خيوطهـا غـامضـة. إذ ليس سهلاً أن أتهم الزملاء بأنهم يسيئون معاملة السيـدة اللغـة وبنـاتها. فهم يدركون طبعاً أن النجاح في المهنة لا يتنافـى مع سلامة اللغة والأسلوب.

على خط بارجيل

ما عبرت شارعاً من شوارع دبي، وقفز قط من هنا أو هناك، إلا وسرحت متسائلاً عن سبب ظاهرة الهزال في صفوف قطط المدينة!

غريب! الهرة التي تشبه بها حواء لحبها الأجواء المخملية والأحضان الدافئة تكون على هذه الحال؟

ما لهذه الهريرات بلا طموح؟

سنوات عديدة وهذه التساؤلات لا تفارقني. فأنا أحب القطط. لكن ذلك لم يكن حتى الآن حافزاً إلى حد فتح تحقيق كاف شاف ضاف عن علة هذا الهزال. تحقيق أوله في البلدية وآخره في وزارة الصحة.

المسألة ليست رومانسية إلى هذا الحد. فما أن تتكور أحلامي وتدخل رأسها في حضنها كالهرة، حتى ينفخ العقل في صور الوعي، وتنقلب الصورة إلى مشهد درامي:

ـ يا أنت... تريد أن تفتح ملفاً طويلاً عريضاً للتحقيق في أسباب هزال القطط؟ وتفكر في هذا سنوات؟ لِمَ لَمْ تُفكر في هزال الأمة؟

يا إلهي! ما هذه الورطة التي وقعت فيها؟ عبرت الشـارع. فقفـز قط من هنا أو هناك، وبعفوية وقع نظري عليه. بصراحة، كان هزيلاً. ماذا أفعل؟ ذهني شديد الفضول. يتدخل في كل شيء: من القطط السائبة إلى صانعي التاريخ.

هل أستطيع أن أمنع القطط من عبور الشوارع؟

كيف أنجح في منـع القطط إذا كـان غيري قـد فشـل في منـع الجمال من عبور الشوارع؟ أيهما أكبر، بالله عليك؟

هل من حقي أن أفرض حظَر تجول على القطط؟ وكيف أحصـل على هـذا الحق؟ كيف أعلن الأحكام العرفية على القطط؟

هل بإمكاني أن أعتكف في بيتي إلى أن يبعث الله حلاً لهذه الحيوانات التي خُلقت أساساً للمداعبة والدفء والأجواء المخملية؟

هل أعبر الشـارع بعصـاً بيضـاء متظاهراً بالعمى حتى لا أرى قطاً يقفز من هنا أو هناك؟ ذلك يربك المـرور ويقـول الـذين يعـرفـونني: **﴿إنهـا لا تعمى الأبصار ولكن تعمى القلوب التي في الصدور﴾** صدق الله العظيم.

أصبحت المسألة قضية عجيبة، من لا شيء!

قبل كل شيء، مشكلة القطط هي عجزها عن إدراك المشكلة. فـالأميـة بين هذه المخلوقات، مائة في المائة. هل تستطيع أن تقول للقطط الهزيلة: مثيـلاتك في الدول المتقدمة حققت الإكتفاء الذاتي. وأن في فرنسا تسعـة مـلايين كلب تعيش عيشة راضية وتتمتع بحرية التعبير. فكل نباحٍ مُباح. أما القطط في مدينة النـور فتتقلب بين الخز والحرير والمخمل والفرو!

لو سمعك معتزلة آخر الزمان تقول مثل هذا الكلام لقط هـزيـل مختبىء تحت سيارة ما في شارع ما لقيدوك ونقلوك إلى مستشفى المجانين!

قد يكون هذا الهزال منطقياً. فالقطط تحب الدفء ولا يتوفر ذلك إلا في بلاد باردة. لا في خمس وأربعين درجة مئوية في الظل.

ولعل مرده إلى فرط التدرق، أي ازدياد إفرازات الغدة الدرقية؟ لكن نسبة اليود عالية في هواء المدينة. إلا أن المسألة نسبية. فسنغافورة محاطة بالبحر، ومع ذلك توجد فيها نسبة عالية من الإصابات بفرط التدرق.

ثم إن من خصائص فرط التدرق ظهور توتر الأعصاب بشكل حاد. في حين أن هذه القطط أكثر وداعة واستسلاماً من دعاة حرية تقرير المصير.

ينفخ في الصورة ثانية:

«كفى... هزال الأمة أولى بالتفكير»!

ماذا لو رددت عليه؟ ألا يقولون: مجنون!؟

أساساً، ما علاقتي بالقطط؟ وعلى رأي العبد الفقير:

مـــــالـــــــــي ومــــــــا لـلـقـطـطِ؟

يــــــا غـلـطـــــــاً فــــــــي غـلـطِ

الـبـحـث فــــــــي هــــــــزالها

مــن شـــــــــأن أهــــــــل الـعـبطِ

وإن فـــكــــــــــراً هــكـــــــــذا

أولـــــــى بـــــأكــــــل الـــــزلطِ

لكن، لنأخذ الأمور بجد بعيداً عن الهزل:

ما الذي يحدث لو كتبت رسالة إلى البلدية أو وزارة الصحة في هذا الأمر.

قبل كل شيء، يجب أن تكون لي هوية تؤهلني لذلك، فلا أنا زعيم نقابة القطط الهزيلة، ولا أملك أيَّ توكيل رسمي منها.

أستطيع أن أقول: إن مهمتي إنسانية قطية أو «إنساقطّية» لإختصار المصطلح، مثل «الزمكان» بدل الزمان والمكان.

مهمتي إذن مثل رسالة بريجيت باردو المدافعة الأولى عن الحيوانات المعذبة في الأرض.

لكن ما وجه الشبه بيني وبين بريجيت باردو؟

وجدتها: هي الآن لا تصلح لأفلام الإثارة، وأنا كذلك!

لو كان الناس يؤمنون إلى حد الآن بالطوطمية أي برجوع الأصول العائلية إلى حيوانات، لكان يسيراً أن أجد غصناً مشتركاً، في شجرة العائلة، مع هر، ليث، أسامة، كلب، كلاب، ضب، ثعلبة...

تشعبت الأمور بشكل عجيب وتداخل التاريخ في الإقتصاد في علم الأنساب، في المعتقدات، في طب الأمراض العقلية في سينما الإثارة والإغراء في المعتزلة...

كل ذلك من قفزة قط هزيل في أحد الشوارع؟!

شيء لا يُصدق!

أميركا

لم تختلف الناس حول معنى قارة إختلافهم في معنى القارة الأميركية. فجذور هذه الكلمة عديدة متشعبة.

منهم من قال: إنما الأصل «أمير كان» مستدلاً بقول الشاعر في منظومة طويلة عن أحد أمراء الهنود الحمر منها:

أمير كان من قوم
هنود في الورى حمر
لهم تاريخهم سلفاً
فمن جونٌ ومن هنري؟

في حين نرى مؤرخاً آخر يذهب إلى أن الأصل بعيد كل البعد عما ذهب إليه الأول قائلاً: ان الأساس قول الشاعر في قصيدة عصماء طويلة:

لا تسل ان الخفايا جمة
واختصر قولك ان الأمر كان

تقصير المتنبي

حدّث المصنّف قال:

هناك أمور تبدو غير قابلة للحل. مثل ذيل الغـزال، تضعـه مـائة عـام في قالب لتقويمه، حتى إذا أخرجته بعد قـرن عـاد إلى سيرتـه الأولى! أمـور كيفما قلبتها ظلت فاسدة المزاج، ليس لها علاج، على حد تعبير الغزالي.

تريد أن تقول لشخص تحترمه:

ـ سأحدثك بشيء يميتك ضحكاً.

ثم تقول في نفسك:

ـ لعله يقشعر بدنه إذا سمع «يميتك».

وتتساءل في براءة الأطفال: لِـمَ لا أقول له:

ـ سأحدثك بشيء يحييك من شدة الضحك.

لكن المسألة صارت مشكلة أسوأ، فقد اعتبرته ميتاً أسـاسـاً وأنت تـدّعي أنك قادر على إحيائه مثلما فعل عيسى عليه السلام.

ـ تدعي النبوة؟ أقل جزاء: الإعدام!

لكن، هل يمكن أن تحل المشكلة وتخرج من المأزق بقولك له في منتهى السذاجة:

سأروي لك شيئاً لا يميتك ولا يحييك من شدة الضحك!

منتهى الغباء! سيرميك حقاً بالغباء وأنت في غنى عن هذه الصفة.

ما الحل إذن؟

هل يمكن أن تقول له:

ـ سأقول لك شيئاً يميتك ويحييك أو يميتك أحياناً وأحياناً يحييك من شدة الضحك!

أسوأ وأسوأ من الكل. لأنه سيضمر في نفسه أنك تستحمره وتستبغله!

أمور ما لها حل!

فكِّر معي جيداً في إيجاد حل لهذا البيت لأبي الطيب. بيت عنيف جداً. كارثة:

أغاية الدين أن تحفوا شواربكم
يا أمة ضحكت من جهلها الأمم؟

اليوم، ولكوننا في القرن العشرين، أي بعد المتنبي بألف سنة، لا نسمح بمثل هذا الكلام. يجب أن نفرض رقابة على شعر أبي الطيب. خاصة وأن أفكار هذا الشاعر أخطر على المجتمع من مجلات «بلاي بوي».

اليوم، ليست الأمور سائبة مثلما كانت في تلك الفترات التي كان الكُتّاب والشعراء يتمتعون فيها بما يسميه «زعران» الوسط الثقافي اليوم: حرية التعبير.

حرية التعبير فوضى؟

الشعراء أحرار طبعاً في قانوننا اليوم. هل صدر قانون يحظر عليهم التغني بالبلابل والسنابل؟ وخرير المياه؟ وحفيف الشجر؟ غمز النجوم وضحك القمر؟

هل هناك شعر غير هذا؟ الباقي كله ينظمه الحزب! ومنا عليكم السلام.

حرية التعبير، لو أُطلق العنان للناس ولم توضع لكل دابّة آدمية شكيمة أو رسن أو خطام أو رمة أو سلسلة في رقبة، لتكسرت النصال على النصال. ولقامت القيامة.

حرام! الفتنة نائمة لعن الله من أيقظها. هكذا أوصى الحكماء!

المهم، الآن، هو كيف يمكن أن نعالج بيت شاعرنا الكبير فإن هذه الحدة لا تتماشى مع ظروفنا اليوم.

عجباً! كم كان الناس متخلفين في عصره! كيف كانوا يسمحون بمثل هذا الخروج على المقررات؟ أناس بلا إنضباط... فوضى... هرج ومرج!

اليوم، والحمد لله، تنعم دول كثيرة بتقنين الكلام. تماماً مثل المواد الإستهلاكية في زمن الحرب.

الكلام أيضاً مادة إستهلاكية. وهذا هذا.

تأمل الإذاعات كلامها كله ينتهي وجوده بمجرد بثّه.

حياة الكلام الإذاعي تُحسب بسرعة الضوء. في لمح البصر تكون الكلمة قد ولدت وماتت. ولا يحتفظ بها اللسان. ولا حتى أرشيفات الإذاعات نفسها.

لهذا، إهتدى خبراء الإذاعات العربية إلى ضرورة بث أي كلام فارغ. لماذا يتعبون أنفسهم؟ لماذا يفكرون في التطوير ومواكبة العصر، إذا كانت المواد تموت فوراً ولا تعود أبداً؟!

على كل، هواة الكلام لن يعدموا الحيلة والوسيلة وحرية التعبير.

تريد أن تقول ما تشاء؟

إذهب إلى البحر وبُـحْ للأمواج بما تشاء مثـل ذلك اليـونـاني الـذي تعلم الخطابة أمام خِضم الأمواج.

إصعد إلى الجبل، أي طور في أية سيناء. اهجر النـاس ولا تكلمهم أربعين يوماً. قل ما شئت للصخور. فإنها أهش وأبش من صخور القلوب. فـإذا عـدت ووجدت الناس يعبدون عجل الهزال الفكري... ولا يعـرفـون رغم كـل تـراثهم وميراثهم حتى كيف يميـزون بين الأبيض والأسـود. فـلا تتشـاءم كثيراً. لست موسى!

أمور ما لها حل!

تأمل سخرية القدر في السودان. كان ذات يوم أكبر أمل للأمة العربيـة في الخلاص من الفقر الغـذائي، الأمـل الـوحيـد في تحقيق الإكتفـاء الـذاتي والأمن الغذائي، في السكر والحنطة على أقل تقدير. هو اليوم أسـوأ حـالاً من أثيـوبيـا. أسوأ حتى من قبائل الوولو في الحبشة!

كيف نحل مشكلة أبي الطيب؟ فالمتنبي حبيبنا ونريد لمشكلته حـلاً. دون أن يدخل السجن أو يُضطر إلى العودة إلى أحضان كويفير.

ماذا نقول:

أغـــايـــة الـــدين أن تحفـــوا شـــواربكم
يـــاأمـــة نـــدبت من جـهـلـهــا الأمـم؟

صارت المسألة أسوأ!

أبو الطيب، إنسان طيب. حسن النيـة. وككـل مؤمن، غـر كـريم، رغم أن البعض يريدون الطعن والتشكيك في إيمانه لإلحاقه بزنادقة الإسلام: أبي حيـان التوحيدي، أبي العلاء المعري والراوندي.

لقد كان أبـواه راضيين عنـه. وإلا لـو عـاش في القـرن العشرين لحلقـوا *حاجبيه لا شاربه فقط!*

في أي مكان يستطيع اليوم أبو الطيب أن يقول:

ليعلم الجمع ممن ضم مجلسنا

بأنني خير من تسعى به قدم

لو كان لسيف الدولة مسدس، هل كان يضربه بمحبرة؟

الحمد لله على أن المسدسات وجدت بعد الملك الحمداني.

لكن، لماذا اكتفى سليل تغلب الغلباء بالمحبرة؟ آنذاك، كان النطـع والسيف موجودين. وما أكثر الجلّادين. آنذاك طبعاً.

سابقة تسامح غريبة، غير مقبولـة في عصرنـا! شخص يقـول مثـل ذلك البيت ولا يضرب إلا بمحبرة قد يستغلها هي نفسها في كتابـة قصـائد عـديـدة معادية!

كيف إذن نحل مشكلة بيت المتنبي؟

هل نقول:

«يا أمة ندبت من علمها الأمم؟».

أسوأ وأسوأ!

كان المتنبي يحمل سوبرماناً في جمجمته، وكان يريـد أن تُشـاد الـدولـة العربية على السيوف.

أقوى الممالك ما يُبنى على الأسل

والموت عند محبيهن كالعسل

أرجو أن تسحب الرقابة العربية، في كل شبر من وطننا العربي الكبير، كل نسخ ديوان المدعو المتنبي وتجري التعديل التالي على المطلع، هكذا طبقاً لما تقتضيه المصلحة العامة:

أحلى الممالك ما يُبنى على العسل

وكلُّ ما دونه: كالثوم البصل

ولا مانع من التعديل على النحو التالي:

أبقى الممالك ما يُبنى على الأمل

فلا تفكر على الإطلاق في العمل

تقصير أبي الطيب أوضح من الشمس. فكيف نخفف من حدة البيت إياه؟

هل نقول:

أغاية الدين أن تحفوا شواربكم

يا أمة ضحكت من علمها الأمم؟

أسوأ... أسوأ... وأسوأ!

فوازير أبي الزبائد

حدّث أبو الزبائد في هذا الفصل قال:

تا الله لقد سئمت الخوض في قضايا الأمة الحسّاسة. ورأيت أشرف لي البعد عن السياسة والساسة. لذلك تراني، أيدك الله بجنود من الفهم لا تصيبها عين، ولا يدري أحد هي أين، أعمد دائما إلى تسلية القارىء والسامع بما لا يجلب وجع الراس، ولا يخرب الدنيا من الأساس.

هذه فوازير بريئة، براءة يوسف من دم الذئب، براءة أفغانستان من احتلال الإتحاد السوفياتي، والجزائر من إستعمار فرنسا، وهيروشيما من قصف الولايات المتحدة بالقنابل النووية. وبراءة سوريا من قطع ماء الفرات عن تركيا. براءة لبنان من التدخل في شؤون جميع البلدان...

هذه فوازير بريئة، براءة العرب من تنمية الإقتصاد وتطوير الصناعات على كل المستويات. براءة العرب من الشقاقات والنفاقات. براءة الأعراب من الأعراب، ومن أي محل من الإعراب.

هذه فوازير أعدها بوحي سام من عبقرية المسابقات الرمضانية في العالم العربي، أعادها الله علينا جميعاً بالجهل والحماقات. فإذا اهتديت، هداك الله، إلى

الحل الصحيح، فأكرم وأنعم. وإلا فما عليك إلا أن ترجع إلى الحل في نهاية هذا الفصل وقد أوردناه، (بما يتناسب وظروف الأمة) مقلوباً:

1 ـ ما اسم شيء هو صنوٌ للأمام
ولدى العُرب نقيض بالتمام؟

أنا لا أقول لك، وأنت لا يخفى عليك. فالحرام واضح والمحرم واضح، وإلا ما استطعت أن تشهد تقدماً في حياتك ولا حتى قيد أنملة.

والآن هل تعرف هذه السيدة ذات القامة العملاقة. ما من أحد في الدنيا إلا ويعرفها. فكل الناس تكتوي بنارها صباح مساء. بلا مبالاتها، بمداهناتها، بغض نظرها، إلخ... وهلم جرّا...

2 ـ ألعوبة عجيبة

في كف شر مارد
برّاقة في اسمها
عديمة الفوائد
تخالها حاضنة
لشارد ووارد
حاضرة ناظرة
كميت مشاهد
فإن وقعت مرّة
فريسة المصائد
فاعلم بأن غوثها
ثرثرة الجرائد

إن لم تعرفها، ولم تكن تعرفها على حقيقتها، فدعك. وتعال قل لي من هذه: إنها أصغر من تلك السيدة ذات القامة العملاقة. المحيطون بهذه أقل عدداً. ولكنهم تربطهم وشائج عديدة، وأواصر وطيدة. ولكن الخير فيما يختاره الله على حد تعبير البعض عندما لا يجدون شيئاً يبررون به المُصاب الجلل. هكذا يقول البؤساء! دعنا، من هذه يا تُرى:

3 ـ عند الكلام شاطره
وتدعي المناصره
إن صحت: إني غارق
تشرع في المحاضره
ما أفلحت في تونس
فهل ترى في القاهره؟

هذه القاهرة المعزية تجذبنا إلى عاصمة الألف مئذنة. ما شيء أثقل من الأهرام؟ فهل هو الجبال الرواسي؟ الأمر مستبعد، لأن أبا الزبائد يقول بوضوح إن مصر تنوء بهذا الثقل وتموء.

4 ـ هي أثقل من كل الأهرام
خنقت مصراً طول الأعوام

ما الذي يجعل أعظم دولة عربية تحمل على كاهلها عبئاً أثقل من الأهرام، حتى أفقدها ثقلها ووزنها؟

إليك هذه الفزّورة:

5 ـ أحببــت لبنــى وحبــي كــان أشجانــا
فــالحب يقتلـني خــوفــاً وأحــزانــا
أخشى عليهــا ورود النــون ويــح أبي
فعنــدهــا يصبــح المحبــوب...

يصبح ماذا؟

تعال قل لي بربك ما هذه الظاهرة العجيبة التي يصورها المصنّف في هذه الفوازير على هذا المستوى من الهول؟ يخيل إليك أنه يصف غولاً قاتلة فتّاكة بطاقات هذه الأمة تعرقل سيرها وتجعلها تعكف على أمور هي باطل في باطل، لأنها لا تستحق كل هذه الأهمية وهذا الإهتمام. ظاهرة لا تستحق أن تكون رائدة في أمة قوامها مائتا مليون نسمة، أمة هي في حاجة إلى كل لحظة وومضة من وقتها للحاق بالركب الذي تأمن فيه الموت والفناء والإنهيار والإندثار.

دعنا من الخطب الرنانة:

6 ـ الجماهيــر خلفهــا فــي هــات
وهــي أقــوى من جملــة الأحــزاب
لــم نطــالــب بمنعهــا غــير أنّا
قــد خشينــا نهــايــة الأعــراب
لم يعــودوا يــدرون شيئــاً ســواهــا
يــا تــرى مــا حقيقــة الأسبــاب؟

ها هي ذي الفوازير تبلغ منتهاها بهذا السؤال الذي أقطع يدي إذا لم يكن أبو الزبائد يقصد شيئاً من وراء تركه الأخير.

فكاهـــة:

7 ـ مـــا اســـم شـــيء لـــه وظائــف شتـــى
عـــــــدد الـنجـم والحـصـــــــى والـتراب
جمدوه فـــــــــي الـعُـرب دون حـــــــــراك
فهـــو صفـــرٌ فـــي الفن أو فـــي الحســـاب

ملاحظة: على من يتوصل إلى الحل الصحيح أن يرسل إلينا الجائزة!

* الحلول:

1 ـ التقدم.
2 ـ الأمم المتحدة.
3 ـ الجامعة العربية.
4 ـ ديون مصر.
5 ـ لبـنان.
6 ـ الكُرة.
7 ـ المخ العربي.

الإسقاطية

أعظم مفخرة معمارية في مدينة «الأرب» الأسطورية، مزار لرجل صالح فالح يدعى إسقاط. وكان سيدي إسقاط ما أشكلت مشكلة، أو أعضلت معضلة، إلا حلها في لمح البصر. فكانوا يقعون عند قدميه يلتمسون كراماته، ويستسقون بركاته. فلما ارتحل شادوا له مزاراً ما لجماله حدود، فهو يتيمة الدهر في العقد الفريد.

هكذا استهل أبو الزبائد هذا الفصل عن مذهب الإسقاطية، الذي هام به أهالي مدينة الأرب. ويضيف:

كان سيدي إسقاط إذا عسر النطق على أحد حل عقدة من لسانه. وإذا عجز كائن عن التعبير أجرى سلسبيل بيانه. فكان الألكن يخرج بعد لحظات فإذا هو قس بن ساعدة، أو الحجاج، أو طارق بن زياد. قال شاعرهم:

الفكر جُرم والكلام شرورُ
حال تدوم وما لها تغييرُ
لولاك يا إسقاط ما كانت لنا
حريّة يحلو بها التعبيرُ

ونصح أحدهم إبنه باللجوء إلى الولي الصالح إذا أراد فتح فمه:

لا تنطق حرفاً يا ولدي
إن لم يسعفك به إسقاط
كم حرف أردى صاحبه
وأصاب ذويه بالإحباط

تصور أن أهالي تلك المدينة لم يكونوا قادرين على توجيه أي إنتقاد إلى مجالات حياتهم اليومية.

يقول المصنف:

نصف تراث تلك المدينة يحث على الصبر والنصف الآخر يحض على السكوت. حتى أن الوليد يأتي إلى الدنيا ومعه شهادة براءة من آفات اللسان. فقال شاعرهم:

أمتي أجمل ما فيها السكوت
يعمل الإنسان فيها كالربوت
كل مخلوقاتها قد وقّعت
أن فتح الفم شيء لا يفوت
فإذا ما اشتاق كلب لنباح
فهو يدري فطرة فضل السكوت

أهالي المدينة كانوا أمة لها قيم سامية ومُثل عالية. يقتدون بالعظام، ويقتفون آثار الرواد في التاريخ.

لقد أخذوا عن الزهاد الفقر. وعن الأنبياء الأمية. وعن العشاق العلة والسقام. وعن المفكرين وطأة الهموم والبرم بالحياة. وعن الخطباء كثرة الكلام. وعن الفلاسفة طول الجدل. وعن الشعراء الجنون. فإذا هوجموا أو استُبيحت حرماتهم رفعوا راية الصبر على الأذى إقتداءً بأولي الألباب والعزائم. حتى قال أحد شعرائهم:

اشتدي أزمة تنفجري

قد آذن ليلك بالغجر

وهكذا كلما تأزمت الأمور، وتعذر التعبير، هرع الحكماء منهم إلى سيدي إسقاط فحل لهم المعضلة وأطلق العنان لألسنتهم بطريقة أو أخرى. كانوا يقعون عند قدميه مرددين:

سيدي إسقاط عجل بالفرج

فلقد طال بنا هذا العوج

فكان يرق لحالهم ويرشدهم مبتسمًا: قولوا ما شئتم على ألسنة الحيوانات. اسقطوا ما راق لكم على ما يطيب لكم. ولم يكد يفرغ من كلامه حتى طار ابن آوى بالخبر إلى ملك الغاب. وهمس في أذنه بأن الثور يتآمر على وحدة الغاب وهيبة العرين. فجمع ملك الغاب السباع وألقى فيهم خطبته التاريخية...

ومن يومها، لم يعد أحد يستخدم فعل سقط. بل هوى.

يا... هوى!

رسالة

يعيبُ عليَّ البعض طول لسانيا
يقولون خيرٌ أن أصون حصانيا

وما أنا مختار وعندي رسالةٌ
فلا لُجْم تجديهم لِلَجْمِ بيانيا

يريدون معسولاً من القول راقصاً
أتبغون أن تمسي الحروف غوانيا؟



ربّـنـــا...

نزّهنا عن أن نسألك خيراً لنا وحدنا

فأنت أعظم وأسخى من أن تستجيب لنا وحدنا.

ربّـنـــا...

كل العباد عبادك

نسألك التوازن بين عصر الفضاء وبدائية الجوع

وإنصاف من تكفيهم حفنة حنطة،

ممن يحرقون ملايين الأطنان حفاظاً على الأسعار

ربّـنـــا...

لا تشرد أحداً

ولا تدمر أحداً

ولا تكدر أحداً

ولا تعذب أحداً

إنك أنت الغفور الرحيم.

كان الفراغ من هذا السفر، في ديار دبي العامرة، في سلخ ذي القعدة
سنة ثلاث عشرة وأربعمائة وألف على يدي الفقير إلى ربه، شيخ
الطرائق ومعدن الحقائق، العالم العامل العلامة القدوة،
فريد عصره ووحيد دهره، أبي الزبائد عبداللطيف
ابن محمد بن عبدالله بن العربي الزبيدي ثم التوزري
التونسي، عفا الله، والأنظمة، عنه وعن
جميع الساخرين. آمين.
والحمد لله رب العالمين.

الغلاف	الخطوط	الجمع التصويري	تنفيذ
الفنان وليد إبراهيم الدليل للدعاية والإعلان دبي	الفنان بسام دسيني	دانيال يوسف حنا	حمدي عبد المجيد

قال أبو الزبائد:
لما رأيت فرائدي منثورة في صحف يمسح بها الزجاج، ويؤكل عليها الدجاج أو يذروها العجاج، آثرت جمعها في سفر يكون درّة الأدب الساخر، في عصر المساخر. وحلية للألباب، وتحفة يتهاداها الأحباب. من فرائد هذا الكتاب «جمهورية الحماقة» وفيها أشعار حماستهم وغزلهم ومراثيهم... و«جمهورية الغزل»، التي دخل شعراؤها عصر الذرّة والإتصالات. وفيها غزل الطبيب والقصّاب والتاجر والبوليس والدبلوماسي والصحافي والزبّال والحمّال والحانوتي... وما هذا السفر سِجِلٌ لمصائبنا، ولكنه سجِّيلٌ لنوائبنا. وكما لم يقل المثل: علاج كل غمّة بسمة، وشفاء كل وعكة ضحكة.

والله ولي التوفيق في الدعابة

أذبح شعبًا كاملًا إن يأخذوكِ مني

غزل القصابين